محاضرات

في

الخلفاء الراشـــدين

دكتور

عبد الرحمن أبو راس

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية اللغة العربية بالزقازيق

الطبعة الأولى

٢٠٠٧ – ٢٠٠٨م





مقـــدمـــة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلـم ، والصـــلاة والســـلام على نبي الرحمة ورسول الإنسانية سيدنا محمد - ﷺ - وعلى آله وصـــحابته ومن تبع هداهم ، وسار على نهجهم إلى يوم الدين .

أما بعـــد

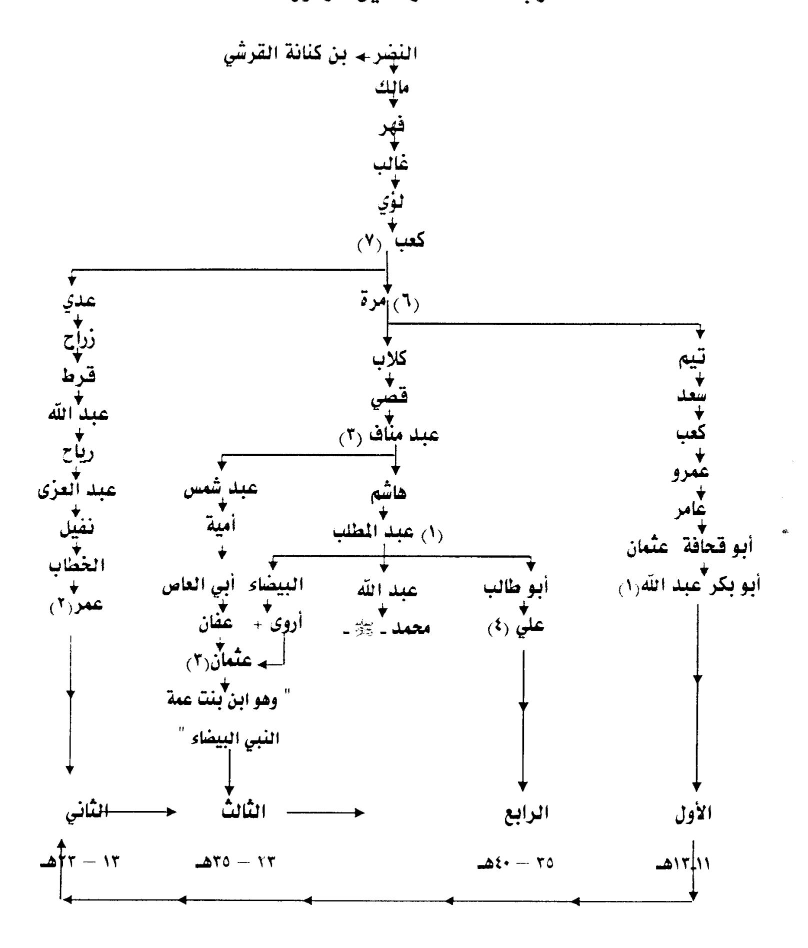
فإن دراسة تاريخ عصر الخلفاء الراشدين تعتبر من الدراســات المهمــة في تاريخ الإسلام العام ، حيث إن هذا العصر يعد حلقة الوصل بــين عصـــر النبوة (الذي تأسست فيه دولة الإسلام ، بعدما انتقلت البشرية مــن جاهليتهــا إلى توحيد الخالق المعبود سبحانه ، وأسس النبـــي الكـــريم - ﷺ - لشـــريعة الإسلام الغراء الخالدة ، وأتم الله في حياته - ﷺ - إنـــزال القـــرآن الكـــريم ، دستور الإسلام الخالد) وبين عصر اتساع الإمبراطورية الإســـلامية وترامـــي أطرافها ، في عصري الأمويين ثم العباسيين .

وما أحوجنا في هذا العصر إلى دراسة سيرة وأعمال صحابة رسول الله – ﷺ – هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، لنقتدي بهم ، ونتأسى بأخلاقهم ، وتلك أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وأن نقي أنفسنا ما علق بها من أمراض العصر ، كجنون العظمة ، وحب الذات ....

وعليه ، فقد برع خلفاء النبي – ﷺ – في سياسة أمور البلاد والعباد وقاموا بحراسة الشريعة ، حتى استقامت لهم دنياهم ، فضربوا بهذا أروع الأمثال في التطبيق والالتزام ، واتسعت دولتهم ، وترامت أطرافها ، وعمت فيها كلمة التوحيد التي حرصوا على نشرها وإيصالها إلى من لم تصلهم من شعوب الأرض ، ملتزمين في كل ذلك منهج الإسلام في احترام الشعوب وحقوق الأمم ، فأصبح حكمهم مثار إعجاب جميع الشعوب من حولهم ، قياسا على ما كان من حكم الفرس والروم ، الذين كانا يتسيدان الدنيا قبيل قيام دولة المسلمين .

دكتور / عبد الرحمن أبو راس

قرابة الخلفاء الراشدين للرسول - ﷺ -



الفصل الأول

خلافة أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -

أبو بكر الصديق

كان أول من تولى الخلافة عقب وفاة رسول الله - ﷺ - يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١ هجرية ، الموافق ٨ يونيو سنة ٦٣٢م هو أبو بكر الصديق - ﷺ - .

نسبه :

هو عبد الله بن (أبي قحافة) عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ، القرشي التيمي . يلتقي مع الرسول - ﷺ - في مرة ، أي الجد السابع من أجداده - ﷺ - [١] .

وكان يسمى في الجاهلية عبد الكعبة ، فسماه رسول الله - ﷺ - عبد الله، وقيل أنه كان يسمى عبد العزى ، وقيل إنه كان يسمى عتيقا ؛ ولكن الصواب الذي عليه كافة العلماء أن عتيقا لقب لأبي بكر لا اسم ، وقد لقب به لعتقه من النار . روى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : " من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر " ، كما قيل : بأنه سمي بعتيق لحسن وجهه وجماله ، أو لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به .

كذلك أجمعت الأمة على تسميته بالصديق ، لأنه بادر إلى تصديق رسول الله - ﷺ - " ولازم الصدق فلم تقع منه هناة ما ، ولا وقفة في حال من

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص١٦٧ .

الأحوال ، ولاسيما صبيحة الإسراء . ويقول الرسول - ﷺ - في هذا الشأن : (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر) .

وقد ولد أبو بكر بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر ومن هنا كان يصغر رسولنا الكريم بعامين (١) .

وكان أبوه عثمان يكنى بأبي قحافة ، وأمه : أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب وهي ابنة عم أبيه (٢) .

وعرف أبو بكر بالخصال الكريمة ، كما اشتهر بالعفة ، ولم يكن يشرب الخمر التي كانت فاشية في هذا الوقت ، وكان من سراة مكة في الجاهلية ، عالما بأنساب العرب وأخبارهم ، وكان بزازاً يتاجر في الثياب ، ويعيش في حي التجار مع السيد خديجة - رضي الله عنها - ومن هنا كانت علاقته الحميمة بالرسول - ﷺ - ؛ وذلك من قبل ظهور الإسلام بوقت طويل . وقد بلغ رأس ماله من خلال التجارة أربعين ألف درهم أنفق غالبها جهادا في سبيل الله بخلاف جهاده بنفسه (٣).

وكان أبو بكر الصديق أول من أسلم من الرجال ، وسارع مصدقا بنبوة محمد - ﷺ - دون توقف أو تردد ، يقول النبي الكريم في ذلك : ما دعوت

---

(١) جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٠ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص١٦٧ ، ١٦٨ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٣ ص٦٢ .

أحدا إلى الإسلام إلا كان فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكم [١] عنه حين ذكرته به وما تردد فيه .

ولما كان رجال قومه يأتونه ويألفونه لتجارته ، وحسن مجالسته ، وطيب معاشرته سارع بعد إسلامه ، وتصديقه بما نزل على النبي - ﷺ - ، يدعو من وثق به منهم للإسلام فأسلم بدعوته كل من عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، كما أسلم من بعدهم بدعوته أبو عبيدة عامر بن الجراح ، فجاء بهم إلى رسول الله - ﷺ - حين استجابوا له ليعلنوا إسلامهم أمامه وبين يديه [٢] . كما سارع وبذل الأموال الكثير في فك رقاب من عذبوا في الله على يد جبابرة قريش من أمثال بلال ، وعامر بن الفهيرة ، وجارية بن مُؤمل وغيرهم [٣] .

وكان إيمان أبي بكر بالرسول شديدا ؛ إذ كان صديقه في صباه ، وكان رفيقه عندما هاجر إلى المدينة ، وهو المعني بقوله تعالى : " **إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** " [٤] . ثم استقر الرسول - ﷺ - في المدينة كان أبو بكر ساعده الأيمن ، حتى خصه رسول الله بمزايا لم يخص بها أحدا سواه . يقول ابن خلدون في مقدمته عن هذا الشأن : " كان يفاوض أصحابه

---

(١) عكم : انتظر وتأخر ، الفيروز أبادي : القاموس المحيط باب " عكم " .

(٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ج١ ص١١٨ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج١ ص٣١٨ ، ٣١٩ .

(٤) التوبة : آية ٤٠ .

ويشاورهم في مهماته العامـــة والخاصـــة ، ويخـــص مـــع ذلـــك أبـــا بكـــر بخصوصيات أخرى فكان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالهـــا فـــي كســـرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره (١) .

وكان أبو بكر سباقا للخير لا يدانه أحد في هذا الميدان يقـــول عمـــر بـــن الخطاب – ﷺ – : " ما سابقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني إليه ، ولـــوددت أني شعرة في صدر أبي بكر " . ويقـــول علـــى كـــرم الله وجهـــه فـــي هـــذا المضمار : " هو السباق والذي نفسي بيده ما استبقناه إلى خير إلا ســـبقنا إليـــه أبو بكر ".

(١) ابن خلدون : المقدمة ص٢٠٤ .

أبو بكر الصديق والخلافة :

على الرغم من أن الرسول – ﷺ – لم يوصي لأحد أصحابه بزعامة المسلمين صراحة في مرض وفاته الذي امتد أياماً ؛ إلا أنه ترك مؤشرات تشير إلى من يبتغيه خليفة له من بعده ولكن لم يعقلها إلا ذوي العقول المستنيرة والقلوب الصافية .

ولعل النبي – ﷺ – أراد بعدم التصريح به ، أن يترك الباب مفتوحا أمام المسلمين جميعاً ، حتى يصلوا بعد المداولات والحوارات الجادة ، والآراء والمشاورات المستنيرة إلى ما كان يبتغيه بمحض إرادتهم ، لا بتحريض منه ؛ وذلك حتى يكونوا أكثر تأييدا لمن يختارونه ، وأشد استمساكاً به ، لأنهم بذلك قد اختاروه بأنفسهم ، وبمحض إرادتهم ودون أن يدركوا بأن الإشارات المسبقة من قبل رسول الله – ﷺ – كانت الطريق التي مهدت في اختيار الخليفة من بعده .

ولو ألقينا نظرة إلى سقيفة بني ساعدة [١] حيث تم فيها اختيار أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين ؛ لبرز ما رأيناه آنفا في وضوح وجلاء .

---

(١) هي مظلة لبني ساعدة بن كعب بن الخزرج وهم رهط سعد بن عبادة ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٣٦٥ ، صفي الدين بن عبد الحق : مراصد الإطلاع ، ج٢ ص٧٢١ .

أبو بكر وسقيفة بني ساعدة :

لما انتشر خبر وفاة الرسول - ﷺ - في المدينة المنورة سارع الأنصار من أوس وخزرج بالاجتماع في سقيفة بني ساعدة بالمدينة ، وأرادوا أن يبايعوا رجلا منهم خليفة للمسلمين . وقد رأى الأنصار وخصوصا الخزرج منهم أن سعد بن عبادة هو أولى الناس بهذا المنصب ؛ ذلك لأنه كان سيد الخزرج دون منازع من جهة وكبير الأنصار من جهة أخرى .

وقد رأى الأنصار وقتئذ أنهم أحق بهذا الأمر من غيرهم ، فهم أصحاب المدينة وأهلها ، وهم الذين آووا رسول الله - ﷺ - ، حين لجأ إليهم مهاجرا، بعد أن أخرجه قومه وعشيرته ، وتآمروا على قتله في مكة ، ثم هم الذين نصروه على أعداء الإسلام حين تكاثروا عليه من كل صوب ، من عرب، ويهود ، حاملين رقابهم وقلوبهم ، باذلين أموالهم ونفوسهم ؛ فداء لهذا الدين ، وحبا في نبي الله ، وجهاداً في سبيل الله ، لا منة ولا رغبة لفخر زائل .

وقد عبر سعد بن عبادة في وضوح في هذا المعنى حين اجتمع بالأنصار في سقيفة بني ساعدة ، قائلا : " يا معشر الأنصار ! لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ، ليس لقبيلة من العرب ؛ إن محمدا لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وكان ما كانوا يقْدرون على أن يمنعوا رسول الله ، ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم حينما عموا به ، حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة ، ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به

وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهـاد لأعدائـه . فكنتم أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقله على عـدوه مـن غيـركم ؛ حتـى استقامت العرب لأمر الله ، طوعا وكرها ، وأعطى البعيـد المقـادة صـاغرا داخرا ، حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسـيافكم لـه العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راضي ، وبكم قرير العين . استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس [١] .

وعلى الرغم مما قيل ، وعلى الرغم مما كان يراه بعض الأنصار مـن أن الحق في مسألة خلافة الرسول في جانبهم ، إلا أن البعض الآخـر مـا كـان ينسى ما للمهاجرين من قريش من حق في خلافة الرسـول - ﷺ - ؛ لـذلك أخذوا يترادون الكلام فيما بينهم ، فقال بعضهم : فإن أبت مهـاجرة قـريش ؟ فقالوا : نحن المهاجرون ، وصحابة رسـول الله - ﷺ - الأولـون ، ونحـن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا الأمر من بعده ، فردت طائفة أخرى : فإنـا نقول إذاً فمنا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا أبداً [٢] .

فلما رأى سعد بن عبادة ما أصبح عليه الأنصار ، وسمع مقالـة بعضـهم لبعض ، شعر ببوادر الوهن بين الأنصار ، وبداية ضياع حق كان يـراه لـه وللأنصار . ومن هنا سارع يقول : هذا أول الوهن [٣] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ص٢١٨ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج١٩ ص٢٠ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ص٢١٨ ، ٢١٩ .

كان كل هذا قبل أن يعرف المهاجرون بأخبار هذا الاجتماع الذي تم بين الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، ولكن سرعان ما وصل الخبر في مسامع عمر بن الخطاب ، فرأى بحسه البعيد خطورة ما اجتمع عليه الأنصار دونهم في سقيفة بين ساعدة فبادر بالذهاب إلى منزل رسول الله - ﷺ - ، وطلب من أبي بكر الصديق أن يخرج إليه لأمر هام . فخرج إليه على الرغم من انشغاله لما علم بحقيقة الأمر . وكان علي بن أبي طالب حينئذ مشغولاً في جهاز النبي - ﷺ - [١].

وسار أبو بكر وعمر يطلبان سقيفة بني ساعدة ، ولحق بهما في الطريق أبو عبيدة عامر بن الجراح ، حتى وصل ثلاثتهم إلى حيث اجتماع الأنصار .

وحينما وصل هؤلاء المهاجرون الثلاثة قام أحد الأنصار ، فقال بعد أن حمد الله : أما بعد فنحن الأنصار ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر قريش رهطنا ، وقد دفتْ إلينا من قومكم دافة [٢] .

فلما وجد أبو بكر ما عليه الأنصار من رأي في أمر الخلافة قام فخطب في الجمع "بعد أن استأذن من عمر بن الخطاب الذي كان قد جهز كلاماً لهذه المناسبة " : فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : إن الله بعث محمداً - ﷺ - رسولا إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من

---

(١) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج١٩ ص٣١ .

(٢) الدافة : هي الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، لسان العرب لابن منظور ، مادة " دفف " .

دونه آلهة شتى ، يزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هي حجر منحوت ، وخشب منجور ، ثم قرأ قول الله تعالى : " وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ " (١) وقالوا " مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى " (٢) . فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به ، والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس لهم مخالف ، وعليهم زارٍ (٣) ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وشنف الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالله والرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم ، وأنتم يا معشر الأنصار ، أنتم من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم ، فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور (٤) .

هكذا وضح أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – بشكل لا مواربة فيه مدى أحقية المهاجرين من قريش في خلافة رسول الله – ﷺ – .

---

(١) سورة يونس : الآية ١٨ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٣ .

(٣) زار : محتقر : لسان العرب مادة " ذرى " .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ص٢١٩ ، ٢٢٠ .

والظاهر أن مقالة أبي بكر الصديق قد أثرت في كثير من الأنصار ، حتى مال أكثرهم إلى تقبل وجهة نظره ؛ وذلك بعد أن وضحت أمور غابت عنهم ، وأدركوا أشياءً ناءت عن بالهم . إلا أن البعض منهم وفيهم الحباب بن المنذر – ﷺ – لما شعروا بهذا الميل المفاجئ من جانب كثير من الأنصار ، بعد أن كاد الاتفاق يتم فيما بينهم جميعا قبل مجيء وفد المهاجرين ، في اختيار سعد بن عبادة خلفا لرسول الله – ﷺ – ، خافوا على ضياع حقهم في أمر الخلافة ، فتشددوا في طلبها لأنفسهم ، وإن لم يكن فعلى الأقل منهم أمير وللمهاجرين أمير . وكاد الحوار الدائر بين الطرفين أن يخرج عن طبيعته ، ويفلت الزمام عن البعض منهم [١] .

وعندئذ قام الصحابي الجليل أبو النعمان بشير بن سعد الخزرجي [٢] – وكان أحد كبار رجالات الخزرج – وقال : يا معشر الأنصار ! إنا والله لئن كنا أُولي فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربّنا ، وطاعة نبينا – ﷺ – ، والكدح لأنفسنا ، ما ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا أن نبتغي به من الدنيا عرضا ؛ فإن الله ولي المنة علينا بذلك ، إلا أن محمداً – ﷺ – من قريش ، وقومه أحق به وأولى. وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ، ولا تنازعوهم [٣] .

---

(١) النويري : نهاية الأرب ج١٩ ص٣٢ ، ٣٣ .

(٢) عن ترجمته أنظر ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ج١ ص٤٦١ .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص٢٢١ محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر ص٥٩ .

فلما رأى أبو بكر الصديق أن مقالة بشير بن سعد الخزرجي قد سرت مسرى البلسم الشافي في قلوب الغالبية العظمى من الأنصار ، وكشفت لعقولهم – بما لا مراء فيه – حق المهاجرين في أمر الخلافة ، انتهز هذه الفرصة المواتية ، وأراد أن يحسم الأمر ويسد باب الجدال فيما بين الطرفين ، فقام قائلاً : يا معشر الأنصار ! فإنكم لا تذكرون منكم فضلا إلا أنتم له أهل ، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، هم أوسط العرب داراً ونسبا ، وإني قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا أيهما شئتم ، وأخذ بيد كل من عمر بن الخطاب وأبي عبيدة عامر بن الجراح (١) .

ولما كان عمر وأبو عبيدة اشد الناس معرفة بفضل أبي بكر ، وأكثر المسلمين علما بمزاياه ، فسارع كلاهما حتى يقضيا على أي خلاف جديد ، أو جدال بغيض ؛ بعد أن استتب الأمر واستقر ، فحسما الأمر قائلين : والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، وأنت أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله – ﷺ – والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي أن يتقدمك ، ويتولى هذا الأمر عليك ، أبسط يدك نبايعك (٢) .

فلما ذهبا ليبايعاه – قيل سبقهما بشير بن سعد الخزرجي فبايعه . فناداه الحباب بن المنذر : يا بشير بن سعد ! عققت عقاق ، ما أحوجك إلى ما

---

(١) الطبري : المصدر السابق ج٣ ص٢٢١ .

(٢) السابق ، هيكل : المصدر السابق ص٦٠

صنعت ، أنفست على ابن عمك الإمارة ؟ ، قال : لا والله ولكنـي كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم .

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد الخزرجي ، ومـا يـدعو إليـه المهاجرون ، وما تريده الخزرج من تأمير سعد بـن عبـادة ، قـال بعضـهم لبعض ، – وفيهم أسيد بن حضير أحد سادتهم – والله لـئن وليتهـا الخـزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك فضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيهـا نصـيبا أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر . فقاموا إليه فبايعوه .

وهكذا انكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجتمعـوا لـه من أمرهم بعد تراجع الأوس عنهم [١] .

وما إن بايع عمر وأبو عبيدة وبشير بن سعد ، وجموع الأوس من بعـدهم حتى أقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر ، ما عدا ما حدث من سعد بـن عبادة من إصراره في عدم بيعة أبي بكر إلى أن مات ، وذلك لما كـان يـراه من أحقيته لهذا الأمر [٢] . وقيل أنه تراجع عن إصراره فـي عـدم البيعـة ؛

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : الإصابة ج٣ ص١٥٨ ترجمة رقم ٣١٨٠ ، ابن عبد البر : الاسـتيعاب في معرفة الأصحاب ، ج٣ ص٢٢ ترجمـة رقـم ٩٤٩ ، النـويري : نهايـة الأرب ج١٩ ص٣٧.

وذلك بعد أن وجد الناس جميعا قد بايعوه حتى قومه وعشيرته من الخـــزرج ، وبعد أن أصبح الناس جميعا على خلاف ما كان يراه في نفسه [١] .

وبهذا استطاع أبو بكر الصديق بالبراهين الدامغة والحجـــج الســـاطعة أن يقنع كل من استمع إليه من الأنصار ، ويبطل أحاجيهم في أمر الخلافـــة حتـــى حول أنظار أهل السقيفة إلى المهاجرين ، ثم يسارع عمر بن الخطاب بتوجيـــه أنظار الناس جميعا نحو الصديق الذي عرف المسلمون فضله وأثـــره وجهـــاده في سبيل الله ، وصحبته اللصيقة برسول الله ، فيمد يده مبايعا فيتبعـــه النـــاس جميعا مبايعين ، فيقضى بذلك على فتنـــة كـــادت – لا قـــدر الله تعـــالى – أن تعصف بالمسلمين في بداية عهـــدهم بعـــد رســـول الله – ﷺ – ، وأن تهـــدد مستقبل الدولة الإسلامية الفتية في أدق وأحرج أوقاتها [٢] .

وبعد أن تمت هذه البيعة المعروفة ببيعة الســـقيفة أو بالبيعـــة الخاصـــة ، وذلك في نفس يوم وفاة الرسول – ﷺ – ، وفي اليوم التالي – أي يوم الثلاثاء ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة النبوية – ذهب أبو بكر الصديق إلـــى المسجد ، بعد أن تم تجهيز الرسول – ﷺ – ودفنه ، وطلـــب مـــن المســـلمين الحضور في المسجد لأمر هام ، فاستجاب الناس لدعوته واجتمعوا بالمســـجد ، فصعد أبو بكر المنبر وجلس دون مجلس النبي – ﷺ – على المنبـــر . فقـــام عمر فتكلم قبل أبي بكر ، فحمد الله ، واثنى عليه بما هو أهله ، وقـــال : أيهـــا

---

(١) النويري : نهاية الأرب ج١٩ ص٣٧ ، ٣٨ .

(٢) د. عبد المقصود نصار : أولئك هم الراشدين ص٣٥ .

الناس ! إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيي ، وما وجدتها في كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهده إلينا رسول الله - ﷺ - ، ولكن قد كنت أرى أن رسول الله - ﷺ - سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا ، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدي به رسوله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله - ﷺ - ، وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوا ، وعندئذ قام من كان في المسجد فبايعوه البيعة العامة (١) .

ذكر بعض المؤرخين أن علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام وجماعة من بني هاشم قد تخلفوا عن هذه البيعة في بداية الأمر ، ثم بايعوا ابا بكر تباعا عدا علي بن أبي طالب الذي بايعه بعد موت زوجته فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - بنت النبي - ﷺ - أي بعد ستة شهور من هذا التاريخ ، وقيل بأنه بايع أبا بكر بعد أربعين يوما من تاريخ بيعة الصديق في سقيفة بني ساعدة (٢) .

ولكن الواضح من خلال الأدلة والبراهين أن عليا ما تخلف عن بيعة أبي بكر يوما ، وذلك على الرغم مما كان يراه ويراه بعض بني عبد مناف بن قصي بأحقيته بأمر الخلافة عن الصديق أبي بكر ؛ وذلك لمزايا ينفرد بها دون

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج٥ ص٢٤٨.

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٢٤ ، ١٢٥ ، الطبري : المصدر السابق ج٣ ص٢٠٨ ، ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ج١ ص٢١٤ ، ٢١٥ ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج١ ص٢٠٥ ، هيكل : المصدر السابق ص٦٣ .

غيره ولمزايا يشارك فيها الآخرين سواء بسواء . فهو ابن عم الرسـول - ﷺ - الشقيق ، وهو زوج ابنته الوحيدة بعد موت أخواتها قبله - ﷺ - ، ثم هـو قرشي وأقرب قريش لرسول الله ، ثم هو أيضا أحد الأربعة الذين اسلموا فـي اللحظة الأولى من الدعوة الإسلامية .

ويقول عتبة بن أبي لهب ابن عم كل من رسول الله - ﷺ - وعلـي بـن أبي طالب في هذا الشأن :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف
عن هاشم ثم منهم عن أبي حـسن
عن أول الناس إيمانا وسابقـة
وأعلم الناس بالقرآن والسنـن
وآخر الناس عهداً بالنبي ومـن
جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه ما فيهم لا يمترون بـه
وليس في القوم ما فيه من الحسن[١]

نعم فعلى الرغم من كل ما سبق فقد سارع علي - ﷺ - عنـدما طلـب للمبايعة في المسجد ولم يكن موجودا وقتها – فخرج في قمـيص ، مـا عليـه

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٢٤ .

إزار ولا رداء عجلا كراهة أن يبطئ عنها حتى بايعه ، ثم جلس إلى أبي بكـر وبعث إلى ثوبه ، فأتاه فتجلله ولزم مجلسه[١] .

وعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري قال : " إن علي بن أبـي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات ، ولم ينقطع فـي صـلاة مـن الصلوات خلفه ، وخرج معه إلى ذي القصة [٢] لما خرج أبو بكر شاهراً سـيفه يريد قتال أهل الردة [٣] .

أما الخلط الذي حدث بين من قال ببيعة علي لأبي بكر منذ اليـوم الأول ، وبين مَن قال بعدم بيعته للصديق إلا بعد أربعين يوما أو ستة أشهر من تـاريخ البيعة ، فيمكن التوفيق بينهما من خلال ما ورد في البداية والنهاية لابن كثيـر إذ يقول :" لما حصل من فاطمة – رضي الله تعـالى عنهـا – عتـب علـى الصديق بسبب ما كانت متوهة من أنها تستحق ميراث رسول الله – ﷺ – ولم تعلم بما أخبرها به الصديق – ﷺ – – ﷺ – أنه قال :" لا نورث مـا تركنـا صدقة " فحجبها وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصـريح فسألته أن ينظر عليُ في صدقة الأرض التي بخيبر وفدك ، فلـم يجبهـا إلـى ذلك ؛ لأنه رأى أن حقا عليه أن يقوم في جميع ما كان يتـولاه رسـول الله – ﷺ – ، وهو الصادق البار الراشد ، التابع للحـق – ﷺ – ، فحصـل لهـا –

---

(١) الطبري : المصدر السابق ج٣ ص٢٠٧ .

(٢) موضع على بريد من المدينة تلقاء نجد ، صفي الدين عبد الحق ج٣ ص١١٠٢ .

(٣) الطبري : المصدر السابق ج٣ ص٢٠٧ .

وهي امرأة من البشر ليست بواجبة العصمة – عتب وتغضب ، ولم تكلم الصديق حتى ماتت ، واحتاج على أن يراعي خاطرها بعض الشيء . فلما ماتت بعد ستة شهور من وفاة أبيها – ﷺ – ، رأى علي أن يجدد البيعة مع أبي بكر – ﷺ – [١] ، ويؤيد ذلك قول موسى بن عقبة في مغازية عن سعد بن إبراهيم : حدثني أبي أن أباه عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر ، وأن محمد بن مسلمة كسر سيف الزبير . ثم خطب أبو بكر ، واعتذر إلى الناس ، وقال : ما كنت حريصا على الإمارة يوماً ولا ليلة ، ولا سألتها في سر ولا علانية .

فقبل المهاجرون مقالته ، وقال علي والزبير : ما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة ، وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها ؛ إنه لصاحب الغار وإنا لنعرف شرفه وخبره ، ولقد أمره رسول الله – ﷺ – أن يصلي بالناس وهو حي .

يقول ابن كثير تعليقا لما حدثنا به من أخبار : ومن تأمل ما ذكرناه ظهر له إجماع الصحابة المهاجرين منهم والأنصار على تقديم أبي بكر [٢] .

ولما تمت البيعة العامة على النحو الذي ذكرناه آنفا في مسجد رسول الله – ﷺ – ، قام أبو بكر الصديق خطيبا في الناس ، موضحا في مقالته منهجه في الحكم . فقال : " أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم ؛ فإن أحسنت

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج٥ ص٢٤٩ ، ٢٥٠ .
(٢) السابق : ص٢٥٠ .

فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني .. الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي منكم ضعيف عندي ، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

ثم أنهى خطبته في جموع الناس قائلا : قوموا إلى صلاتكم ، يرحمكم الله [١] .

كانت هذه الخطبة هي مجمل السياسة التي اتبعها أبو بكر الصديق في خلافته . وقد وضح فيها كما رأينا بما على الناس من واجب حياله ، وما عليه من واجب حيال رعيته . كما أنه أكد فيها بجلاء بأنه خليفة رسول الله – ﷺ – لينفذ شرع الله فيهم ، فإن عدل عنها فلا طاعة له عليهم .

---

(١) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج١٩ ص ٤٢ ، ٤٣ .

أعمال أبو بكر الصديق :

اضطلع أبو بكر الصديق في عمر خلافته القصيرة التي لم تزد عن السنتين إلا ببضعة شهور قليلة بمهام جسام ، وحمل على كاهله الضعيف ما لا يحمله أشد الرجال بمسئوليات عظام ، فاستطاع بما لديه من عزيمة قوية وصبر وجلد أن يجتاز العقبات التي سدت مسيرة خلافته ، وحقق في هذه المسيرة القصيرة ما لا يحققه الرجال من خلفاء وسلاطين وملوك في دهور طويلة .

أولاً : انفاذ جيش أسامة :

كان أول عمل قام به أبو بكر الصديق بعد توليه الخلافة هو انفاذ جيش أسامه بن زيد ، وهو الجيش الذي كان قد أعده الرسول – ﷺ – ليرسله إلى مشارف الشام لتأديب القبائل العربية التي تقطن هذه المنطقة والذين اشتركوا مع الروم في غزوة مؤته في السنة الثامنة من الهجرة النبوية مما أدى إلى مقتل كل من زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وعدد من المسلمين .

وقد بلغ أبا بكر في هذا الوقت العصيب ارتداد أكثر العرب عن الإسلام كالمتنبئة وتابعيهم من المرتدين عن الإسلام صراحة ومانعي الزكاة . فكلم بعض الصحابة أبا بكر في تأخير بعثة أسامة ؛ ليكونوا عدة على المرتدين

فأبى أبو بكر ذلك بشدة ، وصمم على إيفاد جيش أسـامة قـائلاً : والله ! لـو خطفتني الكلاب أو الذئاب لم أرد قضاءً قضى به رسول الله - ﷺ - [١] .

ثم دفع الأنصار عمر بن الخطاب بأن يكلم أبا بكر الصـديق فـي عـزل أسامه عن قيادة الجيش بمن هو أسن منه فوثب أبو بكر وكان جالسـاً ، وأخـذ بلحية عمر ، وقال : ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب ! استعمله رسـول الله - ﷺ - ، وتأمرني أن أنزعه ، فخرج عمر إلى الناس وهو فـي أشـد النـدم لإغضاب الخليفة ، فلما سألوه : ما صنعت ؟ قال : أمضوا ثكلـتكم أمهـاتكم ! ما لقيت في سببكم اليوم من خليفة رسول الله - ﷺ - .

فلما تحرك جيش أسامة خرج أبو بكر - رضي الله عنه - لتشييع جيش أسامه وهـو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة : يا خليفة رسـول الله ، والله لتـركبن ، أو لأنزلن ، فقال : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب ، وما علي أن أغبر قدمي فـي سبيل الله ساعة ؛ فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتـب لـه ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وتمحى عنه سبعمائة خطيئة ، ثم استأذن أبـو بكـر من أسامة أن يبقى معه عمر بن الخطاب ليعينه في الخلافة ، فأذن له .

ولما بلغ أبو بكر شوطا في الطريق بهذه الهيـأة وأراد الرجـوع قـال : يأأيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونـوا ، ولا تغلـوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صـغيرا ، ولا شـيخا كبيـرا ، ولا

---

(١) النويري : المصدر السابق ج١٩ ص٢٦ ، ٢٧ .

امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرة إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم بالصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على أقوامهم يأتونكم بآنية الطعام ألوان الطعام ؛ فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وسوف تلقون أقواما قد فحصوا [1] أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ؛ فاخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا بإذن الله .

ثم أوصى أسامة أن يفعل ما أمره به رسول الله - ﷺ - .

فسار أسامة بجيشه إلى حيث أمره الرسول الكريم فأوقع بقبائل قضاعة التي ارتدت ، بعد أن شن الغارات على بلادهم ، وبعث الرعب في قلوبهم ، وغنم منهم المغانم الكثيرة ، ثم عاد بعد أن غاب بها أربعين يوما ، وقيل سبعين يوما ، وقيل أربعين ؛ سوى مقامه ومرجعه قافلا :

نتائج الحملة :

١- انتقم المسلمون لقتلى مؤته .
٢- آمنت التخوم بين العرب والروم .
٣- أعادت للإسلام هيبة في تلك البقاع .
٤- أظهرت للبدو استتباب السلطان لأبي بكر - ﷺ - .
٥- أرجعت المترددين بين الخضوع للإسلام والردة عنه إلى صوابهم .

---

(١) فحصوا : أزالوا شعر أوساط رءوسهم .

٦- أظهرت أصالة رأي أبي بكر في إصراره على انفاذ جيش أسامة على الرغم من معارضة الجميع .

فكان انفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعا للمسلمين ؛ فإن العرب قالوا: لو لم تكن لهم قوة ما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما عزموا على فعله . وذلك ببركة إتباع أمر رسول الله - ﷺ - .

ثانياً : **حروب الردة** :

ردة العرب :

ظهرت في أواخر أيام الرسول - ﷺ - حركات عصيان ثلاث :

أولاها في نجد حيث أدعى طليحة بن خويلد الأسدي النبوة [١] .

ثانيتها في اليمامة حيث ادعى مسيلمة بن حبيب النبوة وأدعى أن محمداً أشركه معه في الرسالة حينما وفد مع قومه (بني حنيفة) ، وكتب كتابا إلى الرسول - ﷺ - يقول فيه : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليك . أما بعد فإني قد أشركت في الأمر

---

(١) بني دعوى نبوته على حادثة مؤادها أنه تنبأ بموقع الماء في يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظمأ يقتلهم .

معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكـــن قريشـــا قوم لا يعدلون .

فكتب إليه رسول الله - ﷺ - يقول : من محمد رسول الله إلـــى مســـيلمة الكذاب أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

وثالثتها في الـــيمن : حيث قام الأسود العنسي (عيهلة بن كعب بـــن عـــوف) ولقب نفسه بالنبي المقنع وأخرج عمال النبي من اليمن .

وكان موقف النبي - ﷺ - من هؤلاء المتنبئة كالآتي :

بعث الرسول - ﷺ - ضرار بن الأزور عاملا على بنـــي أســـد وأمـــره بالقيام على من ارتد فضعف أمر طليحة ، وأنفض الناس من حوله .

ولما رأى ابن الأزور ذلك أراد أن يقضي عليه فضـــربه بالســـيف ليقتلـــه فأخطأ ، وشاع بين الناس أن السيف لا يؤثر فيه ، مما أدى إلى دعوة التفـــاف الناس حوله ، ومات الرسول - ﷺ - وحركة طليحة فـــي ازديـــاد ، وســـجع للناس أسجاعا كاذبة ، وأمرهم بترك السجود في الصلاة قائلا : ما يصـــنع الله بتعفير وجوهكم .

وأرسل إلى مسيلمة الرجّال بن عنفوه ليقوم على بني حنيفة وليشغب علـــى مسيلمة ، ولكن ما كاد الرجّال يصل إلى مسيلمة حتى كان أشد علـــى الإســـلام

من مسيلمة فقد صدقه في دعواه من الإشراك في الرسالة . ومات الرسـول - ﷺ - ومسيلمة يعظم أمره أيضا .

وأما الأسود العنسي فقد قتل ليلة وفاة الرسول - ﷺ - ، وذلك أن الـبلاد التي ظهر بها كانت قبل الإسلام ولاية فارسية ، وكان الوالي عليها فـي عهـد الرسول الكريم رجل يسمى " باذان " أو " بدهان " دعاه الرسول - ﷺ - إلـى الإسلام فأسلم ، وأقره على ولايته .

ولما توفي باذان في حياة الرسول - ﷺ - ولي ابنه شهراً على صـنعاء فقط وعين ولاة آخرين على مخاليف اليمن ، وجعل معاذ بن جبل معلما متـنقلا بين الولايات ، وفي هذا الوقت قام الأسود العنسي بحركته فقتل شهراً وتـزوج بإمرأته " آزاد " وعظم أمر الأسود ، واستجاب له أهل نجران الـذين بهـرهم انتصاره ، وفتنوا بسحر حديثه فأخرجوا عمال النبي من بلاد الـيمن ، فكتـب النبي - ﷺ - كتابا إلى من ثبت على إسلامه من أهل الـيمن يـأمرهم فيـه بالعمل على قتله بأي وسيلة كان . فأخذ مسلمو اليمن في تنفيذ أمـر الرسـول الكريم ، وسنحت لهم الفرصة بتغيره على قائد جنده " قيس بن عبـد يغـوث ، فتحدثوا إليه بغرضهم فوافقهم فعمل عرب اليمن وبعض مولدة الفـرس علـى الاتصال بزوجته الفارسية ، واستنهضوا همتها وذكروها بما كان من الأسـود من قتل زوجها والزواج بها . فدبرت لهم أمر قتله وسهلت لهم الطريـق فقتـل كما ذكرنا .

ولم تكن هذه الحركات الثلاث إلا مقدمة لمـــا تمخضـــت عنـــه الجزيـــرة العربية بعد وفاة الرسول - ﷺ - فإنه لم يكد ينتشر خبر وفاته حتـــى شـــملت حركة الردة الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها وعمـــت حركـــة التمـــرد علـــى الإسلام وتعاليمه . ولم يثبت على الإسلام إلا أهل مكـــة والمدينـــة والطـــائف وبعض القبائل كمزينة وغفار وخزاعه .

ويجب أن يكون مفهوما أنه ليس المقصود من الردة الخروج من الإســـلام إلى الشرك فقط ، ولذا فالردة أنواع ثلاثة وهي :

١- المتنبئة : أي الذين ادعوا النبوة .

٢- الخروج عن الإسلام كليا .

٣- مانعو الزكاة .

فالردة على ذلك هي الانتقاص على الإســـلام أو تعاليمـــه ، ويمكننـــا أن نسوق عدة أسباب لهذه الردة .

أسباب الردة :

١- خوف القبائل العربية من استئثار قبيلة قريش بسلطة تغاير سلطة الرســـول - ﷺ - الذي كان يسير فيهم سير عدالة وإرشاد وشفقة ورحمة .

وكل قبيلة كانت تأنف الانقياد لسلطان قبيلة أخرى وهم إنما خضعوا إلـــى الرسول - ﷺ - لاعتقادهم أنه يوحى إليه من عنـــد الله ، فلمـــا انتقـــل عليـــه

السلام إلى جوار ربه أوجس كثير من الناس خيفة إن وليت قريش هذا الأمر أن تحيله ملكا عضوضاً ، ويحل الهوى مكان العقل والحكمة . وهذا يفسر لنا التنازع على منصب الخلافة وقد رأينا مسبقاً ما كان بين المهاجرين والأنصار.

ولم يكن ما حدث بالمدينة بالكثير إذ قيس إلى ما حدث بغيرها ، فقدهم أهل مكة بالردة عن الإسلام حتى خافهم عتبا بن أسيد عامل الرسول - ﷺ - على أم القرى فتوارى منهم ، ولولا أن قيض الله لهم سهيل بن عمرو فقال لهم لما رأى على أهل مكة بوادر الردة بعد سماعهم خبر وفاة الرسول - ﷺ - " إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه ، وقال : والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله - ﷺ - ولولا أنهم رأوا أن الأمر بالمدينة آل إلى أبي بكر أحد أبناء مكة من قريش لكان الحال غير الحال.

كذلك همت ثقيف بالطائف أن ترتد فقيض الله لها عثمان بن العاص فقال لهم : يا أبناء ثقيف كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من غير وبدل ، وتذكرت ثقيف موقف النبي الكريم منها بعد حنين ، وتذكرت ما بينها وبين أهل مكة من أواصر النسب والقربى فاستمسكت بالإسلام .

أما القبائل الضاربة من أهل البادية حول مكة والمدينة فقد زاد الأمر وطم لديهم عند سماعهم خبر وفاة الرسول الكريم وهذا الحطيئه الشاعر المشهور يقول بلسان قومه :

أطعنا رسول الله إ كان بيننا ** فيا لعباد الله ما لأبي بكـــــر

أيورثها بكراً إذا مات بعـــده ** وتلك لعمر الله قاضمة الظهر

٢- كان من آثار العصبية القبلية أن سئم العرب سيادة قريش التـــي اســـتمرت زمنا طويلا في الجاهلية بما لها من العصبية والمركز الديني الـــذي بلـــغ ذروته بإرسال محمد من بينها ، واعتقدوا أنها سلبتهم حريتهم وأخضـــعتهم تحت سلطانها .

ويبدوا هذا واضحا في سلوك تلك القبائل التـــي أســـلمت خشـــية حـــراب المسلمين كأسد وغطفان وطيء وبني حنيفة فهذه القبائـــل مـــا كـــادت تـــرى الفرصة سانحة حتى التفت حول زعمائها بغية التحلل من سيادة قريش . فهـــذه أسد قد التفت حول طليحة ، كما نرى عيينة بن حصن الفزاري يقول مخاطبـــا قومه : إني لمجدد الحلف الذي كان بيننا وبين أسد في القديم ومتابع طليحـــة ، والله لإن نتبع نبيا من الحليفين – يعني أسد وغطفان – أحب إلى من أن نتبـــع نبيا من قريش وقد مات محمد وطليحة حي .

٣- النزاع بين النفسية الإسلامية ونزعتها والنفسية الجاهلية ونزعتهـــا : فـــإن بعض من اسلم – وخاصة سكان البادية – كان ينزع في حياتـــه النزعـــة الجاهلية من مهاجاة وحمية وشراب ، وقد حرم الإسلام عليه ذلك ، فلمـــا توفي الرسول – ﷺ – الموحى إليه اعتقد أن الفرصة ســـانحة للـــتخلص من هذه القيود والتكاليف الشاقة في نظره .

٤- الزكاة إتاوة : نظر كثير من العرب إلى الزكاة على أنها إتاوة فرضت عليهم لإذلالهم ، ونظروا إليها نظرهم إلى قبيلة تسيطر على أخرى وتضرب عليها قدراً معينا من حاصلاتها ويتضح هذا في حكاية عمرو بن العاص . وكان الرسول - ﷺ - قد أرسله عقب حجة الوداع إلى عمان، فلما انصرف منها مر على بلاد بني عامر فنزل بقرية ابن هبيرة وقرة يقدم رجلا ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بني عامر فذبح له وأكرم مثواه، فلما أراد الرحلة خلا به قرة وقال : يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فستستمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم ، فقال له عمرو : أكفرت يا قره ؟؟ أتخوفنا بالعرب ؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل في حفش أمك (١) .

وهؤلاء جميعا انتهزوا فرصة موت الرسول - ﷺ - وعبروا عن شعورهم الجاهلي برفض دفعها أبي بكر . وهناك فريق آخر آمن بالزكاة ، ولكنه لم يؤمن بمن يؤديها إليها واحتج بآيات من القرآن الكريم مع تحريفها إلى المعنى الذي أراده منها مثل قول الله تعالى : " **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** " (٢) وقال هؤلاء : لسنا ندفع زكاتنا إلا لمن صلاته سكن لنا ، وأبى أن يدفعها مع علمه أنها ركن من أركان الدين فهؤلاء لم ينكروا الفريضة ولكنهم أنكروا الجباة بعد رسول

---

(١) الحفش : البيت الصغير ، أو الذي تنفرد فيه النفساء .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٠٣ .

الله - ﷺ - وكلا الفريقين على ما نرى قد عجز عن أن ينظر إلى الزكاة كجزء من المال يؤخذ للصرف في الصالح العام .

٥- العوامل الأجنبية : ولم تكن العوامل الأجنبية بأقل خطراً من العوامل السابقة ، فقد كانت شمال الجزيرة العربية متصل بالشام والعراق ، وجنوب الجزيرة القريب من الحبشة والقريب من الخليج المتصل بالفرس، والعراق والشام والحبشة والخليج كانوا متأثرين بسلطان الفرس والروم وكان لهما مناطق نفوذ فيها وإمارات تابعة لحكمهما ! فلا عجب إذن أن يحاول أصحاب هذا النفوذ مناوأة الدين الجديد بشتى الأساليب بالدعاية السياسية للاستقلال الذاتي والدعاية الدينية للمسيحية تارة ولليهودية تارة أخرى وللوثنية تارة ثالثة.

وقد بدت هذه المناوأة واضحة حينما أرسل النبي - ﷺ - الكتب إلى أباطرة الفرس والروم وغيرهما من الملوك والأمراء .

ومن كل هذا نصل إلى أن ردة العرب ترجع إلى عوامل عربية وأخرى أجنبية بدت آثارها وبرزت في الفترة الأخيرة من حياة الرسول - ﷺ - ومن المعروف أن الإسلام لم ينتشر ولم يستقر في المواطن النائية عن مكة والمدينة في الجزيرة العربية إلا بعد فتح مكة .

وكان السواد الأعظم ممن أسلم بعد الفتح من الأعراب الذين مردوا على النفاق ، ولم يمض عليهم من الزمن ما يكفي لأن يؤثر الإسلام في قلوبهم .

فكانت معرفتهم بالإسلام معرفة سطحية . وقد نعى الله تعالى في غير اية على هؤلاء إذ قال سبحانه وتعالى : " الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرا وَنِفَاقـا " . أمـا الإسـلام الحق والعقلية الإسلامية فقد كانت أظهر في المدن لاسيما فيمن كـان إسـلامهم قبل الفتح .

ولكل هذه الأسباب ما إن توفي الرسول - ﷺ - حتى تضـرمت الأرض نارا حول خليفة رسول الله في الوقت الذي كان فيه جيش أسامة فـي طريقـه إلى تخوم الروم ، وكان لابد له من معالجة هذه الحال التي لم يـر المسـلمون مثلها منذ فتحت مكة وأسلمت ثقيف يقـول عبـد الله بـن مسـعود - رضي الله عنه - : لقد قمنا بعد رسول الله - ﷺ - مقاماً كدنا نهلك فيه لـولا أن مـن الله علينـا بأبي بكر .

وقد أصر أبو بكر إصرارا حازما على قتال أهل الردة بجميـع أصـنافهم من متنبئة أو مرتدين أو مانعي الزكاة ولم يفرق بينهم وحسبهم جميعـا خطـرا محدقا بالإسلام . ومع ذلك إلا أنه لما رأى بعض الصحابة مترددين في حـرب مانعي الزكاة ، جمع كبار الصحابة ليستشيرهم في الأمر وكان رأي عمر بـن الخطاب - رضي الله عنه - وطائفة من المسلمين ألا يقاتلوا قوما يؤمنوا بـالله ورسـوله وأن يستعينوا بهم على من خلع الإسلام من عنقه واستدلوا لرأيهم بقول رسـول الله - ﷺ - : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا أو يشـهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن قالوها فقد عصموا مني ما لهم ودماءهم إلا بحقهـا وحسابهم على الله ، فرد أبو بكر قائلا : والله لأقاتلن من فـرق بـين الصـلاة

والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال ، وقد قال إلا بحقها ، ثم أردف قائلا : والله لو منعوني عقالا أو عناقاً [١] كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه واقتنع الصحابة بما فيهم عمر ، وقال : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق .

وهكذا اجتمع المسلمون على رأي أبي بكر في قتال أهل الردة ، ولكن أبا بكر رأى ألا يعاجل القوم به حتى يعود جيش أسامة ؛ لأن فيه معظم القوة الإسلامية وبينما كان أبو بكر في انتظار عودة الجيش إذ حرض طليحة الأسدي من تبعه من عبس وذبيان وغطفان وفزاره وطيء على مهاجمة المدينة .

موقعة ذي القصة :

سارت هذه الجموع من المرتدين حتى نزلت على مقربة من المدينة فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين فرقة نزلت بذي القصة [٢] وفرقة أقامت بالأبرق من الربذه [٣] . وأرسلوا وفودا منهم إلى المدينة لمقابلة أبي بكر والحوار معه على أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة . فكان جواب أبي بكر : والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه وردهم . فرجعت هذه الوفود إلى من بعثوهم ، وقد اطلعوا على عورة المدينة وعرفوا أنها مكشوفة ليس بها من يدافع عنها ،

---

(١) العقال : الحبل الذي يعقل به بعير الصدقة ، والعناق : الأنثى من الماعز .

(٢) ذي القصة : أقرب مكان من المدينة على طريق نجد ، شمال شرقي المدينة .

(٣) الربذه : واقعة موقع الحناكية على بعد ١٢٠ كم من المدينة .

وأدرك أبو بكر منهم ذلك فجمع الناس وقال لهم : إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وأنكم لا تدرون أليلا تؤتون أم نهارا ، وأدناهم منكم على بريد [١] ، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم فاستعدوا وأعِدوا . ثم أنه دعا إليه عليا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود ، وجعلهم على مداخل المدينة . وأمر سائر الناس بملازمة المسجد في عُدة القتال ، خوف الغارة من العدو ، فما لبسوا إلا ثلاثا حتى طرق العدو المدينة غارة مع الليل وخلفوا بعضهم بذي حسي ليكون لهم ردءا .

فلما كانوا على أبوار المدينة صدهم علي وأصحابه ، ووصل الخبر إلى أبي بكر فخف للقائهم مع من كان بالمسجد فردوا العدو وأتبعوه حتى بلغوا ذا حسي فخرج إليهم أهل الردة بأوعية من جلود وأربطوا فيها حبالا ودحرجوها بأرجلهم على الأرض فنفرت منها إبل المسلمين ورجعت بهم إلى المدينة .

وظن المرتدون أنهم انتصروا فأرسلوا إلى أهل ذي القصة فقدموا عليهم. وبات أبو بكر يعبئ الناس ثم خرج بمن معه سائرا ، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد دون أن يسمع العدو لهم همسا أو حسا ، وكيف يسمع وقد اطمأن إلى انتصاره ، وبات ناعم الجفن بنون هانئ ؟ فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف ، فما بزغت الشمس حتى ولى العدو

---

(١) البريد : أصله الدابة التي تحمل الرسائل والمسافة بين كل منزلين من منازل الطريق وهي أميال اختلف في عددها .

الأدبار ، وغنم المسلمون إبلهم واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة . وكـان أول الفتح ، ووضع بها النعمان بن مقرن في عدد ورجع إلى المدينة .

وكان انتصار المسلمين في هذه الموقعة كانتصارهم في بدر ومـا أشـبه الليلة بالبارحة . فقد وقف المسلمون يوم بدر ومحمـد – ﷺ – علـى رأسـهم وعددهم أربعة عشر وثلثمائة ، يقاتلون المشركين من قريش ، وعددهم يقـرب من الألف ، وهنا وقف أهل المدينة وأبو بكر على رأسهم وهم قلة أمـام هـذه الجموع الغفيرة من عبس وذبيان وغطفان وفزاره وطـيء ويومئـذ تحصـن محمد إيمانا منه وإيمان أصحابه وينصر الله إياهم علـى المشـركين ، وهنـا تحصن أبو بكر بإيمانه وإيمانه أصحابه فانتصر كما انتصر الرسـول – ﷺ – وقد برهن هذا النصر العظيم على أن في مقدور المسلمين أن يصدوا كل معتـد حتى في غيبة الجيش الذي خرج مع أسامة ، وبخلاف أن هذا النصر أرجعـت بعض القبائل للإسلام ، وهرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة إلى خليفـة رسول الله – ﷺ – . وكان أول الذين أقبلوا يؤدون الزكاة صفوان والزبرقـان من رؤساء بني تميم وعدي بن حاتم الطائي من رؤساء طيء .

عودة أسامة وعقد الألوية لحرب المرتدين :

عاد جيش أسامة بن زيد في رجب سنة ١١ هـ ، فقال أبو بكـر لأسـامة وجنده استريحوا وأريحوا ظهوركم . ثم استخلف أسامة على المدينة ، وخـرج فيمن كان معه فناشده المسلمون على البقاء وإرسال رجل آخر مقامـه وذلـك حتى لا يختل نظام الأمة إن أصيب ، ولكنه أصر على الخروج بنفسـه حتـى

يشاركهم الجهاد في سبيل الله وسار إلى ذي حسي وذي القصة حتى نزل بالأبرق فقاتل من به ، وألجأهم إلى الفرار وأخذ الحطيئه أسيرا وأرعى خيل المسلمين أرضهم . وعاد إلى المدينة وأقام بها حتى إذا اطمأن إلى أن جيش أسامة قد استراح خرج به إلى ذي القصة فوزع الجند بها إلى أحد عشر لواء وجعل على كل لواء منها أميرا .

وقد رأى أبو بكر في التوزيع على أن تكون القوة الموجهة متناسبة في عددها وفي إمارتها مع قوة القبائل التي وجهت إليها ، ومبلغ إلحاح هذه القبائل في الردة .

ولذا وزع جند الإسلام كالتالي :-

١- وجه خالد بن الوليد على رأس اللواء الأول لقتال طليحة الأسدي ببزاخه فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويره زعيم بني تميم بالبطاح . وكان بنو أسد وبنو تميم أقرب القبائل المرتدة إلى المدينة فكان طبيعيا أن يبدأ المسلمون بهم لتفت هزيمتهم في عضد غيرهم ، وخالد أجدر القواد بأن يعقد النصر له لواءه.

٢- وجعل عكرمة بن أبي جهل على رأس اللواء الثاني ووجهه لقتال مسيلمة الكذاب باليمامة .

٣- وجعل شرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث ، وأمره بمعاونة عكرمة على مسيلمة فإذا فرغا منه لحق شرحبيل بقضاعة مددا لعمرو بن العاص .

٤- وعقد اللواء الرابع للمهاجر بن أبي أمية ووجهه لقتال جنود الأسود العنسي باليمن ولقتال عمرو بن معد يكرب الزبيدي وقيس بن مكشوح المرادي . فإذا فرغ منهم قصد إلى كنده وحضرموت ليقاتل الأشعث بن قيس والمرتدين معه .

٥- وجعل سويد بن مقرن على اللواء الخامس وأرسله إلى تهامة اليمن .

٦- وأرسل العلاء بن الحضرمي على راس اللواء السادس إلى البحرين لقتال الحطم بن ضبيعة .

٧- وجعل حذيفة بن محصن على راس اللواء السابع وأرسله لقتال ذي التاج لقيط بن مالك المتنبئ في عمان .

٨- وجعل على اللواء الثامن عرفجة بن هرثمة وأرسله إلى مهرة .

٩- ووجه اللواء التاسع وعليه عمرو بن العاص لقتال قضاعة .

١٠-وأرسل اللواء العاشر تحت قيادة طرفة بن حاجز لقتال بني سليم ومن معهم من هوازن .

١١-وكان اللواء الأخير تحت قيادة خالد بن سعيد ابن العـــاص وبعثـــه إلـــى مشارف الشام .

دعوة المرتدين قبل إرسال الجيوش :

بعد أن عقد أبو بكر الألوية ولم يسر أولها حتى بدأ بهجوم سلمي مهـد بـه للحرب خير تمهيد ، فقد أذاع في الناس لسكان شبه الجزيرة العربيـة جميعـا منشورا بدأه :

بحمد الله والثناء عليه ، وذكر بعثة محمد - ﷺ - بالحق من عنده بشـيرا ونذيرا . ثم أشار إلى وفاة الرسول الكريم بعد أن بلغ ما أمر الله بـه أن يبلغـه للناس وبين أنه بشر مات كما يموت كل إنسان ، ودعاهم إلى الإسـلام وعـدم متابعة الهوى والشيطان ، وأنذرهم بالقتال .

وبعد أن ذكر ذلك قال : وإني قد أنفذت لكم فلانا في جيش من المهـاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يـدعوه إلـى داعية الله فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومـن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يبقى على أحد مـنهم قـدر عليـه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتله ، وأن يسبي النساء والذراري ، ولا يقبـل مـن أحد إلا الإسلام ، فمن تبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمـرت رسولي أن يقرأ كتاب في كل مجمع لكم والدعاية الآذان .

حملت الرسل هذا المنشور ليقرا في مجامع الناس وأنديتهم قبل أن تتقدم إليهم الجيوش ، ثم كتب إلى القواد عهدا يأمرهم بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان ويأمرهم أن لا يردوا المسلمين عن قتال عدوهم وينصحهم بألا يدخلوا في المسلمين حشوا ، وأن يقتصدوا بالمسلمين في السير والمنزل ويأمرهم بحسن الصحبة ولين القول .

وهكذا توجهت الحملات الإسلامية إلى الجهات التي عينت لها وبدأ الجهاد في سبيل الله .

أولاً : **خالد وطليحة الأسدي** :

وجه أبو بكر خالد بن الوليد لحرب طليحة الأسدي الذي إدعى النبوة في حياة رسول الله – ﷺ – ، وشجع الناس الأكاذيب للدلالة على نبوته فكان يقول لهم : " الحمام واليمام والصرد الصوام قد قمن قبلكم بأعوام ليبلغن ملكنا العراق والشام " . كما أمر بترك السجود في الصلاة ، ويقول لهم : ما يصنع الله بتعفير وجوهكم أذكروا الله أعفة قياما .

ولما علم الرسول – ﷺ – بادعاء طليحة النبوة أرسل إليه ضرار بن الأزور ، وكاد يقضي عليه لولا أن الرسول الكريم انتقل إلى الرفيق الأعلى فعظم لسلطانه واشتدت شوكته وتابعه قومه من بني أسد ليكون لهم مثل ما لنبي قريش ، وانضمت إليه جماعات من عبس وذبيان وطئ وغيرهم ممن لهم علاقات ببني أسد .

قصد خالد بن الوليد ومعه جيش مكون من أربعة آلاف أو خمسة ، وتظاهر خالد بأنه يقصد بلاد طئ . وكان عدي بن حاتم الطائي بالمدينة فخشي على قومه أن يجتاحهم خالد فاستأذن أبي بكر في الذهاب إلى قومه ؛ ليردهم إلى الإسلام ويمنعهم من الانضمام إلى طليحة ، وقد استطاع أن يفعل، فتركوا جهة طليحة ، وكذلك انسحب البعض وانضموا إلى المسلمين ، فقل عدد أنصار طليحة بعد أن اعترفوا بخطئهم .

أما خالد فقد التقى بجيش طليحة واشتد القتال وعضت الحرب بني فزارة وسيدهم عيينة بن حصن الذي كلما اشتدت الحرب اتجه إلى طليحة قائلا له : هل جاءك ذو النون ؟ فيقول : لا وطليحة ملتف بكسائه ، ولما استفز أمار الحرب – جاءه وقال له : هل جاءك ؟ قال : نعم جاءني ، وقال : إن لك رحى كرحاه وحديث لا تنساه ستلقاه ليس لك أوله ولكن لك أخراه ، فقال عيينة : أرى أن لك حديثا لا تنساه يا بني فزاره ، هذا كذاب ، وأنفصل بقومه عن معسكره فانهزم المرتدون ، وفر زعيمهم طليحة ومعه زوجته إلى الشام ، مما ترتب عليه استسلام بني أسد وتبعتهم القبائل المجاورة النجدية طائعة حاملة معها ما عليها من الزكاة .

أما طليحة فإنه رجع إلى بني أسد بعد فراره وعلم بعودتهم إلى الإسلام فعاد هو أيضا إلى رشده وأسلم ، وعاش مدة خلافة أبي بكر وعمر – رضي الله تعالى عنهما – واشترك في حروب المسلمين مع الفرس ليكفر عن ماضيه المحزن ، وأبلى البلاء الحسن مما سجله له التاريخ في معارك الجهاد .

وقد عاقب خالد الذي اعتدوا على المسلمين اثناء ردتهم ولم تأخذهم رحمة ، ووافقه أبو بكر - رضي الله عنه - على ذلك .

ثانياً : خالد وبني تميم :

بعد أن تم إخضاع القبائل النجدية سار خالد - رضي الله عنه - إلى القبائل التي تسكن الهضبة الواقعة بين نجد والفرات والخليج العربي ، وأهمها قبيلة بني تميم - ذات الفروع الكثيرة المنتشرة بين اليمامة وأفواه الفرات ، وكانت بعض شعوبها تدين بالنصرانية وبعضها على الوثنية ، ودخلت كلها مع الداخلين في الإسلام في أواخر أيام الرسول - ﷺ - وقد أمر عليهم أمراء من بطون بني تميم منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك بن نويره .

فلما انتقل الرسول - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى منهم من بقى على إسلامه ومنهم من ارتد بمنع الزكاة ، وإن كان بعض رؤسائهم أتى أبا بكر طائعا مقدما الزكاة الواجبة عليه . وقد كان من المحتمل أن تأتي بقية الرؤساء من بني تميم لولا قيام أحدهم وهو مالك بن نويره من بني يربوع وأحد زعماء بني تميم بمؤازرة امرأة أصلها من بني يربوع تدعى سجاح وكانت قد هاجرت مع أسرتها من بلاد العرب إلى بني تغلب في العراق ولما انتقل الرسول - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى ادعت النبوة ؛ طمعا في السيطرة على ما كان لرسول الله - ﷺ - فأتت أهلها بني يربوع ، ودعت بني تميم لمهاجمة المدينة والاستيلاء عليها . فكان ممن استجاب لها مالك بن نويره . إلا أنها

رأت أن أهدافها لم تتحقق في بني تميم ، فقالت لجندها من ربيعة وإياد علـيكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة فإنها غزوة صرامة ، لا تلحقكم فيهـا ملامـة ، ثم اتجهت إلى مسيلمة الكذاب وذلك لأنها رأت فيه مزاحما خطيرا لها، وكـان مسيلمة رافعا علم الردة في اليمامة ونزلت بمن معها في بنـي حنيفـة، ولكـن مسيلمة خشي أمرها فاستأمنها على نفسه بدلا من أن يدخل معها فـي نـزاع ، وقد تدهمه جيوش أبي بكر فتتحقق هزيمته فتزوجها وأقامت معه ثلاثة أيـام إلا أنها تركته فجأة وانصرفت إلى الجزيرة الفراتية .

أما خالد بن الوليد فقصد بادية بني تميم وانتشر جنده فـي بنـي يربـوع ودعاهم بداعية الإسلام وداعية الإسـلام الآذان إذ أذن المسـلمون . وجـاءت جماعة من جنده بمالك بن نويره ونفر من بني يربوع .

واختلفت الأقوال بين أنهم أذنوا أم لا ، وهل أجاب مالك داعية الإسـلام أم لا . وإزاء هذا الخلاف رأى خالد تأجيل نظر هذه القضية إلى الصباح ؛ حتـى يحقق فيها ويستبين أمر الحق لأن موقفه كان صعباً أمام اخـتلاف الـرأيين ، وأمر خالد بحبسهم إلى الصباح وكانت ليلة باردة ورحمة بهـم أمـر بتـدفئتهم قائلاً : أدفئوا أسراكم ، ولكن هذه العبارة في لغة قبيلة كنانة التي منها حـراس مالك وصحبه معناها القتل فقتل الحراس مالك وصـحبه لأنهـم لـم يفهمـوا الغرض من عبارة خالد .

وقد دار نقاش طويل حول مقتل مالك بن نـويره ، وزادت حـدة أن خالـد تزوج بليلى زوجة مالك بعد مقتله وكثر الحديث من غير تدبر مـن الـبعض ،

وسرت شائعات حول موقف خالد من زواجه بليلى ، واتهمه البعض منهم بما لا يتفق مع صحابي جليل مثل خالد بن الوليد الذي لقبه الرسول - ﷺ - بعد إسلامه " بسيف الله المسلول " ، تشريفا له وتكريما فقد قيل أن ليلى وكانت مصاحبة زوجها مالك بن نويرة ألقت بنفسها على قدمي خالد لما عرفت أنه قاتل لزوجها لا محال فأنسدل شعرها وبان وجهها فنظر إليها خالد فأعجب بها وهداه جموح نفسه الجياشة بالحب إلى تنفيذ قتل مالك ليتزوجها .. إن المؤرخ النزيه ليفخر بالحديث عن خالد ويتملكه عجب سيرته التي تعتبر من أروع السير ، وأما الذين تناولوه بقالة السوء فإن القلب ، ليتفجر حزنا على غفلتهم ، وعدم إدراكهم لحقائق الأمور .

ولقد استند البعض على ما ذهبوا إليه في حق خالد إلى موقف الصحابي أبي قتاده الأنصاري من خالد :

حيث ذهب أبو قتاده إلى أبي بكر في المدينة وكان في جيش خالد ، وقص عليه أمر خالد مع مالك بن نويرة وزواجه من ليلى بعد قتل مالك . فجزع ابو بكر لما سمع ومع ذلك فإن أبا بكر - ﷺ - وجه إلى أبي قتاده سؤالا يحمل مبدأ من أهم المبادئ العسكرية في الحرب : هل استأذنت من القائد العالم قبل أن تغادر المعسكر ؟ فقال : لا . فرأى أبو بكر أن ذلك خطأ جسيم لا ينبغي أن يكون ، وإلا أصبحت طاعة الجندي لقائده ، والتزامه بواجبات الجندية ، وخاصة وهو في أرض العدو فوضى تؤدي إلى الفشل

فطلب منه أن يعود إلى قائده خالد . لمحة ذكية من الصديق وتوجيه بارع للجندي وحذره أن يعود لمثلها .

وأرسل لخالد محضرا وسأله عن حكاية مالك بن نويره وزوجته ليلى ، فبين خالد للخليفة حقيقة ما جرى وما دار بينه وبين مالك وانه لم يعترف بحق الزكاة ، فقلت له : أما علمت أن الصلاة والزكاة لا تقبل واحده منهما ولا يعترف بالآخر ، ول بد للمسلم من الإيمان بهما ، فقال : وهل كان صاحبك يقول ذلك ؟ قلت : أو ما تراه لك بصاحب ؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك، واستمر الحور بيننا مما يفيد أن مالكا تحلل من صحبه النبي - ﷺ -.

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حاضرا هذا التحقيق ، فغضب من خالد لما سمع قول أبي قتاده واشتد في لومه لخالد وأراد أن يقتص منه ، فأبى عليه أبو بكر وقال : (هيه يا عمر) تأول خالد فأخطأ فأرفع لسانك عنه ، وبعد أن اعتذر خالد مما قد يكون من خطأ أمر مالك ودفع أبو بكر دية مالك واعتبر القتل كان خطأ ، ورد أبو بكر السبي والمال .

ويدل ما سبق أن مالكاً لو كان على إسلامه ولم ينكر حق الزكاة لما كان هناك مجال للمخاصمة والمناقشة التي رواها بعض المؤرخين .

حقيقة أن خالد تزوج من ليلي ، فقد كانت ليلى في السبي فاشتراها خالد من الفيء وتزوج بها بعد انقضاء عدتها وكان ذلك تكريما لها ، وتطييبا لخاطرها ، وحفاظا على وضعها . وإذا كان الزواج معيبا عند العرب في

ميدان المعركة وإن كانت التقاليد تأباه إلا أن الشرع لا يمنعـه ، فقـد تـزوج الرسول - ﷺ - صفية بنت حيي بن أخطب في ميدان المعركـة فـي غـزوة خيبر في السنة السابعة من الهجرة .

أما قتل مالك من أجل الزواج من زوجته فذلك من خيال الحاقـدين علـى رجال الإسلام ومن صنع الكذابين خاصة وأنه لم يكن هناك سند علـى صـدق هؤلاء ولو لم يكن خالد بريئا من كل ما نسب إليه لما تركه أبو بكـر ، ولمـا قال لعمر هيه يا عمر تأول خالد فأخطأ فارفع لسانك عنه .. وهل يظـن أحـد أن أبا بكر كان يجامل خالدا في حد من حدود الله تعالى . ثـم أن عمـر بـن الخطاب - ﷺ - طلب من أبي بكر القصاص من خالد ، فلماذا لمـا آل إليـه الأمر وأصبح خليفة المسلمين لم يقم الحد على خالد . وهذا ممـا يـؤد القـول ببراءة خالد . مما نسب إليه من افتراءات .

٣ـ خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب في بني حنيفة :

كان بنو حنيفة قد وفدوا على النبي - ﷺ - وأسلم الوفد ، وكان مسـيلمة بن حبيب في رحالهم ، ولما عاد الوفد ادعى مسيلمة أنه أشرك مع رسـول - ﷺ - في الرسالة وذلك في السنة العاشرة من الهجرة . وجهر بدعوتـه بعـد رجوعه من المدينة ، وأخذ يسجع لقومه الأسجاع في مضاهات القرآن الكـريم، كما أعفاهم من الصلاة وأحل لهم المحرمات .

وكان أبو بكر قد عقد اللواء الثاني لعكرمة بن أبي جهل وأمـره بالتوجـه إلى مسيلمة ، وعقد اللواء الثالث لشرحبيل بن حسنه ، وأمره بمعاونة عكرمـة وأمرهما بالاجتماع ، ولكن عكرمة تعجل بالهجوم ليحرز قصب السبق فهزمـه مسيلمة ، وبلغ ذلك شرحبيل وهو بالطريق ، فتوقف عن المسير ، وأرسل إلـى أبي بكر بنبأ الهزيمة ، فغضب أبو بكر وأرسل إلى عكرمة يوبخه ، فيقول له: يا بن أم عكرمة لا أرينك ولا تراني لا ترجعن فتوهن الناس أمض إلى حذيفـة وعرفجة وقاتل أهل عمان ومهرة ، ثم تسير أنت وجنـدك تسـتبرئون النـاس حتى تلقى المهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت . وكتـب إلـى شـرحبيل يأمره بالانتظار حتى يأتيه خالد ، ولكنه تعجل كما تعجل سلفه فهزم أيضا .

وعاد خالد من المدينة إلى البطاح وكان جيش خالد مرابطا فيهـا وانضـم إليه رجال من تميم وطئ وأسد وغطفان ، وقد تصرف خالد تصـرفات تـدل على مقدرته السياسية ، وتقدير ما هو قادم عليه فمهد للحرب بمكاتبـة بعـض التميميين الذين كانوا قد انضموا إلى مسيلمة ، وقد وفق فـي ذلـك ، وبمقابلـة الرؤساء الذين كانوا يمالئون سجاح بنت الحارث حتى اضطرهم إلى الرجـوع إلى بلاد تغلب ، وذلك بدلا من تركهم وقد ينضمون إلى مسـيلمة وبتحـريض من ثبت على إسلامه من بني حنيفة على مشاغبة مسيلمة ، فاستجابوا له .

وفي هذه الأثناء ورد إليه المدد من أبي بكر خليفة المسلمين ، ولـم يكـن هذا المدد دون جيش خالد قوة ، فقد تألف من رجـال المهـاجرين والأنصـار أصحاب رسول الله - ﷺ - الذين شهدوا بدراً ، وشهدوا المواقع مع الرسـول

الكريم . هذا مع أن أبي بكر كان يصن بأهل بدر ويقول : لا أستعجل أهل بدر بل أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم ؛ فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم ؛ وإنما خرج أبو بكر على رأيه ذاك فأمد خالدا بالبدريين، وبمن شهدوا المواقع في عهد الرسول الكريم ؛ لأن مسيلمة كان قد استفحل أمره وعظم خطره ، فكل تضحية في سبيل القضاء عليه دفع عن دين الإسلام.

ولما ورد إليه المدد سار إلى اليمامة ، وجعل على المهاجرين أبا حذيفة من اليمامة وزيد بن الخطاب وعبد الله بن حفص ، وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبراء بن مالك ، وعلى الخيالة أسامة بنْ زيد ، وعلى كل قبيلة رئيسها.

موقعة عقرباء :

لما سمع مسيلمة بقدوم خالد جهز جيشا عظيما يقدر بأربعين ألف ، وتقدم به شمالا لمقابلة خالد وعسكر بعقرباء في طرف اليمامة والمسافة بينها وبين البطاح ٣٥ كم .

وأما خالد فإنه بعدما رتب جيشه ترك قوة صغيرة بالبطاح لتحفظ له خط الرجعة ، وسار بالجيش نحو اليمامة ، فوصلت المقدمة في مساء يوم إلى القرب من ثنية اليمامة ، ولقيت سرية من بني حنيفة يتراوح عددها ما بين أربعين وستين بقيادة مجاعة بن مرارة من رؤساء بين حنيفة ، خرجت تطلب ثأرا لها في بني عامر وبني تميم قبل تشغل بلقاء المسلمين وقتالهم ، فأدركت

ثأرها ، وكرت راجعة إلى اليمامة ، وبينما هي في الطريق أدركها جيش خالد فأحاط بها وأسرها . والرواية المشورة أن خالدا أمر بقتلهم جميعا ما عدا مجاعة فقد استبقاه لشرفه ؛ وليستفيد منه في حرب بني حنيفة ، فقيده بالحديد وجعله في قبته وجعل زوجه أم تميم على حراسته .

وأقبل خالد غداة اليوم الذي قبض فيه على مجاعة ، فصف جنده في وجه مسيلمة ، وعندما رأى ذلك شرحبيل بن مسيلمة نادى في قومه قائلا : يا بني حنيفة فإن اليوم يوم الغيرة فإن هزمتم تستردف النساء سبيات ، وينكحن غير خطيبات ، فقاتلوا عن أحسابكم وأمنعوا نساءكم .

وبدأ القتال مبارزة على حسب عادة العرب ، ثم التحم الجيشان ، واشتدت الحملة من الميمنة على ميسرة المسلمين فانكسرت وأثر ذلك في القلب فرجع القهقري ، واشتد القتال ولم يلق المسلمون حربا مثلها قط وزال خالد عن فسطاطه ، ودخله بنو حنيفة فرأوا فيه مجاعة مقيدا بالحديد ورأوا على مقربة منه أم تميم ، فحمل رجل منهم بالسيف على ليلى يريد أن يقتلها فصاح به مجاعة : مه أنا لها جار فنعمت الحرة عليكم بالرجال ، وقطع الجند حبال الفسطاط ومزقوه بسيوفهم تاركين مجاعة وليلى ينظران ما الله صانع بالقوم جميعا .

وفي هذا الموقف الحرج برز خالد إلى ميدان القتال شاهرا حسامه مناديا بشعار " يا محمداه يا أصحاب سورة البقرة ، فاجتمع إليه الناس ورأى أن أهل القرى ينسبون الهزيمة إلى البوادي والعكس قال : امتازوا أيها الناس لنعلم

بلاء كل حي ، ولنعلم من أين نؤتي . فلما امتازوا قال بعضهم لـبعض : يـوم يستحي من الفرار وثارت الحمية من جديد في نفوس المسلمين ، وسما الإيمان بنفوسهم إلى ما فوق مراتب الحياة ، وأظلتهم نسـمة مـن روح الله ، وأرتهـم الحياة لهوا ولعبا ، فقال ثابت بن قيس : بئسـما عـودتم أنفسـكم يـا معشـر المسلمين اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء " يعني أهل اليمامـة " واعتـذر إليك مما يصنع هؤلاء " يعني المسلمين " ثم قاتل حتى قتل ، وقـال زيـد بـن الخطاب : لا نحور بعد الرجال ، والله لا أتكلم اليوم حتـى نهـزمهم أو أقتـل فأكلمه بحجتي غضوا أبصاركم وعضـوا علـى أضراسـكم أيهـا النـاس ، واضربوا في عدوكم وأمضوا قدما ، واندفع في صدر القوم يقاتل ويقتل وجنـده من ورائه حتى لقي الله يكلمه بحجته ، وصاح أبو حذيفة فيمن حوله : يا أهـل القرآن زينوا القرآن بالفعال وألقي بنفسه في المعمعة يقاتل وقومه حتى ضـمه الله إليه ، وأخذ سالم مولى أبي حذيفة الراية وقال : بئس حامل القرآن أمـا إن لم أثبت ، وقاتل حتى قتل .

بهذه الصيحات وأمثالها رد المسـلمون جـيش مسـيلمة إلـى مـا وراء خطوطها الأولى ، ولكن لا تزال مستبسلة في القتـال ، ورأى خالـد أن بنـي حنيفة يسقطون حول مسيلمة قتلى لا يبالون الموت ، فأيقن أن أقـرب الطـرق إلى النصر قتل مسيلمة نفسه ، لذلك داور برجاله حتى كان حياله ، ثـم جعـل يستدرجه ليخرج إليه ، وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلـى لقـاء خالـد فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه ، وكثر في هؤلاء القتلى وشعر مسـيلمة بالخزي يركبه لجبنه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا لكنـه أيعـن أنـه

مقتول لا محالة إن خرج فتردد واضطرب ، وإنه في تردده إذ شد خالد عليه وأرهقه فأدبر وزال أصحابه . وصاح خالد في الناس : دونكم لا تقيلوه ، فركبوهم ، فكانت هزيمتهم . وقالوا لمسيلمة : أين ما كنت تعدنا ؟ فقال : قاتلوا عن أحسابكم ، ونادى محكم بن الطفيل : يا بني حنيفة الحديقة الحديقة ، فدخلوها وأغلقوا بابها عليهم .

وبعد أن تريث المسلمون قليلا صاح البراء بن مالك يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة ، عليهم في الحديقة ، فقالوا لا نفعل ، فقال : والله لتطرحنني عليهم فيها فاحتمل حتى أشرف على الجدار واقتحمها عليهم وقاتل على الباب وفتحه للمسلمين ودخلوها عليهم وفتكوا ببني حنيفة فتكاً ذريعا . وكانت مذبحة لم يشهد المسلمون مثلها .

وأخيرا قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشي قاتل سيدنا حمزة يوم أحد ورجل من الأنصار كلاهما قد أصابه أما وحشي فدفع عليه حربته وأما الأنصاري فقد ضربه بسيفه وصاح يقول : قتله العبد الأسود وكان وحشي يقول : قتلت خير الناس وشر الناس .

أنهدت عزائم بني حنيفة حين سمعوا الصيحة بموت مسيلمة ، وأسلموا أنفسهم لا يقاومون وأمعن المسلمون فيهم قتلا ، فلم تعرف بلاد العرب في تلك العصور موقعة كان فيها ما كان في موقعة اليمامة من دماء . فقد قيل إن عدد القتلى في الميدان سبعة آلاف وبالحديقة مثلها ؛ لذلك أطلق على حديقة الرحمن اسم حديقة الموت .

ولما انتهت الموقعة خرج خالد بمجاعة يرسف في الحديد ليدل على مسيلمة فجعل يكشف له القتلى حتى عثر عليه وقال لخالد هذا صاحبكم قد فرغتم منه ، ودعاه إلى الصلح .

الصلح مع بني حنيفة :

فكر خالد في أمر بني حنيفة ، وأشار عليه عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر بمهاجمة الحصون ، ولكنه لم ير هذا الرأي بعد أن رأي فدامة الخسائر ومناعة الحصون وخرج من تفكيره إلى وجوب بث الخيول ؛ لتأتيه بمن ليس بالحصون فأتته ، ثم استمع إلى ما قاله له مجاعة بأنه ما جاءه إلا سرعان الناس ، وأن الحصون مملوءة بالرجال ، وأنه مستعد للتوسط في الصلح . وكان قد وثق به بعد الذي كان من جواره أم تميم ، ومن إخلاصه القول له في مسيلمة ومن معه ، فقبل منه الصلح ، وصالحه على كل شيء دون النفوس كما يروي ابن الأثير [١] ، أو على ربع السبي ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع كما يروي البلاذري في فتوح البلدان [٢] .

ولما تم الأمر على هذا طلب مجاعة أن يذهب إلى قومه ليعرض عليهم شروط الصلح ، فانطلق إليهم وليس في الحصون إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى ، فألبسهم الحديد وأمر النساء أن ينشرن شعورهم ويشرفن على الحصون حتى يرجع إليهم ، فرجع إلى خالد وقال : قد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص٢٤٧ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ج٢ ص١٠٠ .

أبوا أن يجيزوا ما صنعت لهم ، وقد أشرف لك بعضهم نقضا علي ، وهم مني براء ، فرأى خالد الحصون مملوءة وقد نهكت المسلمين الحرب ، وطال اللقاء؛ وأحبوا أن يرجعوا على الظفرة ، ولم يدروا ما هو كائن لو كان فيها رجال وقتال وقد قتل من المهاجرين (٢٦٠) ومن الأنصار (٣٠٠) وذلك خلا من قتلوا من أهل القبائل ، وبلغ مجموع القتلى مائتين وألفا ومن بين القتلى ٣٩ من كبار الصحابة وفي الشهداء كثير من حفظة القرآن . وقصارى القول لم يخل بيت من بيوت المدينة من حزن ، ولا يقاس هذا العدد بمن قتل من بني حنيفة ، فقد روى أن القتلى بلغ عددهم إحدى وثلاثون ألفا .

وإزاء هذه الأحوال صالح خالد مجاعة على نصف السبي وقيل ربع السبي ، وعلى الذهب والفضة والسلاح .

وبعد الصلح عرف خالد الحقيقة ، فقال لمجاعة : ويحك خدعتني ! فقال مجاعة : قومي ولم أستطع إلا ما صنعت ، ووصل كتاب أبي بكر إلى خالد يأمره فيه بقتل كل محتام فلم يشأ خالد أن يغدر بالقوم ووفى لهم بشروط الصلح .

ورجع بنو حنيفة للإسلام . وبعث خالد بوفد منهم إلى أبي بكر بالمدينة ، فلما قدموا عليه قال لهم : ما هذا الذي استذل منكم ما استذل ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله قد كان الذي بلغك مما أصابنا ، وقد كان أمرا لم يبارك الله له ولا لعشيرته . وحكوا له بعض أسجاع مسيلمة مثل : يا ضفدع ابنة الضفدع نقي ما تقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الشارب تمنعين ولا

ماء تدركين ، ومثل : والمبديات زرعاً والحاصدات حصدا والـذاريات قمحـا والطاحنات طحنا ... الخ .

نتائج عقرباء :

كان يوم عقرباء من الأيام الحاسمة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الغرب:

١- ذلك لأن مسيلمة كان يقول في صراحة : إن نبوة محمد لقـريش وليسـت للناس كافة ، وكانت تتطلع إليه الأعين من الـيمن وحضـرموت ومهـرة وعمان والبحرين ، وكذلك تتطلع إليه الأعين من بلاط فارس ، فلـو قـدر له أن ينتصر فليس يعلم إلا الله ماذا كان مصير الإسلام ؟؟ .

٢- انكسرت مقاومة المرتدين في الأقطار الأخرى فسهلت هزيمتهم .

٣- كان قتل كثير من حفظة القرآن الكريم سببا في جمع القرآن فـي خلافـة أبي بكر ؛ مخافة أن يستحر القتل في سائرهم من بعد هذا الجمـع الـذي أدى إلى توحيد القرآن بلغة مضر في عهد عثمان . فظل كتاب الله أساسـا ثابتا لكلمة الحق .

٤- ختمت هذه المعركة دورا ، وفتحت دورا آخـر ؛ ذلـك أنـه لـو هـزم المسلمون في هذه المعركة لبقي العرب منزوين في جزيـرتهم ولا حفـظ الأكاسرة بملكهم في العراق ودولتهم في فارس وخراسـان ، ولمـا بكـى هرقل عظيم الروم على ضياع سوريا .

٥- اطمأن أبو بكر بعد الانتصار على مسيلمة إلى مصير الإسلام ، وسكنت نفسه . وآن لخالد أن يستريح فتحول إلى وادي من أودية اليمامة يقال له الوبر إلى أن جاءه كتاب من أبي بكر يأمره فيه بالتوجه للعراق . وكان قد تزوج ببنت مجاعة عقب موقعة عقرباء .

حملة علاء بن الحضرمي في البحرين :

كان بعض أهل البحرين قد وفد على رسول الله – ﷺ – في السنة العاشرة وأسلم فأرسل الرسول الكريم معهم العلاء بن الحضرمي يعلمهم الإسلام ، واختار المنذر بن ساوي العبدي عاملا عليهم ، ومات المنذر بعد وفاة رسول الله – ﷺ – بقليل ، فأرتد أهل البحرين من بني بكر وعبد القيس عن الإسلام ، وأدت ردتهم إلى فرار العلاء بن الحضرمي فأما عبد القيس فقد قيض الله لها أخا صالحا وهو الجارود العبدي فنصحهم بالثبات على الإسلام ، وكان قد بلغه أنهم قالوا : لو كان محمدا نبيا لما مات ؟ فقال لهم : تعلمون أنه كان لا أنبياء فيما مضى فما فعلوا ؟ ، قالوا : ماتوا ، قال : فإن محمدا – ﷺ – قد مات كما ماتوا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فشهد قومه كشهادته وعادوا إلى الإسلام ، وثبتوا عليه .

وأما بنو بكر فاستمروا على ردتهم وحاولوا بزعامة الحطم بن ضبيعة أن يرجعوا الجارود والذين معه عن الإسلام ولكن ذهبت محاولاتهم سدا .

ولما رأى المرتدون ثبات الجارود ومن معه على الإسلام فكروا في أمـر يقوى به جمعهم ، فقالوا : نرد الملك في المنذر ابن النعمان بن المنذر ، وكـان يسمى " بالغرور " فملكوه عليهم ، وخرج الحطم حتى نـزل القطيـف وهجـر واستغوى من بهما من الأبناء مولدة الفرس ، كما ضم إليه من لم يكـن دخـل الإسلام من قبل ، وأمده بلاط فارس بالعدة والعتاد وحاصر الجارود ومن معـه وشدد عليهم الحصار حتى كادوا يهلكون جوعاً .

وبينما هم كذلك كان أبو بكر قد رد العلاء بن الحضرمي إلـى البحـرين لقتال المرتدين ، ولم يذهب العلاء إليها حتى كان خالد بن الوليد قد قضى علـى مسيلمة وأتباعه .

لذلك أسرع من عاد إلى الإسلام من بني حنيفة ينضمون إلى العلاء حـين مر باليمامة ، فقد انضم إلي ثمامه بن أثال الحنفي في المسـلمين مـن قومـه وقيس بن عاصم المنقري وأعطاه بدل ما كان قسم من الصدقة بعد موت النبـي - ﷺ - كما انضم إليه الكثير من شيوخ القبائل الذين رغبوا في البرهنة علـى إسلامهم ، فسار بالجميع حتى وصل إلى البحرين ونزل من جهة هجر وأرسل إلى زعيم عبد القيس الجارود يشد عزمه وعزيمة من معه ، وخندق كل فريـق على نفسه ، وجعلوا يتراوحون القتال ثم يرجعون إلى خنادقهم . وأقاموا علـى هذا الحال مدة شهر لاحت للمسلمين بعده فرصة اهتبلوها ؛ ذلك أنهـم سـمعوا في عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتـال فأرسـل العلاء يستعلم الخبر فجاءه بأنهم سكارى ؛ فخـرج بالمسـلمين مـن خنـادقهم

واقتحموا عليهم عسكرهم ووضعوا السيف فيهم ، وجعلوا يقتلون منهم كل من أصابوا ، وفر المرتدون هربا ، فإذا هم ما بين مترد في الخندق ، وناج لا يعرف لنفسه مستقر ومأسوراً ومقتول .

وكان من بين القتلى الحطم بن ضبيعة ومن بين الأسرى المنذر بن النعمان ، والذي أسلم وهو يقول : إني لست بالغرور ولكني المغرور ، وقد عفا العلاء عنه .

واضطر الذين نجو من الموت أو الأسر أن يعبروا الماء في السفر إلى جزيرة دارين من جزر الخليج الفارسي تواجه البحرين ، فعبر خلفهم المسلمون على الظهر وانتصروا عليهم وغنموا مغانم كثيرة وكتب العلاء إلى أبي بكر بهذا النصر المبين .

عكرمة والمهاجر في حضرموت :

قبض رسول الله – ﷺ – وعماله على بلاد حضرموت ، فكان زياد بن لبيد الأنصاري على حضرموت وعكاشة بن أبي أمية على السكاسك والسكون والمهاجر بن أبي أمية على كندة . استعمله رسول الله ولم يخرج إليها بسبب مرضه ، وأناب عنه في عمله زياد بن لبيد . واستمر الأمر كذلك حتى توفي الرسول – ﷺ – فبعث أبو بكر المهاجر لقتال من باليمن ثم المسير بعد إلى عمله .

وكان سبب ردة كندة الخلاف بينها وبين زياد على بكرة وقع عليها ميسم الزكاة خطأ ، واشتد هذا الخلاف واستفحل بين الطرفين حتى أدى إلى القتال . فنادوا بمنع الصدقة ، واستطاع زياد أن يتغلب على المتذمرين في كندة بمن ناصره من رجال السكون الذين حافظوا على إسلامهم ، وهاجم زياد بني عمرو بن معاوية في غفلة منهم ، فقتل رجالهم وسبى نساءهم ، وسار بهن وبالأموال في طريق يفضي إلى عسكر الأشعث بن قيس زعيم كنده ، فغضب لقومه ، وخرج وقاتل ابن لبيد واسترد السبي .

فكتب زياد إلى المهاجر يستنصره ، فسار المهاجر من صنعاء ، وسار عكرمة من عدن فالتقيا بمأرب ، وشرعا يعبران الصحراء الرملية التي بين مأرب وحضرموت ، وبينما هما سائران إذ وصل المهاجر كتاب من زياد يستحثه ، فاستخلف عكرمة على الجيش ، وتعجل في كتيبة سريعة حتى إذ التقى بجيش زياد هاجم الأشعث فهزمه وقتل رجاله ، وفر الأشعث والناجون معه فالتجأوا إلى حصن " النجير " ، فحصرهم المسلمون ووصل عكرمة فاشتد الحصار ، فخرج الاشعث يطلب الصلح على شرط أن يؤمنوا تسعة من رجاله وأهلهم ، ويفتح الحصن للمسلمين ، فأجابه المهاجر إلى طلبه ، وكتب الأشعث الكتاب بأسماء أهله ، ونسي أن يكتب اسمه ، ثم جاء بالكتاب فختمه وأخذه المهاجر ، وفتح الحصن للمسلمين فدخلوه ، فلم يدعوا مقاتلا إلا ضربوا عنقه وأخذوا الأموال والسبي ودعا المهاجر النفر الذين ذكرهم الأشعث في كتابه فأطلق سراحهم .

ولما لم يكن اسم الأشعث في الكتاب أمر به فشد وثاقه وهم بقتله لـولا أن تدخل عكرمة في الأمر ، فقال : أخره وأبلغه أبا بكر ، فهو أعلم بالحكم فيـه ، فسيره إلى أبي بكر مع السبي ، فجعلوا يلعنونه ويلعنه المسلمون حتـى وصـل إلى أبي بكر ، ومثل بين يديه ، فأنبه على ما صنع ، وبعد مناقشـات طويلـة حقن دمه ورد عليه زوجته أم فروه أخت الصديق .

وأصبح الأشعث بعد ذلك من أساطين الحرب في الفتوحـات الإسـلامية . وأقام المهاجر وعكرمة بحضرموت وكنده حتى اطمأنـت الأمـور ، وسـكن الناس ، واستقر الأمن في ربوع البلاد .

وقد حدثت وقائع أخرى بين المسلمين وبين المرتدين من العرب في غيـر هذه الجهات من الجزيرة العربية ، وفي جميعها انتصـر المسـلمون ؛ ليعـود الإسلام في كل شبر من أرض العرب .

لماذا انتصر المسلمون ؟

١- قوة العقيدة الإسلامية في نفوس معتنقيها : فهؤلاء ثبتـوا علـى إسـلامهم ثبوت الرواسي من الجبال ، وباعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، فكـان لهم النصر ، يقول السير وليم موير : وإنما توج جهود المسلمين بالنصـر شيء واحد دون سواه ، ذلك هو ما نفثه محمد في أتباعه المخلصين مـن الروح التي لا تقهر .

٢- صدق عزيمة أبي بكر ، وعلو همته التي لم تزعزعها الخطوب ولا تنال منها العواصف ، وحسن تدبيره . ويتجلى هذا في وضوح في تقسيمة الجزيرة إلى أحد عشر ميدانا ، وإرسال الإمدادات في أوقاتها المناسبة .

٣- حسن القيادة في جيوش المسلمين ، فقد أبدى القواد من ضروب البسالة ، وإحكام الخطط الحربية ما جعلهم حتى اليوم موضع إعجاب العالم ، لاسيما ما تم على يد خالد بن الوليد ، فقد كانت أخبار انتصاراته تحطم من عزيمة المرتدين ، وتقوي عزائم المسلمين في الميادين المختلفة .

٤- فساد المبادئ التي قامت عليها الرد ، جعلت بعض العرب يرجع عن ردته عندما تبينت له حقيقة هؤلاء المتنبئة .

٥- المرتدون لم يكن لهم هدف يجتمعون حوله ، ولم تكن بينهم وحدة في السياسة ولا في الدين ، كما كان هجوم أهل البادية على القرى أثار في نفس أهلها سليقة الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم .

٦- كثرة المتنبئة ليس يخفى على عقول المفكرين أن كثرتهم التي ظهرت دفعة واحدة ، وهذا دون أن يقتصر الأمر على الرجال بل ادعى النبوة النساء أيضا مما أبان بجلي أن هذه الحركات نزعات شخصية تريد أن تستغل لغرض من الأغراض التافهة ، فانصرف الناس عنهم ، وسخروا منهم ؟

وبطبيعة الحال يرجع الفضل في استقرار الأمور في أنحاء الجزيرة العربيـــة ، وبالأخص في حركة الردة التي عمت غالـــب أنحـــاء الجزيـــرة إلـــى خليفـــة المسلمين أبي بكر الصديق ، فقد اشتعل أبو بكر في أمر الردة بعزيمة صـــادقة، لم تعرف لغيره من الأبطال الذين لا تزعزعهم الكوارث ، ولا تلين من قلـــوبهم الخطوب ، ولهذا كله استطاع أبو بكر الصديق أن يطفئ هذه النار التي هاجـــت في جميع أنحاء الجزيرة العربية ؛ حينما شعرت بفقد الرسول – ﷺ – قبـــل أن تنقضي السنة التي لحق فيها الرسول الكريم ربه .

الفتوحات الإسلامية في عصر أبي بكر

عرفنا سابقا كيف وحد النبي - ﷺ - أسس السياسة الخارجية منذ صلح الحديبية التي تمت بينه - ﷺ - وقريش في السنة السادسة من الهجرة النبوي، فقد أرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء في أطراف الجزيرة العربية وخارجها يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان برسالته وقد رأينا كيف أن الرسول الكريم أنفذ سرية مؤته ، ثم خرج بنفسه في غزوة تبوك ، ثم أخيرا أعد جيش أسامة قبيل وفاته - ﷺ - ، وقد كانت وجهتهم إلى الغساسنة في أطراف الشام الخاضعين للروم ؛ وذلك لسخريتهم من دعوته ، واعتدائهم على رسله كالحارث بن عمير الأسدي .

وقد نتج عن ذلك اصطدامهم بالروم في سرية مؤته بطريقة الصدفة . وكان هذا الصدام إيذانا للفتوح الإسلامية في بلاد الشام لتأمين الحدود الشمالية للدولة الإسلامية الفتية .

ومن جهة أخرى كان تمزيق إمبراطور الدولة الفارسية لكتاب رسول الله - ﷺ - سخرية منه ثم بعثه أوامر إلى باذان حاكم اليمن من قبله للقبض على الرسول الكريم إيذانا أيضا بعداء سافر بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية الفارسية . وقد ذكرنا سابقا أن القتال إنما شرع في الإسلام للدفاع عن النفس وتأمين مسار الدعوة الإسلامية ، وقد وضحت كما رأينا نيات كل من الإمبراطوريتين الرومية والفارسية وخطورتهما على الإسلام والمسلمين .

وقد وضح وضوحا ظاهرا خطورة الإمبراطوريتين العتيدتين أثناء حروب الردة إذ حاول الفرس من جهة والروم من جهة أخرى في مساعدة

المرتدين ، وتأجيج نار الفتنة بين المرتدين حتى لا تقوم لهذه الدعوة الجديدة قائمة .

ومن حسن حظ الدولة الإسلامية أنها بدأت شبابها وفتوتها في حين وصلت الإمبراطوريتان الرومية والفارسية في أرذل عمرهما . فعلى الرغم من هذه الأبهة والعظمة والهالة التي تبدوا على كل منهما ، إلا أن هذا كان أمراً ظاهرياً فقط فقد أضعفهما استبداد الملوك ، والبذخ والخلافات الدينية ، والتنافس على الملك ، والصراعات الطويلة والمتعددة بين الإمبراطوريتين ، وما كان القرآن الكريم المعجز ببعيد عن ذكر هذه الصراعات فقد بدأت الآيات في سورة الروم بقوله تعالى : " **أَلَمْ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ** " ، بينما كان الإسلام قد ألف بين قلوب العرب . فوجد أبو بكر في الأمة العربية الفتية المولعة بالحرب ، والمتقشفة في طعامها ولباسها ، مع ما عليه رجالها من شدة الإيمان ، والحرص على الاستشهاد في سبيل نصرة الدين .

كان هذا هو مجمل ما كانت عليه حال الإمبراطوريتين الرومية والفارسية من جهة ، وحال الدولة الإسلامية من جهة أخرى ومن هنا كان من السهل أن تشق الدولة الإسلامية طريقها في جسم هاتين الإمبراطوريتين لتقضي في نهاية الأمر على الإمبراطورية الفارسية نهائيا في بضع سنين ، ولتقطع جزءاً كبيراً وغنيا من جسم الإمبراطورية الرومية .

الجبهة الفارسية :

أسلفنا في حروب الردة أن العلاء بن الحضرمي عقد له لــواء ، وأرســل لمقاتلة المرتدين بالبحرين ، وأنه انضم إليه الكثير من شــيوخ القبائــل الــذين رغبوا في البرهنة على إسلامهم ونذكر هنا أن من هؤلاء الذين انضــموا مــن بني بكر بن وائل المثنى بن حارثة ، وكان المثنى قد أبلى بــلاءً حســناً فــي مقاتلة المرتدين وتعقبهم بعد هزيمتهم بعشيرته البالغة ثمانية آلاف مقاتل علــى ساحل الخليج الفارسي يقاوم دسائس الفرس ، ويقضي علــى أنصــارهم مــن القبائل ومن الأبناء ، حتى بلغ مصب نهر الفرات ، وعمل على نشر الإســلام في تلك الجهات .

فبلغ ذلك أبو بكر بالمدينة ، فسأل عنه ، فقــال لــه : قــيس بــن عاصــم المنقري : هذا الرجل غير خالم الذكر ، ولا مجهول الحسب ، ولا ذليل العمــاد هذا المثنى بن حارثة الشيباني .

ففكر أبو بكر في أمر المثنى وفي البدء بفتح العراق ، وبينما هو يفكــر إذ أقبل المثنى إلى المدينة وقابل الخليفة ، وقال : يا خليفة رســول الله اســتعملني على من أسلم من قومي أقاتل هؤلاء الأعاجم من فارس ، فكتب له أبــو بكــر بذلك عهدا .

ومع اقتناع الصديق بأن المثنى رجل يمكن الاعتماد عليــه إلا أنــه رأى أن فتح فارس يحتاج إلى رأي خالد بن الوليد وسيفه فاستدعاه من وادي الــوبر

باليمامة في المحرم سنة ١٣هـ ، فحضر على عجل . ولم يتردد خالد حين عرف ما جاء المثنى فيه عن الإشارة إلى ما قد يترتب من النتائج على مقاومة الفرس لجيش المثنى ، فقد يدعوهم انتصارهم إلى التفكير في استرداد نفوذهم في البحرين ، وما جاورها . فأما إن أعد الخليفة للحرب عدتها ، وجعل ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح فلا ريب أن العراق سيفتح أبوابه .

فأمر أبو بكر خالداً أن يسير العراق وأن يبدأ بالأبلة كما ندب عياض بن غنم لغزو الفرس من الشمال ، وأن يخضع في طريقه دومة الجندل ، التي كانت مرتدة عن الإسلام ، ثم يسير منها شرقا إلى الحيرة وأمرهما أن يرعيا صالح فلاحى السواد ، وألا يشركا في الغزو أحدا ممن ارتد ، ولا يكرها أحدا على المسير .

ولما كانت هذه هي الأوامر وكانت جنود خالد قد قل عددهم لكثرة من قتل منهم باليمامة ، ومن عاد منهم إلى قومه ، فقد طلب خالد إلى أبي بكر المدد ، فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمي ، وأراد أبو بكر بذلك أن يكون الجيش من الذين ثبت الإيمان في قلوبهم ، ولهم رغبة شديدة في نشر الدعوة .

موقعة ذات السلاسل " كاظمة " :

سار خالد بعد أن نظم جيشه باليمامة إلى العراق ولما بلغ حدوده التقى بالمثنى ومن معه ، وكانوا في انتظاره فقسم الجند كله ثلاث فرق ، ووجه كل فرقة منها في طريق على أن يلتقوا جميعا بالحفير [١] على مقربة من كاظمة في طريقهم إلى الأبلة .

فأما الفرقة الأولى وعلى رأسها المثنى فسارت قبل خالد بيومين ، وأما الفقرة الثانية وعلى رأسها عدي بن حاتم الطائي ، فسارت قبله بيوم ، وسار خالد في المؤخرة . وكان خالد قد بعث قبل ذلك إلى هرمز أمير هذه المنطقة بكتاب يقول فيه : أما بعد فاسلم تسلم أو أعقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . وعندما تناول هرمز كتاب خالد كتب إلى أزدشير ملك فارس يخبره بالخبر ، وجمع جموعه وسار كاظمة ليلتقي خالدا ، فسمع أنهم تواعدوا لقاء في الحفير ، فسبقهم إليه ونزل على الماء فيها وقدم خالد عليهم ، وأمر بالنداء في الجند لينزلوا ، ويحطوا أثقالهم ، وتحدث إليه جماعة من أصحابه أنهم نزلوا على غير ماء ، فقال لهم : حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء ، فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين .

---

(١) الحفير : ماء بالقرب من الخليج الفارسي على بعد ٦ كم من البحرين .

فحطوا أثقالهم ، وأرسل الله سحابة هطلت وراء صفوف المسلمين فقويت قلوبهم ، ووقف هرمز في جنوده وعلى ميمنته وعلى ميسرته أميران من البيت المالك في فارس هما قباذ وأنو شجان ، ودعا هرمز خالدا إلى المبارزة، وأوصى أصحابه أن يغدروا به . فبرز إليه خالد وترجلا وتضاربا بالسيف فاحتضنه خالد ، فهم أصحاب هرمز بالجملة على خالد ، فلم يمنع ذلك خالدا من قتله ، وخف القعقاع بجماعة إلى الغادرين وقتلوهم قبل أن يقتربوا من خالد، وانهزم أهل فارس وفر الأميران فيمن بقى من جيش الفرس وطاردهم المسلمون ، وركبوا أكتافهم إلى الليل ، وبلغ المسلمون الجسر الأعظم من الفرات حيث تقع البصره اليوم .

وتسمى هذه الواقعة ذات السلاسل ؛ لأن هرمز قرن فريقا من الفرس بالسلاسل ليمنعهم من الفرار ، ويسميها آخرون غزاة كاظمة ، نسبة إلى أقرب قرية من المكان الذي وقعت فيه .

وبعد أن تم النصر في كاظمة أمر خالد معقل بن مقرن بالسير إلى الأبلة ليجمع مالها وسبيها ففعل وأمر المثنى أن يلاحق المنهزمين من جيش الفرس، فسار في أثرهم ، وكأنما يريد ألا يفوتهم قبل أن يبلغ المدائن ، ومر المثنى في أثناء مطاردته جيش الفرس بحصن تقيم فيه أميرة فارسية يطلق عليه مؤرخو العرب " اسم حصن المرأة ، فترك أخاه المعني بن حارثة على حصار هذا الحصن ، وسار هو فحاصر في حصنه ، وقتل من فيه وأخذ أموالهم ، وعلمت المرأة بما أصاب زوجها فصالحت المعني وأسلمت وتزوجته .

موقعة المذار أو المثني :

كان أزدشير حين جاءته رسالة هرمز دعا إليه قارن بن قريانس أحد الأمراء الذين تم شرفهم ، وجعله على رأس قوة سارت مدداً لجيش هرمز ، وبينما هو في طريقه إليه علم ما آل إليه أمر هرمز والفرس . فجمع فلول الجيش المنهزم وأقام بالمذار على بعد ٩٦ ميلا شمالي البصرة على ضفاف قناة تصل دجلة بالفرات .

وكان المثنى كما رأينا لا يزال يطارد فلول المنهزمين فأيقن أن انفراد جيشه بلقاء هذه القوة العظيمة قد يجر عليه الهزيمة ؛ فاختار مكانا قريبا من المذار أنزل جنده فيه وكتب إلى خالد بالخبر فأسرع خالد لنجدته ، وأدركه في الوقت كان قارن يعد فيه العدة للقاء المثنى . فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا ، فانهزم الفرس هزيمة منكرة ، وقتل فيها قائد جيشهم قارن كما قتل أيضا أنوشجان وقباذ حتى بلغ عدد قتلاهم ثلاثين ألف سوى من غرق وفر المنهزمون ومنعت المياه المسلمين من طلبهم .

معركة الولجة [١] :

بعد موقعة المذار رأى ملك فارس أن يحارب العرب بالعرب ؛ لأنهم أعلم بخططهم فجمع جيشا من نصارى بكر بن وائل وغيرها من القبائل التي ترى أن تبعتها للفرس أفضل من خضوعها للمسلمين ، وكان هذا الجيش بقيادة

---

(١) الولجة : في شمال المذار قرب ملتقي دجلة والفرات .

الأندرزغر ، ولكي لا يكون للعرب كل فخار النصر أقام قائدا من أقدر قـواده بهمن جاذويه على جيش من الفرس ، ووجهه في أثرها .

ولما علم خالد بهذا الجمع ترك حامية فيما فتحه من الدلتا وتقدم للقاء هـذا الجيش ورتب الهجوم عليه من ثلاث جهات من الأمام ومن الخلـف بواسـطة كمائن جعلها خلف الجيش الفارس ونازل خالد العدو من الأمام منازلة شـديدة . وظن الفريقان أن الصبر قد نفد وأن المعركة لن تنتهي إلـى غايـة ، وإنهـم لكذلك إذ خرج كمين المسلمين في ناحيتين من وراء الفرس في حين كان خالـد يشتد في الضغط عليهم من الأمام ، فانهزم الفرس ومن معهم مـن العـرب ، ومضى الأندرزغر في طريقه منهزما حتى مات عطشا في الفلاة .

وقد قتل في هذه الموقعة كثير من قبيلة بكر ، وسبى خالد ذرية المقاتلـة، وأعطى الأمان للفلاحين ، فصاروا أهل ذمة ، وغنموا خـلاف ذلـك مغـانم كثيرة.

معركة أليس [١] :

غضب نصارى القبائل الساكنة في العراق من العرب لمقتل عـدد كبيـر من بني بكر في الولجة ، فاستحثوا ملك الفرس أزدشير للقيام معهـم للانتقـام من المسلمين . واجتمعت الجموع من بني بكر وعجل وتيم الـلات وضـبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة بأليس ، فكتب أزدشير إلـى بهمـن جاذويـة

(١) أليس : تقع في منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة .

يأمره بالقدوم على نصارى العرب لمساعدتهم ففعل ، وأمر جابان أحد قواده بالتوقف عن المحاربة إلى أن يقدم عليه ، فذهب إلى أزدشير ليشاوره فيما يفعل فوجده مريضا ، فأقام بالبلاط الفارسي ينتظر .

ولما علم خالد بتجميع العرب والفرس بأليس ، سار إليهم بعد أن ترك حامية قوية في الحفير لتحمي ظهره ، ولما اقترب خالد من أليس دعاهم إلى القتال دون انتظار فأسرع العرب للقائه ، وبرز إليه منهم مالك بن قيس أحد قوادهم فقتله ، والتحم الجيشان واستبسل المسلمون ، وتوالت هجماتهم ، ولم يستطع الفرس الثبات ففروا ورأى خالد فرارهم ، فأمر مناديه أن ينادي : الأسر الأسر لا تقتلوا إلا من امتنع ، ولحق فرسان المسلمين بالفرس وأنصارهم من العرب ، وجاءوا بهم أفواجا أسارى يساقون سوق الغنم ، وكان خالد قد نذر إن منحهم الله أكتافهم أن يجري نهرهم بدمائهم ولما اجتمع الأسرى أمر خالد بضرب أعناقهم في النهر بعد أن صد الماء عنه ، وأقام المتوكلون بضرب أعناقهم يوما وليلة والنهر لا يجري دما كما نذر خالد ، فقال القعقاع وغيره : لو قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم النهر فأرسل عليها النهر تبر يمينك ففعل فجرى كأنها نهر من الدماء . ومن يومئذ سمي هذا النهر " نهر الدم " .

وبلغ عدد القتلى في هذه المعركة سبعين ألفا . وبهذه الموقعة انكسرت شوكة الفرس ، وخارت قوة الدولة الفارسية وخمدت فيها روح المقاومة ، إلا أن حلفاءهم من العرب صاروا يهددون خط الرجعة ، ويضايقون خالدا ، فقرر

إخضاع كل المنطقة التي تسكنها تلك القبائل غربـي الفـرات ، ولمـا كانـت الحيرة هي عاصمة هذه المنطقة ، فصمم خالد على الاستيلاء عليها .

فنهض خالد إلى " أمغيشيا " في طريقة إلى الحيرة ، ولما سمع أهالي هـذه البلدة بقدوم خالد هربوا منها ؛ فدخلها المسلمون وأخذوا كل مـا كـان فيهـا ، فكان نصيب الفارس ١٥٠٠ درهم سوى النفل الذي نفله خالد لأهـل الـبلاد . وبعث خالد بالأنباء وبخمس الفيء والسبي إلى أبي بكر .

فتح الحيرة :

ثم سار خالد من أمغيشيا إلى الحيرة عاصمة المناذرة ، وهي تقع غربـي الفرات ، وحمل الرجال والأثقال في السـفن فخـرج إليـه مرزبـان الحيـرة " الحاكم" بعد أن أرسل ابنه فقطع ماء النهر عن السفن بسد الفـرات ممـا أدى إلى جنوح السفن ، فنهض خالد بجيشه نحو ابن الحاكم ، فقتله على الفـرات ، وقتل معه كثيرا من أصحابه ، وأطلق الماء إلى السفن . ثم خالد إلـى الحيـرة فهرب المرزبان ومن معه من الفرس فزعا لما علموا بموت كسري وقتل ابـن المرزبان .

ولم يثن فرارهم أهل الحيـرة عـن التحصـن بقـلاع المدينـة الأربـع وبأسوارها ، وعن اتخاذ العدة للدفاع عنها ، فألقى خالد عليها الحصار ، وبعـد مناوشات قصيرة تمكن جيش خالد من دخولها وعهد بحصار القصر الأبـيض وفيه إياس بن قبيصة إلى ضرار ابن الأزور ، وبحصار العديسيين وفيهم عـدي

العبادي إلى ضرار بن الخطاب ، وبحصار قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح إلى المثنى بن حارثة ، وبحصار قصر ابن مارزن ، وفيه ابن أكال إلى ضرار بن عقرن المزني .

وأعمل المسلمون القتل في أهل الحيرة فافتتحوا الدور والديار وخرج رؤساء القصور إلى خالد مستسلمين ، ووقعوا مع خالد معاهدة الصلح على أن يدفعوا في كل عام تسعين ألف درهم وأهدوا خالداً هدايا فاخرة . فبعث خالد بها وبنبأ الفتح والمعاهدة .

وكان الاستيلاء على الحيرة أول خطوة سياسية للمسلمين خارج الجزيرة العربية ، وحط خالد رحاله فيها ، واتخذها مركزا للفتوحات خارج بلاد العرب ، ونتج عن ذلك أن قدم بعض عمال الفرس فروض الطاعة لخالد بن الوليد .

ومن أعظم ما يؤثر عن خالد أنه لم يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ؛ متبعا في ذلك وصايا الخليفة - ﷺ - ؛ الأمر الذي ترتب عليه أن فضلوا حكم المسلمين على حكم رؤسائهم الذين كانوا يعتبرونهم عبيداً، ويمتصون دماءهم ، وهذا دون شك من أسرار انتصار المسلمين في العراق ، مضافا إلى ذلك معارة خالد وتفوقه . هذا إلى ما كان بينهم من خلافات حلت عرى وحدتهم التي تعتبر من أهم مقومات القوة ، فكانت النتيجة أن تبدد نظامهم وفضلوا الإسلام فدخلوا فيه جماعات ، وأمنوا به شرعة ومنهاجا في حياتهم ، وعملوا على نشره فيما بعد - وظهر من بينهم علماء

ملأوا الدنيا علما ، وأضاءوا للعالم ما كان خافيا عليهم وبددوا ظلمات الجهل ، وأخرجوا من ظلمات العصور الوسطى إلى نور العلم والحضارة شعوبا وجماعات .

فتح الأنبار :

كانت الأوامر التي صدرت من أبي بكر منعت من التقدم حتى يتقدم عياض بن غنم من دومة الجندل ، ويزحف على العراق من الشمال . فرأى خالد أن يوجد عملا لجنوده في تلك الفترة فسار بجيشه حتى بلغ الأنبار على الفرات غرب بغداد ، وبينهما عشرة فراسخ فحاصرها . وكان أهلها قد خندقوا على أنفسهم وتحصنوا وأشرفوا من أعالي فأمر خالد جنوده أن يرشقوهم بالنبل ، ففعلوا وأصابوا في عدوهم نحو ألف عين من عيون أهل الأنبار فقيل: ذهبت عيون أهل الأنبار ، وسميت الموقعة " بذات العيون " مع ذلك لم يسلموا، فأمر خالد بنحر الإبل التي كلت من السير وأصبحت ضعيفة ، وألقيت جثثها في أضيق مكان من الخندق واقتحم الجند من فوقها إلى أسوار فحطموا أبوابها .

ولما رأى ذلك قائد جند الأنبار طلب من خالد الصلح على أن يخلي خالد سبيله ليس معه من المتاع شيء فأجابه إلى ما طلب وتسلم خالد الأنبار وصالحه من حولها .

وقصد خالد بعد ذلك عين التمرة ففتحها ، ثم خرج خالد في جنده يسرع السير إلي دومة الجندل ، وكان بين دومة الجندل وعين التمرة ثلاثمائة ميل ، قطعها خالد في أقل من عشرة أيام ، اجتاز خلالها بادية الشام وصحراء النفوذ منحدرا من الشمال إلى الجنوب . فلما كان قريبا من دومة الجندل ، وتسامعت القبائل بمقدمة ذعرت واختلف زعماؤهم ، فمنهم من يريد أن يقاتل خالد ومنهم من يريد صلحه ، فكان ذلك أول الهزيمة التي حاقت بهم ، فقال لهم رئيسهم أكيدر بن عبد الملك : أنا أعلم الناس بخالد ، لأحد أيمن طالعا منه ، ولا يرى في وجه خالد قوم قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم، فأبوا عليه ، فقال : لن أمالئكم على حربه فشأنكم ، وخرج عنهم ، وسمع خالد بمسيره فأرسل في طريقه عاصم بن عمرو ، فأخذه أسيرا وأخذ ما كان معه ، وسار خالد فجعل دومة الجندل بين عسكره وعسكر عياض وكان الجودي بن ربيعة " الرئيس الثاني " وقد بقى على أهل دومة ، في حين ترأس على كل قبيلة من القبائل التي أمدت دومة الجندل زعيمها . وقد ضاق حصن دومة بهذا العدد ، فأقام سائر القوم حوله يحيطون به .

واستفتح الفريقان القتال ، فلم يلبث الجودي أمام خالد إلا قليلاً ، ثم أخذه خالد أخذاً ، وهزم عياض من يليه من جند القبائل . عند ذلك أسرع القوم جميعا إلى الفرار يريدون دخول الحصن والاحتماء به فلم يحملهم ، فلما امتلأ أغلقوا الباب دون أصحابهم ، فبقوا حوله ، فأخذهم خالد فقتلهم حتى سد باب الحصن وقتل الجودي ، ثم أخذ الحصن قهرا فقتل المقاتلة وسبى الذرية والنساء وباعهم ، واشترى خالد ابنة الجودي ، وأقام معها بدومة الجندل مدة ،

ثم عاد بعدها إلى الحيرة حين بلغه تحرك العجم لاسترداد ما فتح من بلادهم في العراق منتهزين فرصة غيابه ، وساعدهم على ذلك بعض العرب غضبا لعقه بن أبي عقه الذي قتله خالد في عين التمر .

موقعة الفراض :

سار خالد إلى عرب الجزيرة الذين ثارت حميتهم لمن قتل من العرب بعين التمر وجاءهم المدد من الفرس ، ولكن الله عز وجل هزمهم شر هزيمة، وقتل قائد جيش الفرس ، وهي ما تعرف بوقعة الحصية والخنافس ، ثم سار خالد إلى الفرض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة ، وكان بها جمع عظيم من الفرس والروم والعرب اتفقوا جميعا على حرب المسلمين ، وعبروا نهر الفرات ، فقاتلهم خالد ومن معه المسلمين قتالاً شديداً ، حتى انهزم جيش الشرك وأمر خالد المسلمين ألا يرفعوا عنهم السيف ، فقتل في المعركة مائة ألف ، وبعدها رجع خالد إلى الحيرة[1] ؛ ليستقر بها منتظراً أوامر الخليفة .

ثم جاء كتاب يأمر خالد بأن يسير حتى يأتي جموع المسلمين في اليرموك ، فاستخلف خالد على جيش العراق المثنى بن حارثة الشيباني ، وسار هو إلى الشام ؛ وكان ذلك على غير ما كان يشتهي خالد ، فقد كان

---

(١) في أثناء رجوع خالد بجيشه إلى الحيرة أمر خالد عاصم بن عمرو أن يسير بهم على مهل ، وأظهر أنه في الساقة ، وخرج في نفر من أصحابه يسرع الخطا إلى مكة سراً ، وحج ورجع ودخل الحيرة حين دخول ساقة الجيش من الفراض إليها . وسار خالد في طريق من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه .

يرغب أن يبقى في العراق ليتم فتحه ويذهب إلى المدائن فينقض على كسرى في عاصمته ، ولكنه وهو الجندي المطيع لم يسعه إلا أن يسارع بالسفر إلى الشام ويبادر بامتثال أمر الخليفة .

أبو بكر والروم في الشام :

لقد كان أول أمر المسلمين مع الروم هو كتاب رسول الله - ﷺ - إلى هرقل ملك الروم ، وقد استيقن هرقل بنبوة الرسول وكاد أن يسلم ؛ لولا أنه خشي على نفسه وعلى ملكه من قومه ، خاصة البطارقة ورجال الدين المسيحي ، فآثر العاجلة على الآجلة ولم يسلم .

كما أرسل النبي - ﷺ - كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان بالبلقاء من أرض الشام يدعوه فيه إلى الإسلام فما كان منه إلا أن سارع بقتل رسول رسول الله الحارث بن أبي عمير الأسدي على يد شرحبيل بن عمرو الغساني والي مؤتة ، كما هدد بغزو النبي ، ولكن جاءت إليه الأوامر من قيصر الروم ينهه عن ذلك .

ولهذا جهز النبي - ﷺ - جيشا في السنة الثامنة من الهجرة بقيادة زيد بن حارثة ، ودفعه إلى الشام ، فوصل إلى مؤته ، وجمع له الروم جمعا كثير يزيد على المائة ألف بخلاف عرب الشام ، ودارت المعركة بين المسلمين وبين الروم وعرب الشام عند مؤته ولم يكن هناك كما هو واضح تكافؤ بين الجيشين من ناحية العدد والعدة ، فاستشهد زيد فأخذ جعفر بن أبي طالب

الراية وقاتل حتى استشهد ، فأخذ الراية من بعده عبد الله بن رواحة فقاتل حتى استشهد أيضا ، ثم استلمها خالد بن الوليد ، فأخذ يناور ويحاور حتى انسحب ببقية الجيش ، ونجى المسلمون من موت محقق من أمام هذه الجموع الغفيرة من الروم وعرب الشام .

وفي السنة التاسعة تجهز الرسول الكريم لغزو الشام وأصر عليها رغم الظروف الصعبة التي مرت على المسلمين في ذلك الحين حتى سمي هذا الجيش بجيش العسرة . ووصل هذا الجيش إلى تبوك فمكث بها بضع عشرة ليلة ، ولم يجد جموعا للروم كما أشيع . فعاد بعد أن صالح يوحنا بن رؤية صاحب أيلة على الجزية وكذا صاحبي جرباء وازرح وكذلك صاحب دومة الجندل ، وقد آمن بذلك الحدود الشمالية للدولة الإسلامية ، وألمح بفعله هذا إلى ضرورة فتح الشام .

وفي السنة التي توفي فيها الرسول – ﷺ – " جهز سرية بقيادة أسامة بن زيد لتتوجه إلى قضاعة حتى يثأر لأبيه ولشهداء المسلمين في مؤتة . ولكنه – ﷺ – انتقل إلى جوار ربه قبل إنفاذ الجيش ، فأوصى بانفاذه .

ولما تولى أبو بكر الصديق الخلافة كان في مقدمة أعمال انفاذ جيش أسامة ، وسار أسامة حتى وصل إلى هناك وأوقع بقبائل من قضاعة وعاد سالما غانما .

ولما عقد أبو بكر الألوية في ذي القصة حيث وجه الجيوش الإسلامية إلى قتال المرتدين ومانعي الزكاة من بينها لواء لخالد بن سعيد بن العاص ، ووجهه إلى مشارف الشام ثم أمره أن يكون ردءاً للمسلمين بتيماء لا يفارقها إلا بأمره ولا يقاتل إلا من قاتله .

ولما علم الروم بذلك جهزوا جيشاً كبيرا من العرب التابعين لهم من لخم وجزام وغسان . وكان خالد كما وصفه عمر – ﷺ – مقداما محجاماً ، فلما رأى الجيش تجمع له نازلهم ، وتصنعوا الهزيمة له وانسحبوا ، فتتبعهم وأوغل في أرض الشام ، حتى وجد نفسه محاصرا هو ومن معه من المسلمين، واستطاع هو وبعض رجاله من الهرب ، وذهب ليطلب المدد من أبي بكر ، فنهره لمخالفته أمره حيث أقدم على الحرب وتوغل في أرض الروم بدون استئذان ، ولم يسمح له بدخول المدينة ، وعلى التو أرسل أبو بكر عكرمة بن أبي جهل إلى هناك فاستطاع عكرمة أن يناور ويحاور حتى خلص المسلمين من الحصار . ووقف بالجيش الذي جاء معه وبالجيش الذي كان مع خالد بن سعيد على الحدود ردءاً للمسلمين .

وقد أثار ما فعله الرومان وعرب الشام بجيش خالد بن سعيد حفيظة أبي بكر على الروم ، فبدأ يهتم بأمر الشام ، فأرسل أبو بكر إلى عمرو بن العاص بالقدوم إلى المدينة ، وكان واليا على سعدي وهذيل من قضاعة . وجهز أبو بكر أربعة جيوش سيرها إلى بلاد الشام ، كان على إحداها عمرو بن العاص، ووجهه إلى فلسطين ، وكان على الثانية شرحبيل بن حسنة ووجهه إلى

الأردن، وكان على الثالثة يزيد بن أبي سفيان ووجهه إلى البلقاء " دمشق " وكان على الرابعة أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح ووجهه إلى حمص . وكان عدد هذه الجيوش حوالي ثلاثين ألفا قبل أن يأتيهم خالد بن الوليد . وشيع أبو بكر الجيوش الأربعة وأوصاهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراهم .

سارت الجيوش الإسلامية حتى وصلت الشام ، ونزلت الأماكن التي عينت لها ، فنزل عمرو بن العاص " العربه " ، ونزل أبو عبيدة الجابية بعد أن أخضع من قاومه من عرب مآرب وصالحهم ، ونزل شرحبيل الأردن ، ونزل يزيد البلقاء ، ولم تجد هذه الجيوش مقاومة تذكر في أول الأمر للأسباب الآتية :

أولاً : أن الروم كانوا قد منعوا عن العرب المقيمين على أطراف الشام ما كانوا يدفعونه من المال نظير القيام بحماية حدود الإمبراطورية من جهة بلاد العرب ؛ بسبب خلو خزائنهم من المال نتيجة عوامل ثلاثة :

١- الحروب التي استمرت زمنا طويلا مع الفرس .

٢- الثورات الداخلية الكثيرة .

٣- إسراف الأباطرة ورجال القصر الإمبراطوري في وقت قلت فيه موارد الدولة . فلم تعد تلك القبائل تعتبر نفسها مرتبطة مع الإمبراطورية ،

ولذلك قابلوا الجيوش العربية الإسلامية بالترحيب بل وكان ينضـــم الكثيـــر منهم إليها .

ثانياً : ساعد أهل الشام من غير العرب المسلمين على فـــتح بلادهـــم بســـبب الضرائب الفادحة التي كان يفرضها عليهم الرومان آملين أن يجدوا فـــي حكم المسلمين ما لم يجدوه في عهد السادة الرومان من تخفيف للضرائب التي أثقلت كاهلهم ونشر العدالة والمساواة فيما بينهم .

ثالثاً : عدم اكتراث الرومان بجيوش العرب ؛ فقد ظنـــوا فـــي أول الأمـــر أن العرب لن يتقدموا إلى أكثر مما تقدم إليه رسول الله – ﷺ – مـــن قبـــل غزوة تبوك ، وأنهم عائدون أدراجهم لا محالة . وكاد ظنهم يتحول إلـــى يقين لما هزم خالد بن سعيد وآمنوا أن كل من يحـــاول دخـــول بلادهـــم سيكون مصيره كمصير خالد فاطمأنوا .

ولكن لما رأوهم تقدموا إلى المواقع التي ذكرناها انزعجوا وكتبـــوا إلـــى هرقل وكان بالقدس فأراد مصالحتهم إلا أن الرومان أبوا الصلح مع المســـلمين فترك هرقل أمر الصلح جانبا ، وأمر بإعداد جيش كبير بلغ عدده فـــي بعـــض الروايات إلى مائتي ألف ، وسار بهم إلى حمص .

ونظراً لتفرق جيش المسلمين في أربع جبهات انتهزهـــا هرقـــل فرصـــة للقائهم وهم متفرقون ، فهي فرصة يجب ألا يضيعها .

ولما عرف قواد الجيش الإسلامي بقوة العدو تراسلوا ، وكان رأي عمــرو بن العاص أن يجتمعوا ؛ لأنهم لو اجتمعوا فلن يغلبوا عن قلة ، فــاتفقوا علـــى ذلك ، وتواعدوا على التجمع في " اليرموك " ، ثم كتبوا إلى أبي بكــر بخبــر الروم وكثرة عددهم ، وطلبوا منه المدد ، فوافق أبو بكر على رأيهم .

أما هرقل فقد أمر قواده بالتجمع في مكان يســمى (الواقوصــه) علـــى ضفة اليرموك . وكان مكانا ضيقاً حتى أصبح الموقع أشبه بخنــدق للــروم . ولما نزل الروم منزلهم هذا ، انتقل المسلمون بحذائهم في مكان لم يكن للــروم طريق إلا عليه ، فقال عمرو بن العاص : أبشروا فقد حصرت والله الــروم ، وقلما جاء محصور بخير .

وبقى المسلمون على ذلك ، لا يقدرون من الروم على شيء نحــو ثلاثــة أشهر من صفر سنة (١٣هـ) إلى نهاية ربيع الثــاني ، والــروم كــذلك لا يقدون على شيء من المسلمين ، فإذا خــرج الــروم ردهــم المســلمون إلـــى موقعهم، وإذا غامر المسلمون بــالهجوم لــم يلبثــوا أن يتراجعــوا مخافــة أن يحصرهم الروم بينهم .

فوصلت أنباء هذه الحالة المملة إلى أبي بكر ففكر فيهــا وكــان لا يــدور بخلده أن يقف أبو عبيدة وزملاؤه هذا الموقف ولا يعتقــد أن البــدريين الــذين غلبوا على قتلهم أهل مكة من المشركين يطيقون هذا المقــام بــإزاء الــروم لا يقتلون ولا يقتلون ، ورأى أن المسلمين لم ينتصروا يوما بكثرة عددهم ، وإنمــا انتصروا دائما بمهارة القيادة وبقوة الإيمان ، والإيمان لا ينقص جيوش الشــام

وفيها السابقون الأولون مـــن أصـــحاب الرســـول - ﷺ - مـــن المهـــاجرين والأنصار . لا بد وأن تكون العلة في القيادة فهذا الموقف يحتـــاج إلـــى القائـــد الجسور الذي لا يعرف الهوادة ولا إحجام ، ولا يهاب الموت ، وأبـــو عبيـــدة رجل رقيق القلب وابن العاص على دهائه في السياسة هيـــاب غيـــر مقـــدام ، وعكرمة مداور مقدام إلا أنه تعوزه دقة التقدير ، وسائر القواد لـــم يخوضـــوا بعد المعارك الكبرى ، ثم إن هؤلاء جميعا لا يقرون لواحد منهم بالتفوق علـــى سائرهم تفوقا يكفل بسلطانه وحدة القيادة .

تكشفت هذه الحقيقة لأبي بكر جليـــة واضـــحة ، فقـــال لأصـــحابه : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد . فكان أن بعث – كمـــا ذكرنـــا سابقا – واستحثه في السير لإغاثة المسلمين بالشام ، وكان أبو بكر يعرف عـــن خالد الإقدام بل الغلو في الإقدام وكان مطمئنا إلى أن المســـلمين حـــين ينضـــم إليهم خالد لن يغلبوا عن قلة ، إذا أخلصوا النيـــة ، ونصـــحوا لله ورســـوله ، وجاهدوا عدوهم صادقين .

وقد وصل خالد إلى الشام بعد مغامرة خطيرة في طريقـــة الـــذهاب مـــن العراق إلى الشام ، فلم يسلك خطا مستقيما بالجيش ولكنه أخذ طريقـــا منحنيـــا نحو الجنوب في الصحراء ، وأعد الأمر عدته في هذه الرحلة الشـــاقة وســـط الصحراء الجدباء المهلكة فلا ماء فيها ولا زرع ، فظمأ الإبل ، ثم سقاها علـــلا بعد نهل ، ثم صر آذانها وشد مشافرها ، واستكثر من المـــاء مـــا اســـتطاع ، فكان إذا ظمأت الخيل والمطايا ، نحر بعض هـــذه الإبـــل ، واســـتخرج مـــن

بطونها الماء فسقاها منه ، وطعم الناس من لحومها ، وهذا يــدل علــى مــدى عبقرية خالد ؛ لأنه لو سلك طريقا مباشراً لاصطدم مع الــروم فــي ثغــورهم المتفرقة وسط البادية ، وأنهك قواته ، وأضاع على المسلمين المجتمعــين فــي اليرموك فرصة وصوله إليه فكان حريصا على أن يسلك بالجيش طريقا يبعــده عن الاحتكاك والانشغال بجيوب صغيره ؛ لأنه يريد المعركــة الكبيــرة التــي سيفصل الله فيها بين الكفر والإيمان .

ووصل خالد بن الوليد بمن معه إلى بلاد الشام ، وفتح بها بعض الــبلاد، وما زال في سيره حتى طلع على المسلمين في ربيع الآخر . وصادف فــي أن جاء القائد الروماني باهان ومعه مــدد لجيــوش الــروم ، ومعــه الشمامســة والقسيسون والرهبان يذمرون الروم ويحرضونهم علــى القتــال ، فاستبشــر المسلمون بخالد .

موقعة اليرموك :

عندما وصل خالد وجد المسلمين يقاتلون الروم متســاندين ويصــلي كــل أمير بجنده على حده . فعسكر هو أيضا على حده ، وصلى بجنــده ، وبــدأت مناوشات كان الظفر فيها للمسلمين ، فقد ألجؤوا الروم إلى خنادقهم ، فلزموهــا مدة شهر . كان القساوسة والرهبان يحرضونهم فيه علــى قتــال المســلمين ، وينعون لهم النصرانية إذا لم يقض على هؤلاء العرب البغاة القضاء الأخير .

وخلال هذه المدة كان خالد بن الوليد يدرس الموقف فوحده بالغا غاية الدقة ، فالمسلمون عددهم أربعين ألف في بعض الروايات أو ست وأربعين ألفا في بعضها الآخر ، في حين أن الروم يبلغون أربعين ومائتي ألف في رواية ابن الأثير ، وخمسمائة ألف في رواية الواقدي ، كما أن عدة الروم تفوق عدة المسلمين ، والمسلمون يقاتلون على تساند ، والروم متحدون ، ورأى أن المسلمين لن ينجحوا في قتال الروم على هذه الصفة ، ولابد على المسلمين من أن يتحدوا .

وبينما كان خالد يفكر ، إذ وصلت الأنباء إلى الأمراء أن الروم سينازلونهم في غدهم ، وأن باهان صفهم للقتال صفا لم يسمع أحد من قبل بمثله ، عند ذلك ريعوا ، واجتمعوا يتشاورون ما يصنعون ، فأدلة خالد برأيه في التوحد ، وأن يتعاود الأمراء القيادة ، وطلب منهم أن يكون أولا .

ولم يتردد القوم في إجابة خالد إلى ما طلب بعد أن سمعوا كلامه ، وما لهم لا يؤمرونه اليوم وهذه المعركة ما هي إلا واحدة من المعارك التي تطاولت ثلاثة أشهر ، والتي توشك أن تمتد حتى يتداول كل واحد منهم إمرة للجيش مرات ، وزادهم تسليما لإمرته ما بلغهم من تجهز الروم ، فتركوه يتلقى الصدمة الأولى .

عبأ خالد الجيش ، تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك ، فقسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين أو أربعين كردوسا (فرقة) – والكردوس القطعة من الجيش ، وهو ما يزيد على الألف قليلا .

وكون خالد القلب من ثمانية عشر كردوسا وعليه أبو عبيدة وكانت الميمنة عشرة كراديس وعليها عمرو بن العاص ، وفيها شرحبيل ابن حسنة ، وكذلك كان عدد الميسرة ، وعليها يزيد بن أبي سفيان وكان على كل كردوس قائد شجاع يأتمر بأمر قائد القلب أو الميمنة أو الميسرة ، وكان هؤلاء القادة من أهل النجدة والغناء من أمثال : القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل ، وعياض بن غنم وهاشم بن عتبة ، وعبد الرحمن بن سيف الله .

وبعد أن انتهى خالد من تعبئة الجيش أمر مجنبتي القلب أن ينشبا القتال وكان عليها القعقاع وعكرمة ، فخرجال وأنشبا القتال والقعقاع يرتجز .

يا ليتني ألقاك في الطراد ** قبل اعزام الجحفل الوراد

وأنت في حلبتك الوراد

وعكرمة يجاوبه

وقد علمت بهنكة الجواري ** أني على مكرمة أحامي

والتحم الناس وتطارد الفرسان ، وخرجت الألسن وصمت الآذان إلا من قعقعه السيوف وزئير الفرسان . ويقال أنه قد خرج في هذا الوقت من المعمعة قائد القلب من جيش الروم ، ويدعى جرجة بن توذر – أو جورج بن ثيودور – وكان يعرف العربية ونادى ليخرج إلى خالد ، فخرج إليه فوافقه بين الصفين حتى أعناق دابتها ، وقد أمن كل واحد منهما صاحبه فقال جرجة : يا

خالد أصدقني ولا تكذبني ، فإن الحر يكذب ولا يخادع هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسل على قوم إلا هزمتهم ؟ ، قال لا . قال : ففيم سميت سيف الله ؟ ، فقال له : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه - ﷺ - فدعاني فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله هداني فتابعته فقال : أنت سيف الله سله على المشركين ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين ، قال : صدقتني ، ثم سأله جرجة عن بعض مبادئ الإسلام ، فأجابه خالد بما شرح الله صدره لاعتناق هذا الدين فاعتنقه ، وقلب ترسه وانتظم في جيوش خالد يقاتل قومه الروم ، فقتل عصر ذلك اليوم ، وما صلى إلا ركعتين .

ولما مال ذلك القائد مع خالد ، ظن الروم أنها من قائدهم حيلة فحملوا على صفوف المسلمين حملة أذالتهم عن مواقفهم فبدت الغيرة الدينية في قلب بعض الصحابة حتى قال عكرمة بن أبي جهل : قاتلت رسول الله - ﷺ - في كل مواطن وأفر اليوم ؟ ثم نادى : من يبايع على الموت فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في نحو أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم . واندفع هؤلاء الأربعمائة الذين بايعوا على الموت على فيالق الروم هجمة رجل واحد ، مستميتين في سبيل ربهم ، وقد تجلى لهم وجهه الأكرم وزلزلت الهجمة الروم ، وبدأوا يرتدون ، ورأى خالد ارتدادهم فأمر جيشه كله بالتقدم ، واندفع ابن الوليد في مقدمته يهوي بسيفه على أعدائه ، فيخطف أرواحهم خطفا ، ودام القتال بين الفريقين على شدته النهار كله .

وكان من حذق خالد أن فصل الخياله عن الروم من المشاة ثم أوسع لهم الطريق إلى الهرب ، ثم على ليبطش بقواته على مشاة العدو المحصورين في المكان الضيق . ساعد على هزيمتهم أن الروم قد ربطوا جنودهم بالسلاسل والحبال خوفا من فرارهم مما أدى إلى عدم قدرتهم على الحركة ، فلما طاردهم المسلمون وأرغموهم على الهرب مات عدد كبير منهم غرقا في النهر أو التردي في الخندق ، وكان يكفي أن يتردى واحد ليجر وراءه كل من ربط به .

وتراجعت الروم وزحف خالد حتى تصافحوا بالسيوف واشتد القتال وحمى الوطيس حتى صلى المسلمون الظهر والعصر إيماءً ، وتضعضعت قوة الروم ، ونهض خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم ، وخرجت خيل الروم تشتد بهم في الصحراء وتطرقت بدداً ، وهنا أقبل خالد والمسلمون وشددا على من بقي من المشاة ، فانقلبوا على وجوههم كأنما هدم بهم حائط ووقعوا في خندقهم فاقتحمه عليهم المسلمون ، واستمر القتال هزيعا من الليل حتى تم النصر للمسلمين بعد أن أصيب من المسلمين ثلاثة آلاف ، منهم كثير من أهل النجدة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

وتعتبر هذه المعركة حاسمة في التاريخ الإسلامي فقد غيرت وجه الحياة في المنطقة سياسيا واجتماعيا وثقافياً وأخذت حياتها تسلك سبلا أخرى ؛ من أهمها الحرية والتخلص من الذل والعبودية التي كانت من أهم مظاهر الحياة للشعوب التي كانت ترزح تحت قسوة أسيادهم من الحكام . كما شدت من

سواعد المجاهدين المسلمين ومن عزائمهم فانساحوا بعدها في الأرض يفتحـون وينشرون الإسلام ، كما كان لها أيضا الأثر العميق في نفوس الـروم ، حيـث أدخلت في قلوبهم الرعب ، وأصبحوا لا يقدرون على لقاء الجـيش الإسـلامي إلا وهم يوقنون بالهزيمة .

وهذه كانت خاتمة الأعمال الحربية في عهد أبي بكر الصديق – ﷺ – .

ثالثاً : جمع القرآن الكريم :

من أعظم مآثر أبي بكر الصديق - ﷺ - ، في خلافته جمعه للقرآن الكريم . ولكن ومع هذا الدور العظيم الذي اضطلع به أبو بكر الصديق إلا أن عمر بن الخطاب - ﷺ - هو الذي أشار لأبي بكر بأن يجمع القرآن الكريم ، وذلك قبل أن يحدث ما حدث في الكتب السماوية السابقة - التوراة والإنجيل - من ضياع وتحريف وتزوير إما بإهمال أصحابها أم بسوء النية من أعداء الدين ، وخصوصا وقد استشهد في حياة الرسول - ﷺ - سبعون رجلا من حفظة القرآن الكريم في بئر معونة ، ثم استشهد حوالي مئتان وألف منهم في معركة اليمامة .

وقد رفض أبو بكر في البداية أن يقوم بهذا العمل الخطير الذي لم يفعله الرسول - ﷺ - ، فأخذ عمر يراجع أبا بكر في هذا الأمر ويلح عليه حتى شرح الله صدر أبي بكر الصديق لذلك الأمر ، فكلف أبو بكر الصديق زيد بن ثابت بجمع القرآن الكريم ، قائلا له : إنك شاب عاقل ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله - ﷺ - ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فجمعه زيد بن ثابت بعد تمنع من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال ، وكان يشهد على كل آية رجلين إلا الآيتين الأخيرتين في سورة التوبة فإنه وجدهما مع خزيمة بن ثابت ولم يجدهما مع غيره ، فضم الآيتين في القرآن بشهادة رجل واحد ، والمعروف أن خزيمة هذا قد جعل الرسول شهادته بشهادة رجلين ، ثم رتب ما جمع على نحو ما رتب الرسول - ﷺ - سوره وآياته .

ثم كانت الصحف التي جمع فيه القرآن الكريم في بيت أبـي بكـر أثنـاء خلافته ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة من بعد أبي بكر نقلـت الصـحف في بيت عمر حتى توفاه الله ، ثم انتقلت في بيت حفصة أم المؤمنين بنت عمـر – رضي الله عنهم أجمعين [١] .

وهكذا أنجز في عهد أبي بكر أعظم عمل في حياة المسلمين وهـو جمـع القرآن [٢] في مكان واحد ، وهذه الصحائف التي جمعت بأمر أبي بكر لم تكـن معروضة على الناس ؛ إنما كانت محفوظة عند أبي بكر فعمر ، ثم حفصـة ، ولم يذع أمره بين الناس إلا حينما جاء عثمان ونسخ المصاحف ووزعها علـى الأمصار ، وكان عمدته في ذلك الصحائف التي جمعت في عهد أبي بكر .

ومن الواضح أن الجمع في عهد أبي بكر كان جمع القـرآن فـي مكـان واحد ، والجمع في عهد عثمان كان جمع الناس على مصحف واحـد حتـى لا يختلفوا في القرآن [٣] .

---

(١) الإمام البخاري : صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .
(٢) وقيل أنه ابتدأ الجمع في عهد أبي بكر وتم في عهد عمر .
(٣) حلمي عبد المنعم صابر : حياة الصحابة ، ص٧٨ .

سياسة أبي بكر الداخلية :

رغم قصر مدة خلافة الصديق - ﷺ - ، إلا أنه قد أنجز فيها من الأعمال الكثير والكثير .

ففي السنة الأولى من خلافته قضى على ردة الجزيرة ووحد الجبهة الداخلية ، وجمع الأمة الإسلامية على كلمة سواء . وفي السنة الثانية من خلافته دفع بجند الإسلام إلى بلاد الفرس والرومان ، من أجل الدفاع عن الدين والدفاع عن النفس ، وتبليغ الدين إلى هذه الأمم المحرومة من أنوار الهداية الصحيحة .

وإن الناظر في أعمال أبي بكر في جملتها ، سيجد أن جلها كان حروباً وقتالاً سواء في الداخل أم في الخارج ، وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول : أن عهد أبي بكر كان عهد جهاد دائم من أجل الإسلام .

ومع هذه الصفة التي اتصف بها عهد أبي بكر - ﷺ - إلا أننا نستطيع القول : بأنه بجوار هذا الجهاد كانت رعايته الدائمة لأمور الأمة الإسلامية بالداخل ، فكان في وقت واحد يرعى الجيوش في جبهات القتال ، ويزودها بالإمداد ، وبالنصائح بحيث لا يقطعون أمراً إلا بإذنه ، ويتعهد فرائض الله ، ويهتم بأمور البيوت ، ويرعى شئون الأمة من الداخل فيقيم لها الحدود ويسوي بينها في العطاء ، ويسعى في حوائج الناس وأوسعه ذلك .

وإذا كنا لم نلحظ في عهد أبي بكر تنظيمات داخلية جديدة مثلما فعل عمر بن الخطاب ، فإن سبب ذلك يرجع إلى قصر مدة خلافة الصديق ، وإلى عدم توسع رقعة الدولة الإسلامية بعد وإلى شغله الدائم بأمور الجهاد ورعاية الجيوش هنا وهناك .

وبجوار هذه الأسباب يوجد سبب رئيسي ، وهو أن أبا بكر - ﷺ - قرر أن يسير بالأمة كما سار بها رسول الله - ﷺ - وأنه أعطى العهد للأمة أنه يتبع ولن يبتدع فكان - ﷺ - ألا يصنع شيئا لم يصنعه رسول الله وهذا ما رأيناه حينما أشار عليه الصحابة بجمع القرآن الكريم بعد مقتل كثير من القراء في حروب الردة ، فكان رده كيف أصنع شيئا لم يصنعه رسول الله ، ولولا مراجعة الصحابة له ، وحرصهم على إنجاز هذا العمل لما أقدم عليه .

وقد بين - ﷺ - منهجه في الحكم ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه يا أيها الناس إنما أنا مثلكم ، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله يطيق ، إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات ، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعوني وإن زغت فقوموني .

هذا فوق أن المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت كان قريب العهد بأنوار النبوة ، والأمور بين الناس تسير على نحو طبيعي ، فالصلاة مقامة ، والأمانات محفوظة والحدود مرعية ، والناس متعاونون (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ، فالتكافل والتجابب والتآلف موجوده بين لحمة المجتمع ، لا فرق بين عبد وحر ، ولا بين عربي وعجمي إلا بالتقوى .

ومعنى ذلك : أنه لم يوجد في سلوكيات الناس ما يستدعي تنظيمات جديدة ، ولم يطرأ على أحوال المجتمع تغييرات تذكر حتى يحتاج الأمر إلى إعادة نظر في طريقة سياسة الأمة ، ومما يشهد لذلك أن أبا بكر أقام عمر للقضاء بين الناس ، فكان يمكث الشهر والشهرين ولا يأتيه أحد مما يدل على سلامة البنيان الداخلي ، وتوفر الأمن والأمان بين أفراد المجتمع .

وإذا كان هناك من أعمال تذكر على صعيد السياسة الداخلية في الدولة الإسلامية في عهد أبي بكر فإننا نذكر أربعة أمور ، نوضحها فيما يلي :-

الأول : مسألة فرض نفقة من بيت المال لولي الأمر تكفيه هو وأهل بيته وتغنيه عن السعي في طلب الرزق ، حتى يتفرغ لرعاية شئون الأمة ؛ لأن سياسة الأمة عمل يحتاج إلى تفرغ .

وقيل إن أبا بكر هو الذي فعل ذلك فترك تجارته ، وقال : ما تصلح الناس أمور التجارة ، وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر في شأنهم وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوما بيوم ، وكان يحج ويعتمر ، ثم فرضت له الأمة شيئاً معلوما يقوم بكفايته وقدره ثلاثة آلاف درهم سنويا ، وقيل إن الذي فعل ذلك هو عمر حينما وجده ذاهبا إلى السوق ، وقال عمر : والله ما يصلح هذا الذي دخلت فيه من أمور المسلمين من أمر تجارتك فقال أبو بكر : ومن أين أعول أولادي ، فقال عمر : تعال نفرض لك من بيت المال ما يكفيك أنت وأولادك . ووافق المسلمون على رأي عمر وفرضوا له في السنة ألفين وخمسمائة درهم ، فوجدها أبو بكر لا تكفي فزادوه خمسمائة أخرى ،

فصارت ثلاثة آلاف درهم ، وأعطوه ناقة حلوباً وغلاماً يخدمه ، وقطيفة يجلس عليها ، وما عليه يحج ويعتمر ورضي أبو بكر .

وأستقر هذا المبدأ في حياة الأمة ، وهو : ضرورة قطع جزء من بيت المال للحاكم بقدر كفايته هو ومن يعولهم حتى يتفرغ لرعاية شئون الأمة ، فلا تجتمع سياسة الأمة والضرب في طلب الرزق في قرن واحد .

الثاني : هو المساواة في توزيع الفيء والغنيمة على المسلمين فكان – ﷺ – يقسم ما يصل إليه من أموال على المسلمين بالسوية ، لا يفرق بين رجل وامرأة ولا بين حر وعبد ولا بين مهاجري وأنصاري ولا بين قريب للنبي في نسبة أو بعيد عنه في النسب . ولما كلمه بعض الصحابة في ذلك ، وقالوا له : كيف تسوى في العطاء بين السابقين في الإسلام والمجاهدين مع رسول الله وبين غيرهم ، قال أبو بكر : إن أجرهم على ذلك عند الله ، وإنما الدنيا بلاغ، وسنرى أن عمر خالف هذا المنهج ، فكان يقسم للناس على حسب قرابتهم من رسول الله وعلى حسب سبقهم في الإسلام ، وجعل الناس في العطاء درجات يتفاوت بعضهم فوق بع على حسب الفضل في الدين والقرب من رسول الله .

الثالث : هو جمعه القرآن الكريم . وقد سبق أن تكلمنا عنه باستفاضة .

الرابـع : استخلافه لعمر بن الخطاب - ﷺ - من بعده وفي الحقيقــة إن هــذا العمل من أبي بكر يعتبر من أجل الأعمال التي قدمها أبو بكر في حياتــه وهو في الوقت ذاته من أجل الخدمات التي قدمها أبو بكر للمسلمين بعــد وفاته ، وكان - ﷺ - ثاقب البصــر والبصـــيرة فـــي هــذا الأمــر . وسنتفيض في الأمر في خلافة عمر بن الخطاب .

وفاة أبي بكر - رضي الله عنه :

لم تطل خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - سوى عامين ، وحـــوالي ثلاثـــة شهور ، فقد تولى الخلافة في ١٣ ربيع الأول سنة إحدى عشرة مـــن الهجـــرة النبوية وتوفي على أرجح الأقوال في عشية يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة (١) وكان عُمْره عند وفاته ثلاثـــا وســـتين سنة ، وهو نفس عمر رسول الله - ﷺ - عند وفاته ، وقد اختلف المؤرخـــون في سبب وفاته ، فمن يقول أن وفاته كان بسبب حزنه على رســـول الله - ﷺ - ومن يقول بسبب لدغة الأفعى في الغار ، وكان ألمها يعـــاوده حتـــى تـــوفي وهذا غير صحيح ؛ لأن اللدغة برئت بريقه - ﷺ - وعاش بعدها هذه المـــدة الطويلة من أيام الغار إلى وفاته على أتم ما يكون صحة ونشـــاطاً (٢) ، ومـــن قائل أن اليهود سمته في طعام أكله هو والحارث بن كلدة .

والصحيح في سبب وفاته هو أنه اغتسل في يوم بـــارد فأصـــابته الحمـــى خمسة عشر يوما حتى أنه لشدة مرضه لم يخرج إلى الصـــلاة فيهـــا ، وأمـــر عمر أن يصلي بالناس ، وكان آخر ما تكلم به (رب توفني مســـلما وألحقنـــي بالصالحين) (٣) .

---

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب رقم ٩٧٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٢ ص٢٧٤ ، زيـــادة : تـــاريخ العـــالم الإســـلامي ، ج٢ ص١١٤ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ، ج١٩ ص١٢٨ ، ١٢٩ .

وقد واجه الصديق خلال خلافته القصيرة أحداثا جساماً ، تصدى لها – كما رأينا بعزم وشدة . ودون شك يدين إليه التاريخ الإسلامي في إعادة المرتدين من العرب بجميع طوائفهم من متنبئة ، ومن والاهم من المرتدين عن الإسلام ، ثم مانعي الزكاة إلى صفوف المسلمين ، وإلزامهم بفروض الطاعة لله والاعتراف بمحمد – ﷺ – رسولا ونبيا ، وإجبارهم بدفع فريضة الزكاة ، وفي توجيه العرب للفتوحات الإسلامية دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، ونشر رسالة الإسلام في العالمين تحقيق عبادة الله على الأرض ، ويكفي أن أعظم مآثر أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – جمعه للقرآن الكريم ، ولو لم يفعل غير ذلك لكفاه .

الفصل الثاني

خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

من ١٣ – ٢٣هـ / ٣٤ – ٦٤٤م

هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ابن رياح بن عبد الله بن قرط [١] بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي، ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله – ﷺ – عند كعب بن لؤي . وأمه حنتمه بنت هاشم ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

ولد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ؛ ولما كان الرسول – ﷺ – من مواليد عام الفيل فعمر إذاً أصغر من الرسول الكريم بثلاثة عشر عام .

وكان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – من أشرف قريش ، وإليه كانت السفارة في الجاهلية [٢] . وتربى عمر على الشهامة والنجدة والجرأة ، وقول الحق ، على الرغم من ذلك فقد غابت عنه حقيقة الإسلام ، فحارب الإسلام بشدة وعنف ، وتعنت مع من أسلم من أقاربه ، ونال المسلمون منه أذى كثير ، حتى كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة النبوية ، ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ، ومفارقة الوطن ، فكان ذلك مما أثر فيه تأثيرا بالغاً ، وحمله على الاستماع للدعوة الإسلامية بقلب مفتوح، فآمن وصدق ، وأعلن إسلامه بين يدي الرسول – ﷺ – في دار الأرقم بن أبي الأرقم . وقد أثر عن رسول الله أنه قال : اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين

---

(١) وقيل أيضا : قرط رياح بن عبد الله بن رزاح ، ابن عبد البر : الاستيعاب رقم ١١٤٤ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج١٩ ص١٤٦ .

عمر بن الخطاب ، أو أبي جهل عمرو بن هشام ، فكان أن هدى الله سبحانه وتعالى عمر بن الخطاب - ﷺ - للإسلام [١] .

والحق أن إسلام عمر كان فتحا للمسلمين ، وكانت هجرته نصرا لهم ، وكانت إمارته رحمة بهم .

ولعمر بن الخطاب - ﷺ - فضائل كثيرة ، ومناقب جمة مشهور ، فقد روى عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال رسول الله - ﷺ - إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، ونزل القرآن بموافقته في أشياء ؛ منها ما رآه في أسرى بدر ، وفي تحريم الخمر ، وفي حجاب أزواج النبي - ﷺ - ، وفي مقام إبراهيم .

وعن أبي هريرة - ﷺ - أن رسول الله - ﷺ - قال : " لو كان بعدي نبي لكان عمر " ، وعن عائشة - رضي الله عنها - : قال رسول الله - ﷺ - " قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن كان في هذه الأمة أحد فعمر بن الخطاب " . وقال ابن مسعود - ﷺ - " لو وضع علم أحياء العرب في كفة ميزان ، ووضع علم عمر لرجح عليهم علم عمر ، ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم ، ولَمَجْلس كنت أجلسه مع عمر أوثق في نفسي من عمر سنة " [٢] .

وهذا قليل من كثير في فضائل عمر - ﷺ - ومناقبه ولو عددنا جل فضائله ومناقبه لما أسعفنا الوقت ولا صفحات هذا الكتاب الموجز .

---

(١) النويري : نهاية الأرب ج١٩ ص١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج١٩ ص١٤٨ ، ١٤٩ .

عمر بن الخطاب والخلافة :

لما مرض أبو بكر الصديق – ﷺ – ، وأحسن بدنو أجله ، خشي إن هو قبض ، ولم يعهد بالخلافة إلى أحد يجمع شتات المسلمين ، ويوحد كلمتهم عاد الاختلاف على الخلافة بين المسلمين سيرته الأولى ، وذلك عقب وفاة رسول الله – ﷺ – ، فرأى أبو بكر بثاقب نظره أن يحتاط لهذا الأمر تلافيا خطار ؛ وخصوصا وأن المعارك دائرة بشدة بين المسلمين وأعدائهم من الفرس والروم في كثير من الجبهات .

وكان أبو بكر يرى أن عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه مع ذلك أحب أن يستشير كبار الصحابة كعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، وسعيد بن زيد ، وأسيد بن حضير الأنصار ، وغيرهم المهاجرين والأنصار ، فكان مما قال لعبد الرحمن بن عوف ، حين حضر إليه ملبيا دعوته : أخبرني عن عمر ، فقال : إنه أفضل من رأيك إلا أن فيه غلظة ، فقال أبو بكر : ذلك لأنه يراني رقيق ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما هو عليه ، وقد رمقته ، فكنت إذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه ، وإذا لنت له أراني الشدة عليه . وقال لعثمان : أخبرني عن عمر ، فقال : سريرته خير من علانيته ، وليس فينا مثله . فقال أبو بكر لهما: لا تذكرا مما قلت لكما شيئاً ولو تركت ما عدوت عثمان ، ولا أدري لعله تارك ، ولخيره له ألا يلي من أموركم شيئاً ، ولوددت أني كنت من أموركم خلواً ، وكنت فيمن مضى من سلفكم .

ودخل طلحة بن عبيد الله – ﷺ– على أبي بكر ، فقال : استخلف على الناس عمر ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلى بهم، وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك ، فقال : أجلسوني فأجلسوه ، فقال : أبالله تخوفني ! إذا لقيت ربي فسألني قلت : استخلفت على أهلك خير أهلك .

فلما استقر أبو بكر على رأيه واطمأن لاختيار عمر بعد مشاورته لعديد من صحابة رسول الله – ﷺ – وأثنوا عليه جميعا . دعا عثمان بن عفان – ﷺ – ، فأملى عليه : بسم الله الرحمن الرحيم " هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين ؛ أما بعد ؛ فقد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا .

ويقال أن أبا بكر أغمى عليه قبل أن يذكر عمر فكتب عثمان باقي العهد، فلما أفاق أبو بكر من إغمائه ، فقال لعثمان : أقرأ عليّ ، فقرأ عليه بما زاده ، فكبر أبو بكر ، وقال : خفت أن يختلف الناس إن متُ في غشيتي ، قال : نعم، قال : جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله " .

فلما كتب العهد أمر به أن يقرأ على الناس ، فقرئ العهد على الناس ؛ فسمعوا وأطاعوا . ثم خرج إليهم أبو بكر الصديق وزوجته أسماء بنت عميس ممسكته ، فقال لهم ، أترضون بمن استخلفت عليكم ؛ فإني والله ما ألوت من جهد الراي ولا وليت ذا قرابة ، وإني وليت عليكم عمر بن الخطاب ، فأسمعوا له وأطيعوا . فقالوا : سمعنا وأطعنا .

ولما بايع الناس عمر دعاه أبو بكر الصـــديق ، فأوصـــاه : وإن لله فـــي الليل حق لا يقبله بالنهار ، وإنها لا تقبل نافلة حتى تـــؤدى الفريضـــة ، وإنمـــا ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بإتباعهم في الـــدنيا الحـــق وثقلـــه عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا وإنما خفـــت مـــن خفت موازينه بالباطل ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفـــا. وأن الله عز وجل ذكر أهل الجنة وصالح ما عملوا وتجـــاوز عـــن ســـيئاتهم ، وذكر آية الرحمة ، وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ، ولا يتمنى علـــى الحق إلا الحق ، ولا تلق بيدك إلى التهلكة ، فإن حفظت قـــولي فـــلا يكـــونن غائب أحب إليك من الموت ، ولا بد لك منه ، وإن ضـــيعت وصـــيتي ، فـــلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ، ولن تعجزه .

ثم قال له أيضا موصيا : إن أول من أحذرك نفســـك وأحـــذرك النـــاس ؛ فإنهم قد طمحت أبصارهم وانفتحت أجوافهم وإن لهم لجيرة عن ذلـــة تكـــون ، فإياك أن تكونه ، وأنهم لن يزالوا خائفين لك فرقين منك ما خفت الله وفرقتـــه ، وهذه وصيتي ،اقرأ عليك السلام .

منهج عمر في الحكم :

لما بويع عمر صعد المنبر فخطب خطبة موجزة تدل على سياسته فقـال : " إنما مثل العرب كمثل جمل آنف اتبع قائده ، فلينظر قائده أين يقوده . أما أنـا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق " .

ولقد بر – ﷺ – في قسمه فسلك في سياسته نفس الطريق التـي سـلكها سلفه من قبل . ولقد أحس عمر بثقل التبعة التي ألقيت عليه ، ولم يكـن أمـر الخلافة في حياة عمر شهوة يتطاول بها على الناس ، وإنما كان أمانة أسـهرته ليله وأهمته بقية عمره فكان لا يهدأ له بال ، ولا يغمض له جفـن همـا بـأمر الرعية ، فكان شديد المحاسبة لنفسه ، ولأهل بيته ودائم التعسس على المدينـة ليتفقد مواضع الخلل فيصلحه ، وكان غاية الدقة في اختيار الولاة وشـديد كـل الشد في محاسبتهم ومراقبتهم ، وكان كثير الاجتهـاد فـي اسـتنباط الأحكـام والقوانين التي تتلاءم مع تغير الأمة واختلاف الظـروف والأحـوال ، وشـد الحرص على مواصلة الفتوحات ونشر الإسلام ، وإرسال القراء والفقهاء إلـى الأمصار المفتوحة ليعلموا الناس أمور الدين .

الفتوحات الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب

الفتوح في العراق وفارس :

المثنى في العراق : سبق أن ذكرنا أن خالد بن الوليد ترك المثنى بن حارثة في قيادة الجيش في العراق . وكان المثنى يعتقد أن الفرس لابد أن يهاجموا الممتلكات الإسلامية يوما ما ، فحصن منطقة الحدود بينه وبين الفرس ، ونظم الدفاع عن البلاد التي فتحها المسلمون وقد صدقت ظنونه ؛ إذ أن الاضطرابات الذي ساد بلاد فارس في الفترة الأخيرة انتهى ، واتفق أهل فارس على شهريران وشهريار ابن أردشير بن سابور ، وملكوه عليهم . وكان أول ما استقر عليه عزمه هو إرسال جيش لطرد المسلمين من البلاد التي احتلوها . فوجه هرمز جاذويه في عشرة آلاف لمحاربة المثنى ، وجعل هرمز في مقدمة جيشه فيلا من فيلة الحرب يخوف به المسلمين ، ويشتت شملهم .

ووصلت المثنى أنباء هذا التجهز والتوجه فخرج من الحيرة لملاقاته وجعل على مجنبتيه أخويه المعني ومسعودا ، وسار حتى بلغ أطلال بابل التي تبعد عن الحيرة نحو خمسين ميلا ، فعسكر على مرتفع منها ، وأقام ينتظر الجيش الفارسي .

معركة بابل :

ثم أقبل هرمز بن جاذويه بجيشه يتقدمه الفيل وكله الاطمئنان إلى أنه مشتت شمل المسلمين لا محالة ، وسار الفيل يضرب بخرطومه يمنه ويسره ، ويفرق صفوف المثنى ، ويوقع الرعب فيهم ، وأيقن المثنى أن انتصاره رهن بالقضاء على الفيل ، فخرج في جماعة من رجاله فهاجموه وأصابوا منه مقتلا فخر صريعا وسر المسلمون لهذا فالتأمت صفوفهم ، وقويت روحهم ، فهاجموا الفرس وهزموهم شر هزيمة ، وطاردوا الفارين منهم إلى أبواب المدائن ، ولكنه لم يتقدم لفتحها مع اقتناعه بوجوب فتحها من زمن بعيد ؛ لأنه كان يرى أن فتحها يتطلب جيشا كبيراً ، وما كان أبو بكر يمده وجيوش المسلمين كلها بالشام .

لذلك كتب المثنى يخبر الصديق بانتصاره على الفرس ، ويستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ؛ لما يعرفه فيهم من النشاط لقتال الكفار ، وعاد إلى الحيرة ينتظر أخبار المدينة ، فلم يصل إليه شيء من أبي بكر ، وكان المثنى لا يزال على اعتقاده الأول من أن الفرس لن يهدأ لهم بال حتى يخرجوا الإسلام عن ديارهم والواجب معاجلتهم بفتح عاصمتهم .

ولما طال انتظار المثنى ولم يصله شيء من أبي بكر ، ذهب بنفسه إلى المدينة ليشرح لأبي بكر وجه نظره ، فوجده في فراش الموت ومع ذلك استقبله واستمع إليه ، واقتنع برأيه ، وقال : على بعمر ، فلما جاء قال له : اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم أعمل به : إني لأرجوا أن أموت من يومي هذا

فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ، ووصية ربكم ، وقد رأيتني متوفي رسول الله - ﷺ - وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق ؛ فإنهم أهله ، وولاة أمره وحده ، وأهل الضراوة والجرأة عليهم . ووعد عمر أن ينفذ أمر أبي بكر ، وكان يقول من بعده : قد علم أبو بكر أنه يسوء في أن أؤمر خالدا ؛ فلهذا أمرني أن أرد أصحاب خالد ، وترك ذكره معهم .

ولما مات أبو بكر من يومه وفرغ عمر من دفنه ندب الناس مع المثنى بن حارثه إلى أهل فارس قبل صلاة الفجر ، وظل ثلاثا ولا يخرج أحد إلى فارس إذ كان هذا الوجه أثقل الوجوه على المسلمين لشدة سلطان الفرس وشوكتهم ، وقهرهم الأمم ، وعرف المثنى ذلك وقام في اليوم الرابع ، وقال : أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإن قد فتحنا ريف فارس ، وغلبناهم على شقى السواد ، ونلنا منهم واجترأنا عليهم ولنا إن شار الله ما بعدها .

وقام بعده عمر بن الخطاب وقال : إن الحجاز لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء [١] المهاجرون عن موعود الله سيروا في الأرض التي وعدكم الله أن يورثكموها ؛ فإنه قال : " ليظهره على الدين

---

(١) الطراء : جمع طارئ ، وهم الذين يطرؤون على أرض العدو .

كله " والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولى أهله مواريث الأمم ، أين عباد الله الصالحون .

فكان أول مجيب أبو عبيد بن مسعود الثقفي – والد المختار بن أبي عبيد، ثم تلاه رجلان هما : سعد بن عبيد الأنصاري ، وسليط بن قيس . ثم تتابع الناس ، فقيل لعمر : آمر عليهم رجلا من المهاجرين أو الأنصار ، فقال: لا والله لا أفعل وأمر عليهم أسرعهم إجابة ، وهو أبو عبيد الثقفي ، وقال له : اسمع من أصحاب رسول الله – ﷺ – وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ؛ فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث [١] ، وأوصاه بجنده ، ثم أمر عمر المثنى بالسبق إلى الحيرة ليعد العدة ، ويرى ماذا تم في الفترة السابقة التي غاب فيها ، فعاد المثنى عجلا إلى معسكره بالحيرة ، فوصلها في عشر ليال وسار أبو عبيدة بجيشه الذي يبلغ خمسة آلاف سوى من انضم إليه من العرب الضاربين في طريقه ، فوصل بعد المثنى بنحو شهر .

١- موقعة النمارق :

كان من محاسن الصدق للمسلمين أن الدولة الفارسية في هذه الفترة كانت على حالها القديم من الاضطراب ، وعدم الاستقرار على وريث يعترف له الكل بالطاعة ؛ فقد حدث أنه مات شهريار عندما وصل إليه نبأ هزيمة

---

(١) المكيث : الذي يعرف الفرصة والكفء .

جيشه في معركة بابل أمام المثنى ، وملك الفرس عليهم ابنة لكسرى ، ولكن لم ينفذ لها أمر وخلعت ، وخلفها على العرش سابور بن شهريار ، واستوزر سابور الفرخزار ، وأراد أن يزوجه آزر ميدخت (١) ابنة كسرى ، فغضبت ألا يكون زوجها من بيت الملك ، وقالت لسابور : يا ابن عمي أتزوجني عبدي ؟ لكن سابور لم يستمع إليها وأغلظ لها في الخطاب ، فاستعانت بسياوخس الرازي أحد فتاك الأعاجم ، فلما كانت ليلة العرس ، ودخل الفرخزار مخدع آزر ميدخت ثار به الفاتك فقتله ، ثم سار بآزر وأعوانها إلى سابور فحاصروه، ودخلوا عليه فقتلوه ، وجلست آزر ميدخت على العرش مكانه . فاختارت رستم أحد عظماء الفرس قائدا عاما للجنود الفارسية ، وكان ذلك قبل قدوم أبي عبيد ، وكان أول ما وضعه رستم أن كتب دقاقين السواد " العراق " أن يثوروا بالمسلمين ، ودس في كل رستاق رجلا ليثور بأهله ويحضهم على التمرد والانتقاض في وجه المسلمين وكان من دعاة الثورة رجل أسمه جابان وآخر اسمه نرسي . وهما من قواد الجيش ، فأثاروا الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله ، واجتمع جيش الفرس بالنمارق على بعد نحو عشرة أميال من الحيرة ، فخرج المثنى من الحيرة لئلا يؤتي من خلفه ، وفي هذا الوقت قدم عليه أبو عبيدة فلما استراح هو وأصحابه خرج إلى الفرس ، وجعل المثنى على الخيل ، والتقى الجيشان الإسلامي والفارسي ، فانهزمت الفرس وأسر أحد الجنود جابان ، ولما علم القوم بأنه قائد أتوا به أبا عبيدة ، وأشاروا بقتله ، وغض النظر عن الأمان الذي أعطاه له آسره ، فقال : إني أخاف الله

---

(١) آزر ميدخت أخت بوران وليست بوران كما روي بعد المؤرخين فإن بوران كانت في آخر حياة الرسول .

أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم والمسلمون كالجسد الواحد ما لـزم بعضـهم فقـد لزم كلهم ، وأطلق سراحه .

وفر الفرس بعد هزيمتهم في النمارق إلى كسكر [١] ، فلحقهم أبـو عبيـد وهزمهم أيضا ، ففروا إلى المدائن .

٢ـ موقعة الجسر :

لما علم رستم بهزيمة الجيش في النمارق وكسكر جهـز جيشـا عظيمـا تحت قيادة بهمن المعروف بذي الحاجب ومعه الراية العظمى لفـارس والتقـى الجيشان على نهر الفرات ، وخير الفرس المسلمين بين أن يعبـروا أو يعبـر الفرس إليهم ، واندفع أبو عبيد فاختار العبور ، ولمـا نهـاه ذوو الـرأي مـن الصحابة لم يقبل ، وقال : لا يكون الفرس أجرأ على المـوت منـا . وعبـر المسلمون .

ولما كان أبو عبيد هو القائد الأعلى للجيش ، فقد وافقه أصـحابه علـى رأيه ، وقرروا العبور ، فنصب جسرا من الزوارق ، وعبر أبو عبيـد ودارت رحى القتال ، وماجت الأرض ، ونفرت خيول المسلمين من الفيلة ، وترجـل أبو عبيد والناس ، وصافحوا العدو بالسيوف ، ودافعت الفيلة ، فقطعوا وضـنها فسقطت رجالها ، وقتل من كانوا عليها ، وقابل أبو عبيد فيلا ، فوطئه بيـده ،

---

(١) كسكر : بلد على الشاطئ الغربي لدجلة بين بغداد والبصرة .

وقام عليه فأهلكه ، فانهزم المسلمون واضطربوا لفقده ، وتتابع من ثقيف سبعة يأخذون اللواء ، بعد أبي عبيد ، حسبما عينهم قبل وفاته فماتوا جميعا .

ولما قتل حملة الراية من ثقيف حملها المثنى ، ولكن المسلمين كانوا قد انهزموا ، وفروا عنه ، فأصبحت الحال سيئة ، وزاد الطين بلة أن عبد الله بن مرثد الثقفي قطع الجسر حين فرار الناس ، وقالوا : موتوا أو تظفروا . وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر ، فتواثب بعضهم إلى نهر الفرات فغرق بعضهم . وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس من الإبادة . وطلب المثنى من الذين عبروا سباحة أن يعقدوا الجسر ، فعقدوه .

وكان آخر من قتل على الجسر سليط بن قيس الأنصاري . وهلك من المسلمين يومئذ أربعة آلاف ، بين قتيل وغريق ، وهرب ألفان وبقي ثلاثة آلاف . وقتل من الفرس ستة آلاف . وأراد بهمن العبور خلف المسلمين ، فأتاه الخبر بأن الفرس ثاروا على رستم ، فرجع إلى المدائن ، وكان هذا من كرم الله للمسلمين .

والسبب في هزيمة المسلمين يرجع إلى أمرين ، مخالفة أبي عبيد لمن معه ، فإنهم أشاروا عليه بعدم العبور ، حينما خيروا بهمن ، واستعجال عبد الله بن مرثد في قطع الجسر حين التقهقر . وقد أثارت هذه الهزيمة كلا من الخليفة والمثنى ؛ فإنه لم يبق بالعراق من المسلمين إلا عدد قليل ، لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فضلا عن الاحتفاظ بالأملاك المفتوحة .

٣- معركة البُوَيب[١] (**وهو يوم مهران**) :

قلنا إن الحالة بالعراق أصبحت سيئة ؛ نتيجة ليوم الجسر وخاف عمر أن تضيع الأملاك الإسلامية في أول عهده ، وهو الحريص على نشر الدين ، فسارع بندب الناس إلى المثنى وكان فيمن ندب قبيلة بجيلة وأمرهم إلى جرير بن عبد الله البجلي . وكتب عمر إلى أهل الردة فلم يأته أحد إلا رمى به المثنى . وبعث المثنى بدوره الرسل فيمن يليه من العرب ، فتوافوا إليه ، حتى النصارى من نمر فقد اختاروا القتال مع قومهم ، وبلغ الخبر رستم ، ومن التف عليه ، فأرسل جيشا بقيادة مهران الهمذاني إلى الحيرة ، وعلم المثنى بذلك ، فكتب إلى جرير وغيره أن يقصدوا العذيب – مما يلي الكوفة ، فاجتمعوا هناك ومهران ومن معه قبالتهم وبينهما نهر البُوَيب ، فأرسل مهران إلى المثنى يخبره في العبور ، فاختار أن يعبر الفرس ، فعبروا واشتد القتال ، وكانت الحرب في هذه الموقعة أشد ما صادفه المسلمون لكثرة عدوهم ، ولكنهم انتصروا عليهم ، ولكي يلحق بهم ما لحق المسلمين في يوم الجسر ، سبق إلى جسر البُوَيب فقطعه ، فلم يتمكنوا من العبور ، فتشتتوا في البلاد ، بعد أن أوقع المثنى بهم القتل أثناء الاضطراب الذي دب في صفوفهم عندما علموا بقطع الجسر . وقتل مهران ، وعدد من جيشه يقدر بعشرة آلاف ، ويقدره بعض الرواة بمائة ألف .

---

(١) البويب : نهر صغير بالعراق .

وكانت معركة البويب من المعارك الحاسمة ، فقد أوقعت الرعب في قلوب الفرس ، وأصبح المسلمون بعدها يغدون ويجيئون فيما بين دجلة والفرات ، لا يقف في وجههم محارب ، وذهبت بعض الفرق الإسلامية إلى قرب المدائن نفسها ، فلم تجد مقاومة واستولت فرقة على بغداد ، وكانت إذ ذاك قرية صغيرة ، وصارت بعض الفرق إلى تكريت في أقصى الشمال ، واستولت عليها بلا عناء .

د- موقعة القادسية :

رأى الفرس بعد هزيمتهم في البويب أن سبب عجزهم وهزيمتهم في العراق هو ما هم فيه من اختلاف بسبب الملك والسلطان فقالوا لرستم ومنافسه الفيرزان : إنا أن تجتمعا وإلا فنحن لكما حرب فقد عرضتمونا للهلكة ، وما بعد بغداد وتكريت إلا المدائن ، ففزعا إلى آزر ميدخت أو بوران يسألونها في ولد من كسرى يولياته عليهم ، فوجدوا يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى ، فملكوه عليهم وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، واجتمعوا عليه ، وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته .

وثار في المملكة حماس جديد فقد عز على الفرس أن يصبحوا خاضعين لقوم كان بالأمس القريب من أتباعهم ، فأنفذت الجيوش واحتلت كثيرا من أراضي المسلمين ، واقتربت من الحيرة نفسها .

وإزاء هذا لم يسع المثنى إلا الجلاء عن الحيـرة ، والتقهقـر بجيوشـه القليلة ، فعسكر بذي قار[١] ، وبعث إلى عمر بالخبر . فعـزم الخليفـة علـى توجيه ضربة قاضية إلى المدائن ، وقال : والله لأضربن ملوك العجـم بملـوك العرب . وكتب المثنى يأمره بخروج المسلمين من بين العجـم والتفـرق فـي المياه بجبالهم على الحدود بين العرب والعجم وأن يـدعوا الفرسـان ، وأهـل النجدات من ربيعة ومضر ، ويحضرهم طوعا أو كرها . وكتب إلـى عمالـه من العرب أن بعثوا إليه من كانت لـه نجـدة أو فـرس ، أو سـلاح أو رأى وخرج إلى الحج سنة ١٣ هجرية ، ورجع فجاءته أفواجهم إلى المدينة إلا مـن كان قريبا إلى العراق فقد انضم إلى المثنى .

ولما اجتمع الناس إلى عمر خرج من المدينة إلى ماء على ثلاثـة أميـال منها يسمى صرار ، فعسكر به ، ولا يدري الناس ما يريـد أيسـير أم يقـيم . وكان عمر لشعوره بالخطر العظيم ، والمسئولية الملقـاة علـى عاتقـه فكـر بالخروج مع الجيش إلى العراق ، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب ، إلا أن أصحاب رسول الله قد اجتمعوا حوله وناشدوه على البقـاء وأشـاروا أن يبعث واحداً بعد آخر من الصحابة حتى يفتح الله علـى المسـلمين ، ويهلـك عدوهم ، فاستحسن عمر هذا الرأي وجمع الناس وقال لهم : إني كنت عزمـت على المسير إلى العراق حتى صرفني ذوو الرأي منكم ، وقد رأيت أن أقـيم ، وأبعث رجلا ، فأشيروا علي برجل . فأشاروا إليه بالصحابي الجليل سعد بـن

---

(١) ذي قار : موضع على الحدود على البادية ، كانت به موقعة بين الفرس والعرب في الجاهليـة انتصر فيها العرب .

أبي وقاص ، وكان على صدقات هوازن ، وكان سعد قد انتخب لعمــر ألــف فارس كليم له نجده ورأي ، وصاحب حيطة يحوط حــريم قومــه . فأحضــر عمر سعداً ، وأعطاه القيادة العليا على جيش العراق ، وكــان عــدده أربعــة آلاف.

وسار سعد بجيشه حتى وصل إلى زرود[١] ، فأمر الناس بــالنزول بهــا على مياه بني أسد ، وانتظر بها حسب أمر الخليفة حتى تأتيه القــوى ويتلقــى أمره بالزحف ، ثم أمده بألفي يماني وألف نجدي ، وكان المثنى ينتظر قدومــه إلا أنهما لم يتقابلى لوفاة المثنى أثناء إقامة سعد بزرود .

ولم ينسى المثنى قبل وفاته أن يرسل لسعد وصيته التي تعتبــر خلاصــة تجاربه وعصارة خبرته في حروبه الطويلة مع الفرس . وقد فقد الإسلام بوفــاة المثنى قائداً ماهراً لا يقل عن خالد بن الوليد في الإقــدام والتــدبير السياســي والحربي .

ثم سار سعد من زرود بعد ذلك إلى شراف فنزلها ، وأخــذ يــنظم قوتــه التي بلغت ثلاثين ألفا استعداداً للمعركة الفاصلة ولما انتهى ســعد مــن تعبئــة الجيش وتنظيمه حسب أمر الخليفة سار إلى القادسية التي كان يحوطها الفــرات من جهة الشرق وخندق سابور من جهة الغرب ، مما يلي صــحراء العــرب ، وكانت القادسية واقعة على الطريق التجاري بين بلاد فارس وبــلاد العــرب ،

---

(١) زرود : موضع على طريق الحاج إلى الكوفة بين الثعلبية والجزيمية .

ويستمر ذلك الطريق إلى الحيرة الواقعة قبالة القادسية علـــى الشـــاطئ الآخـــر ويربط بينهما جسر ، ومن الحيرة يستمر ذلك الطريق إلى المدائن نفسها .

ووقف سعد بجنوده قبالة القادسية بقرب حسن قديس في جنوب الجســـر – المتقدم ذكره – وعسكر هناك ينتظر ما تفعله الفرس . وكان الفرس قد اتفقـــوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذي يوجهونه لحرب المســـلمين ، وبإشارة من عمر أرسل سعد بعثا إلى يزدجرد على رأسهم النعمان بن مقـــرن، ووصل النعمان بمن معه إلى أبواب يزدجرد يستأذنه في المثول بين يديه فـــأذن لهم ، فدخلوا وجلسوا ، ثم دارت محاورة بينهم وبين الملك دعـــوه فيهـــا إلـــى الإسلام ، فتصير له حقوق المسلمين ، أو دفع الجزية ، فتكـــون لـــه ولرعيتـــه الذمة ، أو التقدم للقتال ، فغضب كسرى لهذه الجرأة ، وقـــال لهـــم : لـــولا أن الرسل لا تقتل لأمرت بقتلكم ، لا شيء لكم عندي إلا التراب ، وأمر بوقر مـــن تراب ، ثم قال : من أشرفكم ؟ قال عاصم بن عمرو : أنا ، فقـــال : أحملـــوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ، ثم التفت إلى البعـــث فقال لهم : أرجعوا إلى صاحبكم فأخبروه أني مرسل إليه رستم ليدفنه ويـــدفنكم معه في خندق سابور ، وأنكل به وبكم . وقد تفاعل البعث بهذا الوقر ، وبشـــر سعد بالنصر والظفر .

موقعة القادسية :

بجيش قوامه عشرون ومائة ألف سار بهم رستم لملاقاة المسلمين فوصل الحيرة قبالة القادسية ، ثم سار فعسكر عند بلدة النجف قبالة حصن قديس الذي عسكر عنده المسلمون . وبعث سعد الطلائع لتأتيه بأخبار الفرس ، وطلب أن يأتوه برجل من جيش الفرس ليعرف منه عَدد وعُدة جيش الفرس ، فغامر طليحة الأسدي ودخل جيش الفرس ليلا ، وتجول فيه ، ونظر في عدده وعُدته فبصر بفرس فاره لم ير في جيش الفرس مثله ، فقطع بسيفه مقوده ، ثم ضمه إلى مقود فرسه ، ثم خرج من معسكر الفرس يعدو بهما ، فأحس بذلك بعض الجنود ، فخرج في طلبه ثلاثة من خيرة الفرسان ، فلحق به أحدهم فقتله ، ثم لحق به الثاني فقتله ، فلما لحق به الثالث لم يقتله ، وأخذه أسيراً كطلب سعد ، فسار به إلى معسكر المسلمين ، فسأله سعد عن الفرس فلم يجب في بادئ الأمر ، وبعد محاولات أخبر بعددهم وعُددهم ثم اعتنق الإسلامي ، وسمي نفسه مسلماً ، وأبلى بعد ذلك بلاءً عظيماً في الحروب .

وقد مكث رستم بعد خروجه من المدائن نحو أربعة شهور ، وهو يطاول المسلمين ولا يقاتلهم رجاء أن يضجروا فيرجعوا من غير حرب راضين من الغنيمة بالإياب ، بينما كان كسرى يحثه على القتال ، ثم أن رستم كاد أن يميل إلى الصلح مع المسلمين ، ولكن الفرس لم يطاوعوه ، حتى لا يبق إلا السيف حكماً .

ولما انتهى رأي الفريقين إلى القتال سأل رستم وفد المسلمين : أتعبرون إلينا أن نعبر إليكم ؟ ، فقال المسلمون أعبروا أنتم إلينا ، فأقام الفرس سداً على الفرات ، وعبروا عليه واقترب الجيشان ، وعبأ سعد جنوده ، وأشرف على القتال من أعلا داره لمرض منعه من القتال ، وعين نائبا عنه وهو خالد بن عرفجة ، ليبلغ الأوامر إلى القواد ، ثم التحم الجيشان في معارك غاية في الشراسة في ثلاثة أيام سميت اليوم الأول بيوم أرمات واليوم الثاني بيوم أغواس واليوم الثالث بيوم عماس ، وركز سعد في أوله على ضرب الفيلة بواسطة الرماة المهرة وقال لهم : ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل ، وأقلعوا عيونها وأقطعوا وضنها - أي أحزام القتب - مما جعل الفيلة تنفر وتقتل أصحابها .

وفي اليوم الثاني - يوم أغواس - وصل للمسلمين مدد من الشام ، بعثه أبو عبيدة بأمر عمر وعليه هاشم بن عتبة وكان على مقدمته القعقاع بن عمرو ، فقويت الروح المعنوية عند المسلمين . وفي هذا اليوم جاء المسلمون بالإبل فبرقعوها حتى صار لها شكل غريب أخاف خيل الفرس ، ولقيت منها ما لقيت خيل المسلمين من الفيلة في اليوم الأول ، وقتل في هذا يوم من زعماء الفرس بهمن جاذويه القائد في موقعة الجسر قتله القعقاع ، كما قتل أيضا الفيزران ، وقتل الحارث بن ظبيان . واستمر القتال في هذا اليوم إلى منتصف الليل وقد استشهد فيها من المسلمين ألفين وقتل عشرة آلاف من الفرس .

وكان شأن الفرس في وهن يوما بعد يوم حتى كان اليوم الثالث عصيبا على الفرس بعد أن قتل المسلمون فيلين من أفيالهم ففررت باقي الفيلة مخترقة صفوف الفرس حتى أتت المدائن بهوادجها وعليها الرجال لا يستطيعون ردها، فكان ذلك مما أضعف الفرس فاشتد المسلمون في الحملة عليهم بعد أن فرت الفيلة ، وأقبل الليل والتي سميت بليلة الهرير ، والمعركة لا تزال حامية الوطيس وخشعت الأصوات فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وصهيل الخيل وزئير الفرسان ، وحمل المسلمون حملة أزالو بها الفرس ، وقتل رستم قائد الفرس . ففر الفرس من أمام المسلمين ، وقام الجالينوس على الردم وأمر الجيش بالعبور ، فعبر من نجا منهم فتبعهم زهرة بن الحوية ، وأدرك الجالينوس وهو يجمع المنهزمين فقتله ، وأخذ ضرار بن الخطاب الفهري الراية العظمى لفارس ونصر الله المسلمين في هذه المعركة بعد أن لاقوا خطوبا كبيرة وأذاقوا الفرس خطوبا أشد . وكانت موقعة القادسية في المحرم سنة ١٤هـ ، وقيل كانت سنة خمس عشر .

هذه الموقعة كانت أعظم وقعات المسلمين مع الفرس حيث لم تقم للفرس قائمة بعد هذه المعركة التي أطاحت بكل آمال الفرس وبعث سعد إلى عمر بالبشارة والخمس . وأقام سعد بالقادسية شهرين جاء أمر عمر لسعد بن أبي وقاص قائد عام المسلمين بالمسير فتقدم سعد بن أبي وقاص إلى بابل فلقيته بقربها فلول القادسية فهزمهم ، وتقدم مخترقا السهل الواقع بين النهرين ، وآتاه رؤساء المقاطعات في أثناء ذلك فمنهم من رغب الدخول في الإسلام ، ومنهم من رغب في دفع الجزية .

واستمر سعد يخضع بلاد بين النهرين ؛ حتى دانت كلها للإسلام وما زال سعد مقيما صيف تلك السنة في ذلك السهل حتى أتته تعليمات الخليفة بالتقدم إلى العاصمة المدائن لفتحها .

فتح عاصمة الفرس (المدائن) :

كانت عاصمة الإمبراطورية الفارسية المدائن وكانت عبارة عن مدينتين على شاطئ دجلة فكانت على الشاطئ الغربي المدائن الدنيا المعروفة بـ (بهرسير) وعلى الشاطئ الشرقي المدائن القصوى الشرقية والمعروفة بـ (طيسفون) وكان فيها إيوان الأكاسرة المشهور ، وهي على بعد ١٣٠ ميلا من القادسية إلى الشمال .

ووصل سعد إلى بهرسير وحاصرها حتى سئم أهلها الحصار فهربوا منها ، فنزلها سعد وأنزل بها الجند . وكان الفرس قد قطعوا الجسور بين طيسفون وبهرسير ، فانتدب سعد عدداً من أصحاب النجدة وذوي البأس لاقتحام نهر دجلة ، وقد دلهم بعض أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها إلى الجهة الشرقية ، فاقتحم المسلمون من خلال هذه المخاضة نهر دجلة ورآهم الفرس وهم يعبرون بخيلهم ليلا ، وحاولوا أن يمنعوهم ، ولكن المسلمين صوبوا سهامهم نحوهم فولوا الأدبار ، وتم لهم اقتحام النهر حتى وصولا إلى العدوة الشرقية ، وأصبحوا أمام جيش الفرس ، ونشبت المعركة التي تعتبر معركة الموت أو الحياة ، فأجهضهم المسلمون وأعجلوهم ، واقتحموا عليهم مدينتهم ودخلوا المدائن ، واستولوا على كل ما كان في بيوت الأكاسرة من

الأموال بعد أن فتحت أبوابها صاغرة ، وعجزت عن الدفاع . فتـرك كسـرى يزدجرد المدينة هو وأسرته إلى حلوان الواقعة في الشمال الشرقي من المـدائن على بعد مائة ميل تقريبا ، كما فر عدد من الرؤساء وكبـار رجـال الدولـة ، تاركين ما في قصورهم من كنوز ونفائس غنيمة للمسلمين .

وعقب ذلك تم إخضاع المدن الواقعة غربـي دجلـة ، وقـدم الـدهاقين (شيوخ القرى) فروض الطاعة إلى سعد . ثم نزل سعد القصر الأبيض وهـو يتلوا قول الله تعالى : (**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَـامٍ كَـرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَـا قَوْمـاً آخَـرِينَ**) ، وقـد اتخـذها المسلمون قاعدة لأعمالهم الحربية . واتخذ سعد - ﷺ - إيوان كسرى مسـجدا للصلاة .

ثم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الأموال والنفائس ، وقسـمها علـى الجند ، فكان نصيب الفارس اثنى عشر ألفا ، وكان أكثر المسـلمين فرسـاناً ؛ لأن موقعة القادسية أكثرت الخيل لدى المسلمين ، وقسم سعد دور المدائن التـي خلت من قاطنيها على المسلمين فاستوطنوها ، وأرسل بالخمس ونبأ الفتح إلـى عمر ، وجمع الطرف والتحف التي يعرف أن المسلمين في المدينـة يدهشـون بها ، ويعجبون لرؤيتها فأرسلها إليهم كثياب كسرى وحليه وسـيفه ، وبعـض أثاث بيته ، ومن هذه الطرف بساط لكسرى طوله ستون ذراعاً فـي مثلهـا ، ويقال أن الأكاسرة كانت تعده للشتاء ، إذا ذهبت الرياح شربوا عليه ؛ فكـأنهم في رياض فيه طرق كالصور ، وفيه فصوص كالأنهار ، أرضـها مذهبـه ،

وحلال ذلك فصوص كالدر ، وفي حافته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة ، وثمره الجوهر . وأشباه ذلك مما يحير الناظر وكانت العرب تسمى هذا البساط القطيف .

ويروي أن سعد بن أبي وقاص أراد إخراج الخمس منه فلم تعتدل قسمته، فقال المسلمين : هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماسه ؟ فرضوا ، فبعث به إلى عمر ، يضعه حيث يشاء . ولما وصل خمس الغنائم إلى عمر قسمه إلى مستحقيه ، ثم قال : أشيروا علي في هذا القطيف ، فأشاروا عليه بجملة آراء ، وأخير استقر الرأي على قسمة بين المسلمين ، فخص عليا قطعه منه باعها بعشرين ألفا ، وما هي بأجود القطع فيما روى .

ثم صدر أمر الخليفة بتولية سعد على ما فتحه من بلاد فارس في الصلاة والحرب ، وبتولية النعمان بن مقرن على خراج ما سقي دجلة وأخيه سويد على ما سقى الفرات .

فتح جلولاء [١] :

كان رأي عمر أن يقتصر المسلمون على ما فتحوه ، وعدم القيام بزحف نحو الجهات الجبلية التي تفصل السواد عن العراق العجمي وأزربيجان وعملا بتلك الأمر أقام سعد بالمدائن صيف سنة ١٦ . ولكن لما أحس سعد أن

---

(١) جلولاء : في شمال شرقي بغداد بين حلوان والمدائن .

يزدجرد الإمبراطور الفارسي الذي فر إلى حلوان إثر فتح المدائن يعمل على قتال المسلمين في الأرض الجبلية الوعرة ، معتقد أن العرب لا يستطيعون القتال فيها أرسل إلى عمر وفداً من رؤساء القبائل بوجوب إزالة الدولة الفارسية حيث أن حاكمها لا يكن عن مناوأة المسلمين ، فاستشار عمر كبار الصحابة في المدينة فأقروا وجهة نظر سعد ، فوافق عمر على الرأي ، وأمرهم بالانسياح في بلاد فارس لتطهيرها من فلول المنهزمين ، وخاصة ممن تجمع في نهاوند (١) .

وعندئذ سير سعد ابن أخيه هشام بن عتبة بن أبي وقاص فسار هاشم إلى جلولاء في ألف مقاتل وحاصرها ، وأبلى المسلمون بلاءً حسان في حصار المدينة قرابة شهرين . فطلب هشام من سعد نجدة فأنجدة بعمرو بن معد يكرب وطليحة الأسدي ، وقيس بن مكشوح ، ولما طال أمد الحصار أيضا عقد هشام جلسة مع القادة الكبار ، وقرروا الهجوم على خندق مضروب حول جلولاء واقتحامه مهما كلفهم ذلك ، وكان بطل هذا الهجوم القعقاع الذي حمل على الخندق فحمل معه المسلمون حتى اقتحموه ، واستولوا على البلد عنوة ، ففر الفرس إلى خانقين فتبعهم القعقاع ومن معه ، ورأى يزدجرد أن بقاءه في حلوان أصبح غير ممكن ، ففر إلى الري ، فسار القعقاع إلى حلوان، فاستولى عليها بعد مقاومة ضعيفة وكان ذلك في ذي القعدة سنة ١٦هـ وبقى القعقاع مرابطا في حلوان ، وهي نهاية العراق العربي ، لأن أوامر الخليفة

---

(١) نهاوند: مدينة عظيمة في جنوب همدان بينهما ثلاثة أيام وهي من أقدم بلاد الجبال في فارس.

كانت تقضي بالوقوف عند حدود السهول الشرقية للعراق ، وعدم الزحف إلى ما بعدها من أرض الجبال مؤثراً سلامة المسلمين على كل ما يأتي به النصر.

وكانت الغنيمة من حلوان عظيمة حتى خص كل مقاتل تسعة آلاف وقيل أكثر ، وجاء بالخمس إلى المدينة زياد بن أبيه ، وكان صغيرا ومعه كتاب من سعد يطلب فيه أن يسمح له الخليفة بمطاردة الفرس فيما وراء الجبال . ولكن عمر كان عند رأيه في وجوب وقف التقدم الإسلامي فترة من الزمن حتى تثبت قواعده وتتوطد أركانه فيما فتح من البلاد .

فتح تكريت والموصل (١) :

تنفيذ لأمر الخليفة فقد وجه سعد مجهوداته إلى إخضاع ما بقي من العراق في الشمال حتى يأمن غارات الفرس والروم في هذه الناحية ، وكان معظم شمال العراق في يد الروم ، وبينما سعد على هذا النحو يعمل على إخضاع شمال العراق إذا به يعلم بتجمع الفرس والروم والعرب من إياد وتغلب والنمر بتكريت فأرسل بخبر هذا التجمع إلى الخليفة ، فكتب إليه عمر : أن سرح إليه عبد الله ابن المعتم . فسار إليهم وحاصرهم أربعين يوما . ثم أرسل إلى العرب المناصرة للروم ، يدعوهم إلى نصرته ، وبين لهم أنهم أبناء عمومة ، فاستجابوا لدعونهم فأمنهم ، وقال لهم : إذا سمعتم تكبير المسلمين ،

(١) تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهي إلى بغداد أقرب على الضفة اليمنى لدجلة وكانت قلعة حصينة بناها الروم عند تغلبهم على الفرس ، والموصل مدينة عظيمة على طرف دجلة .

فكبروا ، فأجابوه إلى ذلك فأمر جنده بالهجوم والتكبير ، فلما سمع العرب تكبير المسلمين كبروا مع المسلمين ، فظن الفرس أن المسلمين هجموا عليهم من الخلف ، فاستبقوا إلى أبواب الحصن يريدون الخروج ، فأخذتهم سيوف المسلمين من كل جهة فانهزموا شر هزيمة ، وما لبث المسلمون أن تقدموا نحو الموصل ، فسارعوا إلى الصلح مع المسلمين ، وصارت جميع أعمال الموصل للمسلمين .

وأرسل سعد فرقة من الجند يقودها ضرار بن الخطاب لفتح المدن الواقعة في أواسط الفرات ، فاستولت على قرقيسيا[١] وهيت[٢] . وبذلك أصبحت كل الأراضي الواقعة بين النهرين في يد المسلمين .

معركة نهاوند[٣] (**فتح الفتوح**) :

كان عمر بن الخطاب لا يريد أن ينساح المسلمون في أرض فارس الواسعة ، خوفا عليهم من الفرس ، واعتبر ذلك مغامرة خطيرة في أرض غير معروفة للمسلمين ، ولا عهد لهم بها وانتهز الفرس توقف الهجمات الإسلامية في أرض فارس ، فأخذوا يتجمعون بكل ما لديهم من عدد وعدة في مدينة نهاوند ، ولما رأى ذلك التجمع للفرس الأحنف بن قيس أرسل إلى عمر

---

(١) قرقيسيا : بلدة على نهر الخابور عند مصبه في الفرات .

(٢) هيت : بلدة على الفرات إلى جهة بغداد فوق الأنبار .

(٣) نهاوند : مدينة عظيمة في جنوب همدان بينهما ثلاثة أيام ، وهي من أقدم بلاد الجبال في فارس .

مشيرا بضرورة القضاء على ملك الفرس ، وأنه لن ينقطع رجاء الفرس في النصر على المسلمين إلا إذا انساح المسلمون في بلادهم ، وأزالوا الملك عن فارس ، وأخرجوه من مملكته وعز أمته .

اقتنع عمر برأى الأحنف – خاصة – بعد أن بلغه أنه قد تجمع بنهاوند ما يزيد على المائة وخمسين ألفا من الفرس ، فكتب عمر إلى حذيفة بن اليمان أن يسير بجند الكوفة ، وإلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجند البصرة ، وإلى النعمان بن مقرن أن يسير بجنده ، فإذا التقى فكل على جنده أمير ، وعلى الجميع النعمان بن مقرن .

وسار المسلمون نحو " نهاوند " ودارت المعركة سجالا بين الطرفين ، وكلما حمى الوطيس تحصن الفرس بالحصون وأشار النعمان على المسلمين بتصنع الهزيمة حتى يبعدوا الفرس عن الحصون ، ثم يكرون عليهم ، فيقضون عليهم ونجحت الخطة ، وانتصر المسلمون ، ودخلوا " نهاوند " عنوة إلا أن النعمان استشهد في المعركة وكتموا عن الجند موته حتى لا تهن قوتهم وهم في المعركة أفتحوا اصبهان وقم . وبدأ المسلمون ينساحون في أرض فارس وتوغلوا في أعماقها .

فسار سويد بن مقرن إلى همدان ففتحها ، وسار سراقة بن عمرو نحو باب الأبواب [1] على سواحل بحر الخزر الغربية ، وسار الأحنف ابن قيس

---

(١) باب الأبواب أو الباب : اسم مدينة عظيمة على بحر طبرستان .

على راس جيش حتى دخل خراسان [١] ، واتجه عثمان بن أبي العاص على رأس جيش إلى اصطخر ، وسار عاصم بن عمرو التميمي على رأس جيش من أهل البصرة إلى إقليم سجستان . إلى غير ذلك من القواد الذين انساحوا في أرض الفرس ، وفي بلاد ما وراء النهر . وتم فتح خراسان ، وقضى على الوجود الفارسي . وفي الحقيقة بعد معركة " نهاوند " لم تقم للفرس قائمة تذكر بعد ذلك حتى أطلق على هذه المعركة " فتح الفتوح " لأن المسلمين لم يشتبكوا بعدها مع الفرس في معركة مثلها ، بل أصبح الفرس يلقون زمام أمرهم إلى المسلمين ، إما باعتناق الإسلام ، أو بدفع الجزية عن يد وهم صاغرون .

أما كسرى يزدجرد إمبراطور فارس فقد أضحى شريداً هائما على وجه يائساً من استرداد ملكه ، وأصبح طريدا في الآفاق باحثا عن مكان يأويه ، أو ينجيه ، والمسلمون وراءه حتى وصل إلى مرو ، قريبا من بلاد الترك ؛ لعله يجد معونة أو أمانا ، إلا أن ذلك لم يجده نفعا حتى مات دليلا زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان – وما أشبه الليلة بالبارحة – وما جرى لشاهنشاه الفرس ، وقد مزق الله تعالى ملكه استجابة لدعوى النبي – ﷺ – الذي كان أرسله إليه مع عبد الله بن حذافه السلمي يدعوه إلى الإسلام والسلام .

---

(١) خراسان : إقليم عظيم يقع شرق بلاد فارس ، وعاصمته مرو وبه مدن عظيمة منها بلخ ونسا وهراة .

الجبهة الرومية في عهد عمر :

لقد كان أشد ما يهم عمر بن الخطاب هو تأمين الجزيرة العربية من أطرافيها ؛ لحماية الإسلام في عقر داره ، وتمهيد الطريق للدعوة الإسلامية بين أناس عطشى إلى تعاليمه من عدالة اجتماعية واقتصادية ، ومساواة بين الناس جميعا ، لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى ، فلا تفرقه بين جنس وجنس ، ولا أسود وأبيض ، ولا بين سيد ومسود أو بين غني وفقير ، مطبقا مبدأ إسلاميا لم يعهده الناس من قبل ، وهو " **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** " ، وما ورد على لسان النبي - ﷺ - حول هذه المبادئ الحبيبة إلى نفوس الشعوب المحكومة بوسائل الاستبداد والاستعباد .

لهذا وغيره بدأ الخليفة الأول أبو بكر - ﷺ - في تنفيذ أمر الله تبارك وتعالى ، والتي كان يؤمن بها عمر بن الخطاب أشد الإيمان ، فلما تولى الخلافة عمر بعد وفاة أبي بكر سنة ٣٣هـ / ٦٣٤م كانت أعماله امتدادا للأعمال التي بدأها أبو بكر الصديق فأكمل فتح بلاد فارس ، وأصبح عليه أن يكمل ما بدأه أبو بكر الصديق في الجبهة الرومية .

وقد مات أبو بكر الصديق وتولى عمر بن الخطاب الخلافة أثناء معركة اليرموك ، وكان أول عمل قام به عمر بن الخطاب هو عزل خالد بن الوليد من القيادة العليا وتولية أبي عبيدة عامر بن الجراح القيادة وإمارة الجيش كله.

ويروى أنه ما كاد عمر بن الخطاب يبايع له بالخلافة حتى أرسل خطابا فيه عزل لخالد بن الوليد عن إمارة الجيش ، وإسنادها إلى أبي عبيد عامر بن الجراح ، وأعطى رسول عمر الرسالة إلى خالد أثناء المعركة ، فلم يرد خالد أن يخبر الجند بفحوى هذه الرسالة وهم في حالة قتال ، حتى إذا ما انتهت المعركة ، سلم خالد الرسالة إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالإمارة ، وانضوى تحت لوائه جنديا مخلصا كل الإخلاص لأنه يجاهد في سبيل الله تعالى ، حبا فيما عند الله تعالى للمجاهدين من حسن الجزاء ، وكأن شيئا لم يكن .

وهنا تتجلى العظمة الحقة لإبن الوليد ، تتجلى في انتصاره على نفسه ، وهذا هو الجهاد الأكبر جهاد النفس . تسلم خالد الرسالة ، ورضي بما فيها ، وهو في قمة المجد ، يوم انتصاره على الدولة الرومانية ، بما حشدت من جنود وعتاد حربي في اليرموك ، وبعد انتصارات رائعة على الفرس ، ومن قبل على تجمعات المرتدين . ثم سلم اللواء إلى أبي عبيدة راضية نفسه واستمر بعد ذلك يخوض المعارك في الشام ضد الروم تحت قيادة أبي عبيدة ، والنصر يغدو وراءه .

هذا هو النصر ، وذلك هو المجد ، وتلك هي العظمة التي تعتبر بحق نموذجا يحتذي به القادة وكل من وسد إليه أمره في كل زمان ومكان .

وقد قال عمر بن الخطاب – ﵁ – عن خالد ذات يوم : يا خالد والله إنك عليّ لكريم وإنك إليّ لحبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء . وقال أيضا: أمر خالد نفسه ، لقد كان أبو بكر أعلم منى بالرجال وقال أيضا : لم أعزل

خالدا عن سخط ، ولا خيانة ، ولكن الناس فتنــوا بــه ، فخفــت أن يوكلــوا ، ويفتتنوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة.

ويضاف إلى ذلك حول قضية عمر وخالــد – رضـــي الله عنهمـــا – ان الموقف كان يتطلب بعد معركة اليرموك – كبرى المعارك الحربية في الشـــام أميرا سياسيا ، يتولى الشئون السياســـية والإداريـــة بعـــد خضـــوعها لحكـــم المسلمين، وعسكريا لمواصلة الفتح والقيادة السياسية كما يراها عمر فـــي هـــذا التوقيت ، كانت تتوافر في أبي عبيده أمين الأمة ، أما خالد بن الوليد فقد فاقـــت عبقريته العباقرة في الناحية العسكرية ، لكنه لم يكن له الجانب السياســـي مـــا كان له في الجانب العسكري .

فعمر – ﷺ – رأى أن يضع الرجل المناسب في المكان المناسب . وهـــذا هو الفكر العمري البعيد المدى الموصل إلى النجاح دون مجاملة على حســـاب الدولة الإسلامية ؛ لأنه عمر الذي لم يجامل ، دليلنا على ذلك أنه لم يكن هنـــاك مكان للحقد في نفوس هؤلاء العظماء الأبطال ، الذين اعتز بهم الإســـلام . وإن استجابة خالد لأوامر الخليفة عمر بالرضى والصدق ما يؤكـــد المعنـــى الـــذي أشرنا ، ويجعلنا نقول : إن عمر لم يرد إلا خير الإسلام والمسلمين .

وأما أبو عبيدة فلم يجعل من خالد جنديا ، ولكنه كان يقدر فيـــه عبقريتـــه العسكرية ، وخططه الحربية ، التي كانت سبباً في انتصار المسلمين في أكبـــر المعارك الحربية ، خاصة معركة اليرموك .

فتوح الشام (الاستيلاء على دمشق) :

أخذ أبو عبيدة بعد أن تولى القيادة العامة بعد معركة اليرموك وفرار الروم منها يتتبع الجيوش المهزمة من الروم ، فوجدهم تجمعوا عند " فحل " فاستشار الخليفة عمر فيما يجب أن يعمله ، فأشار أن يرسل فرقة إلى فحل لتشغل من بها من الروم ، حتى لا تنضم إلى إخوانهم في دمشق ، وأقام أبو عبيدة عسكرا بين حمص ودمشق لئلا يأتي مدد من حمص إلى دمشق ، وأرسل جنداً آخر ؛ ليكون بين دمشق وفلسطين ؛ ليمنع أي مدد يأتي لها ، ثم نزل على ناحية من دمشق ، وخالد على ناحية أخرى ، وكان هرقل نازلا بالقرب من حمص وحاصر المسلمون دمشق ، وطمع أهلها في أن يأتيهم مدد من هرقل ، فصبروا على الحصار الشديد ستين ليلة ، والمسلمون يرهقونهم بالمجانيق ، وهم معصومون بالمدينة يرجون الغوث ، ولكنهم يئسوا من وصول المساعدة وكان خالد لا ينام ، ولا يبيت إلا على تعبئة ، ولا يغيب من أمر الروم بدمشق شيء لما لها من الأهمية الكبرى في العمليات العسكرية في الشام .

وقد انتهز خالد فرصة لاحت له مكنته من اقتحام أسوار دمشق ذلك أنه ولد لبطريق المدينة مولود ، فصنع طعاما ، ودعا إليه القوم فأكلوا وشربوا ، وتركوا مواقفهم ، ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد – كما قلنا آنفا – فإنه لا ينام ولا ينيم ولا يبيت ولا يخفي عليه من أمره عدوه شيء، فلما أحس خالد بما يجري في الداخل وكان قد اتخذ حبالا كهيئة السلالم فتقدم

هو ومن معه من قواد جيش العراق ، وقال لجنده إذا سمعت تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وأقصدوا الباب . وقد تم كل ذلك بسرعة فائقة ، ووثب كثير من المسلمين وانتهى خالد إلى من يليه من الروم فقتله ، وقصد الباب فقتل البوابين وكان معه القعقاع بن عمرو ، وعدد من أهل النجدة ، ووصل خالد إلى قلب المدينة ، وأدخل في قلوب الروم الرعب . وهجم المسلمون على المدينة ، حتى أيقن الروم بالهزيمة ، فطلبوا الصلح ، فصالحهم أبو عبيدة ، ودخلت جيوش المسلمين من كل باب إلا باب خالد ، فقد دخل هو منه عنوة ، إلا أنه أجرى مجرى الصلح واعتبروا فتح دمشق كلها صلحا .

وبعد فتح دمشق أمر عليها يزيد بن أبي سفيان ، الذي مد فتوحه إلى مدن صيدا وجبيل وبيروت ، وكان على مقدمة جيشه أخوه معاوية .

أما أبو عبيده فقد اتجه إلى فحل ، وكان على مقدمة جيشه خالد بن الوليد ، وشددوا عليها الحصار ، فخرج حماتها يريدون مفاجأة المسلمين ، ولكن المسلمين أحاطوا بهم ، وأحالوا بينهم وبين الرجوع إلى حصونهم ، ودارت معركة رهيبة وقاسية ، ولكنها في نهاية الأمر انتهت بهزيمة الروم وسقوط " فلح " .

الاستيلاء على حمص :

ثم تقدم المسلمون بعد فحل نحو حمص ، فلما وصل إلـى هرقـل خبـر هزيمة جنده في دمشق والأردن ، وأن نية المسلمين اتجهت نحو حمص أرسـل إلى المسلمين جيشا تحت قيادة توذر البطريق وأردفه بآخر مثله وعليـه شـنس الرومي ، مددا له ورداءً لأهل حمص .

التقى المسلمون بالجيش الرومي في مرج الروم غربي دمشق ، فكان أبـو عبيده بإزاء شنس وخالد بإزاء توذر ، وأصـبح المسـلمون وأمـامهم شـنس والأرض خلو من توذر ، ولكن ابن الوليد كان يقظا فقد علم أنه خـرج تحـت جناح الظلام إلى دمشق ؛ حسب خطة حربية دبرها الروم ، وهـي أن يخـرج توذر إلى دمشق فيهاجمها ، ويستولي عليها ، وأن يعمل شـنس علـى شـغل المسلمين عنها ، فاتفق عندئذ أبو عبيدة وخالد على أن يتتبع خالد توذر ويقتفـي أثره . وقد ظن ذلك الغر أنه سوف لا يلقى إلا حامية دمشق ، وأنـه ليقـتص للروم ويضع يده على دمشق ، ولم يدر أن خالدا فـي أثـره ، وأنـه يتحـرق لملاقاته فلما أن نشبت المعركة بينه وبين يزيد بن أبي سـفيان – الـذي خلـق لملاقاته حين بلغه مسيره إليه ، حتى لحقهم خالد من الخلف ، فأخـذتهم رمـاح يزيد من الأمام ، وسيوف خالد من الخلف ، فلم يفلت منهم إلا الشريد ، وقتـل خالد توذر وغنم المسلمون ما شاؤا من ظهر وثياب ، وناهد أبو عبيـده جنـد شنس ، وهزمهم أيضا وقتل أبو عبيده شنس ، وامتلأ المرج من قتلاهم ، وفـر من نحا منهم من القتل إلى حمص ، وتبعهم المسلمون إليها ، ولحق بهم خالد.

فلما وصل المسلمون إلى حمص شمال دمشق ، فحاصروها الشتاء كلـه، ونالهم مشقة عظيمة من شدة البرد ، ولكنهم صبروا على ما أصابهم ، وشددوا الحصار على الروم ، فطلبوا الصلح من أبي عبيده على مثل ما صالح عليه أهل دمشق ، فأجابهم إلى ذلك ، كما صالح في طريقه أهـل بعلبك [١]، ثـم صالح أهل حماة . وبعث بالخمس إلى عمر وبشره بالفتح .

فتح قنسرين :

بعد فتح حمص أرسل أبو عبيدة خالدا لفتح قنسرين ، فلما وصـل قـرب حلب إلى مكان اسمه الحاضر قابلته جموع من الروم والعرب بقيادة ميـانس ، وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل ، فهزمهم المسلمون بعد معركة حاميـة ، قتل فيها عدد عظيم من الروم ، وقتل قائدهم ميناس .

أما أهل الحاضر فقد أرسلوا إلى خالد يعتـذرون إليـه قـائلين : إنهـم عرب، وأنهم إنما حشروا ، ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل مـنهم وتـركهم ، وسار إلى قنسرين ، فتحصن أهلها ، وأظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ، فلم تغـن عنهم مع خالد شيئاً ، فأرسل إليهم خالد قائلا : لو كنتم في السحاب لحملنـا الله إليكم أو أنزلكم إلينا ، فنظروا في أمرهم ، ورأوا ما لقي أهل حمص ، فطلبـوا من خالد الصلح على مثل صلح حمص ، فأبي إلا على خراب المدينة ، وكـان ما أراد فأخربها ، ولما بلغ عمر صنيع خالد قال : أمر خالد نفسـه يـرحم الله

---

(١) بعلبك : مدينة قديمة بينها وبين دمشق اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل .

أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني . وقال فيه وفي المثنى بن حارثه[١] : إنــي لم أعزلهما عن ريبه ، ولكن الناس عظموهما ، فخشيت أن يوكلوا إليهما .

وبعد أن فتحت قنسرين سار خالد إلى مرعش [٢] ، ففتحها وأجلى أهلهـا وأخربها وكان ذلك في سنة خمس عشرة من الهجرة ، وعند ذلـك رأى عمـر بن الخطاب أن يعينه واليا على قنسرين تحت إمرة أبي عبيده ، فعينه واسـتمر واليا عليها حتى السنة السابعة عشرة من الهجرة حيث عزل ، وتـرك السـيف والجهاد ، ومات سنة إحدى وعشرين بحمص على فراشه رحمـه الله رحمـة واسعة .

فتح قيسارية [٣] :

وفي سنة خمس عشرة أرسل يزيد أخاه معاوية إلى قيسارية بأمر الخليفـة، فاستمات أهلها في الدفاع عنها حتى قتل منهم مائة ألف ، ولكنـه بعـد جهـاد طويل ، قدره بعض المؤرخين بسبع سنين .

---

(١) كان عمر قد عزل المثنى في أول خلافته ، ولكنه رجع عن رأيه لما قام بـأمر الجـيش بعـد استشهاد أبي عبيد في معركة الجسر .

(٢) مرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم .

(٣) قيسارية : بلدة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين .

معركة أجنادين [١] وفتح فلسطين :

بينما كان أبو عبيدة وخالد يستوليا على القسم الأكبر من سوريا الشمالية، كان عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة يفتحان فلسطين ففتحا طبرية ، ثـم التقيا عند أجنادين بجيش كبير من الروم ، يقوده أرطبون ، الذي كان معروفـا بالحذر والدهاء ، وبعد النظر ، وله شهرة كبيرة عند الروم ، فأخذ فـي تـدعيم حاميات القدس وغزة والرملة ، ونزل بنفسه ميدان القتال في أجنادين .

ويذكر عن عمرو أنه بعد أن عسكر بجيشه أمام أرطبون قائـد الـروم ، وطالت المدة ، ولم يستطع أن يستدرج الروم إلى القتـال سـار بنفسـه إلـى أرطبون مستخفيا في هيئة رسول لعمرو بن العاص فدخل عليه وتحدث معـه ، وتأمل حصونه واستعداداته حتى عرف كل شيء . ويقال إن أرطبون ظـن أن المتحدث معه هو عمرو بن العاص ، فصبر عليه ، ثم رصد له فـي الطريـق من يقتله ، وفطن عمرو لذلك ، فأخذ يحتال عليه ، حتى استطاع أن ينجو مـن موت محقق .

ونجح عمرو بذلك في معرفة عَدد وعُدد الروم التي سيلقاها في المعركـة. والذي يرجح ذلك الذي جرى أن عمراً كثير ما كان يستخدم أمثال هذه الحيـل التي أحرز بها النصر في كثير من المواطن .

---

(١) أجنادين : موقع قريب من الفالوجة ومكان عبور فلسطين من الجنوب .

ثم زحف الجيش الإسلامي ، ودارت معركة قاسية كادت تشبه معركة اليرموك ، بذل فيها عمرو كل ما يملك من جهد وخطط وخداع ودهاء من أجل الانتصار على عدو شديد المراسي .

وقد نصر الله المسلمين على أرطبون الروم الذي فر إلى بيت المقدس . ولقد كان من أثر هذا النصر أن دخلت يافا ونابلس وعسقلان والرملة وعكا في طاعة المسلمين وذلك في شوال سنة خمس عشرة من الهجرة على أصدق الروايات .

فتح بيت المقدس :

ثم سار عمرو إلى بيت المقدس يحدوه عاملان :

الأول : ديني لما له من مكانه في نظر المسلمين فهو مسرى رسول الله-ﷺ - وأول القبلتين ، وتشد إليه الرحال .

الثاني : سياسي وهو الرغبة في القضاء على ما بقي للروم من سلطان في الشام وفلسطين ، وتطهير البلاد منهم ليعم فيها الإسلام والسلام ، ويسود الأمن والاستقرار .

وقد اشترك في الدفاع عنها فلول المنهزمين في كموقعة أجنادين وعلى رأسهم أرطبون .

وقد حاصر عمرو بيت المقدس ، وصبر طويلا على حصارها لعلها تسلم دون إراقة دماء ، حتى مال أهلها أخيرا إلى الصلح ، فسارع عمرو بقبول هذه الرغبة ، إلا أن بطريرك بيت المقدس اشترط أن يتولى عقد الصلح الخليفة عمر نفسه ؛ لما سمع عنه من عدل وتسامح ، فكتب عمرو للخليفة بذلك فرضي عمر بالشرط ، وخرج من المدينة ، بعد بعث إلى القواد أن يقابلوه بالجابية . فكان سفره أول رحلة قام بها خليفة المسلمين خارج بلاد العرب ، وسار حتى وصل الجابية ، وكان أول من قابله يزيد بن أبي سفيان ، ثم أبو عبيدة ، ثم خالد بن الوليد على الخيول وعليهم الديباج والحرير فلما رأى الخليفة ذلك كثر عليه أن يرى القوم في هذه الزينة ، وهم قريبوا عهد برسول الله -ﷺ- وخشي عليهم فتنة الدنيا وانغماسهم في الترف ، وترك الجد من الأمور ، فعاتبهم على ذلك ، فاعتذوا إليه ، وأن السلاح تحت ملابسهم ، وأنهم اضطروا إلى هذه المظاهر أمام أهل البلاد ، حتى لا يهون أمرهم عندهم ؛ لأن مقاييس هذا الشعب لا تعترف إلا بالمظاهر ، وقد قبل عمر منهم عذرهم .

وأقام عمر بالجابية حتى جاءه وفد بيت المقدس - إيلياء - وخيارها يطلبون الصلح فصالحهم ، وكتب لهم كتابا أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ؛ وصلبانهم . وكان مما كتبه أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ، ولا من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وقد شهد على هذا الكتاب خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف

ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ، وكانت هذه المعاهدة في سنة خمس عشرة .

وبعد أن أعطاهم عمر الأمان سار إلى بيت المقدس حتى دخل كنيسة القمامة ، وحضره وقت الصلاة فيها ، فقال للبطريرك : أريد الصلاة فقال له: صل موضعك ، فامتنع عمر وخرج وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفردا ، فلما قضى صلاته قال للبطريرك : لو صليت داخل الكنيسة ، لأخذها المسلمون من بعدي ، وقالوا : هنا صلى عمر ، ثم قال : أرني موضعا أبني فيه مسجداً ، فقال له : على الصخرة : أي صخرة بيت المقدس، فذهب إليها ، فوجد عليها ترابا كثيرا ، فشرع في إزالته ، فتناوله بيده يرفعه في ثوبه ، واقتدى به المسلمون جميعاً ، فحملوه في ثيابهم ، ثم أمر ببناء المسجد بجانب هذه الصخرة ، ولا يزال هذا المسجد قائما ، ويسمى مسجد عمر .

ولم يقم عمر إلا بمقدار الصلح ، ووضع أساس المسجد ، وتقسيم فلسطين إلى ولايتين ، أحدهما قصبتها الرملة والأخرى بيت المقدس ، وكان ذلك في ذي الحجة سنة خمس عشرة .

فتح الجزيرة وأرمينية :

في السنة السابعة عشرة للهجرة ، شرعت الدولة الرومانية فـي مشـروع الغرض منه إخراج المسلمين من الشام ، أو على الأقل من جهاتها الشـمالية . وكان الباعث على هذا المشروع استنجاد القبائـل المسـيحية السـاكنة أعـالي العراق – أي منطقة الحدود بين فارس والروم – بكل من الفـرس والـروم . ولما كانت القوة البحرية البيزنطية لا تزال علـى قوتهـا ، لـم يصـبها مـن المسلمين بهزيمة ، فقد عزم هرقل على استخدامها في إغاثة أعـالي العـراق برد المسلمين عن شمال الشام .

وسير هرقل حملة بحرية من الإسكندرية لمهاجمة إنطاكية بحراً ، وجهـز قبائل البدو لمهاجمة حمص . وفوجئ أبو عبيده بكل هذا ، فضم إليه مسـالحه ، وعسكر بفناء حمص ، واستشار أصحابه في المناجزة أو التحصـين إلـى أن يأتيه مدد ، فأشار خالد بن الوليد بالمنـاجزة ، وأشـار سـائرهم بالتحصـين فأطاعهم ، وكتب إلى عمر بذلك ، فأرسل الخليفة إلى سعد بـن أبـي وقـاص يطلب منه إرسال نجده من الكوفة بقيادة القعقاع ليزيل الخطر عن حمص كمـا طلب منه أن ينفذ حملة أخرى إلـى شـمال العـراق لتجـذب إليهـا قـوات البيزنطيين، فيخف بذلك الضغط عن شمال الشام .

وبينما هذه النجدات تنفذ أمر الخليفة كانت الحملة البحرية البيزنطيـة قـد نزت من السفن قرب أنطاكية ، ثم هاجمت المدينة ، ففـتح سـكانها الأبـواب للبيزنطيين ، ووصلت أخبار ذلك إلى حلب وقنسرين وغيرهمـا مـن المـدن

القريبة ، فانفجرت فيها كلها ثورة ضد المسلمين . فرأى أبو عبيدة أن يعتصم بحمص حتى تأتيه النجدة من الكوفة غير أنه حدث ما لم يكن في الحسبان ؛ إذ تخاذلت قبائل البدو التي وجهها هرقل ضد حمص ، ورجعت إلى أماكنها ، فاستغل أبو عبيدة الفرصة ، فخرج من حمص وهزم الجيوش البيزنطية قبل أن تصله النجدات العراقية التي كانت في طريقها الى حمص وقدم القعقاع بعد ذلك بثلاث ، فكتبوا إلى الخليفة بالفتح ، ووصول المدد . وعلى هذا فشل المشروع البيزنطي في إعادة أعالي بلاد الشام للروم ، وثبتت أقدام المسلمين في بلاد الشام ، وتمت لهم السيطرة عليها كلها من أنطاكية شمالاً إلى مصر جنوباً .

فتح مصر :

إن موجة الفتح الإسلامي التي اندفعت بقوتها الهائلة إلى شمال الشام وجنوبه لا يمكن أن تتلاشى أو تنحسر على حدود مصر ، بل لا بد أن تستمر حتى تطرد الروم من تلك البلاد ، خاصة وأن عرب المسلمين أصبحوا قوة تزداد نماءً يوما بعد يوم ، بعد الانتصارات الحاسمة التي حققوها ، وأصبحت قوة مخيفة للروم للبيزنطيين الذين كانوا في حاجة إلى توحيد صفوفهم وإزالة ما كان بينهم من خلاف هدد كيان دولتهم ، وخاصة الخلافات الدينية التي زادت اشتعالا ، خاصة بعد أن عين هرقل الأسقف قيرس رئاسة الكنيسة في الإسكندرية التي كانت عاصمة لمصر آنذاك عينه لكي يجمع الناس على المذهب الجديد الذي ابتدعه ؛ للتوفيق بين اليعقوبيين في مصر ، والملكانيين

في بيزنطة . وكان الخلاف بين المذهبين شديدا حول طبيعة المسيح ، وهل هو من طبيعة واحدة ، كما هو مذهب اليعاقبة ، أم من طبيعتين كما هو مذهب الملكانيين ، وزاد من الشد تعيين قيرس ، إذ كان رجلا قاسيا غشوما ، أساء إلى القبط في مصر ، وعسف بهم حتى كرهوا اسمه ، وخاصة بعد أن صار واليا عليهم ، وجمع بين الرئاستين الدينية والسياسية ، وبدلا من أن يعمل على حل الخلافات سلميا ، ولا حل له سواه حاول فرض المذهب الجديد بقوة السلطان ، وهو أمر لا يمكن قبوله ؛ لأن القبط في مصر تغلغل مذهبهم اليعقوبي في نفوسهم ، وأصبح عقيدة يبذلون في سبيلها كل شيء مهما عظم الأمر ، واشتد الخطب ، والعقيدة لا تتغير بالقوة أبدا ، وإنما بالاقتناع والحُجة البينة .

لهذا نفر المصريون من المذهب الجديد نفورا بلغ بهم حد التضحية بالحياة . هذا بالإضافة إلى ضيقهم من حكم الرومان ، ونظامهم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ، مما جعلهم يثورون في وجه الحاكمين للإرهاق الذي نزل بهم ، والبطش الذي قطع رجاءهم ، وبدد كل أمل في السلام بينهم وبين حكام الروم – قيصر وقيرس – كل ذلك في وقت كان الرومان في أحوج ما يكون إلى الاتفاق ؛ للوقوف أمام قوة المسلمين الغالبة بفضل الله .

لعل القبط في مصر رأوا بسبب ذلك أن مجيء المسلمين قد يخفف عنهم متاعب هذا الحكم البغيض ؛ الذي نغص عليهم حياتهم ، وأذاقهم من العذاب ألوانا .

ومما لا شك فيه أن عمرو بن العاص صاحب فكرة فتح مصـــر لأســباب نوجزها فيما يلي :

أولاً : كانت مصر درة التاج في الدولة الرومانيـــة ؛ لكثــرة خيراتهـــا ووفـــرة غلاتها ، وكان عمرو يعرف أحوالها وظروفها التي سبقت الإشارة إليها. عرفها من خلال زيارته لها قبل إسلامه ، وعرف ما كان يجـــري فيهـــا من الفتن والاضطرابات والاضطهادات ، الأمر الذي يساعد على الفـــتح، كما كان قريبا منها وهو في الشام ، ويعرف أن القـــبط إن لـــم يســـاعدوا العرب على الفتح فإنهم سيقفون موقفا سلبيا ، موقف المنتظر على الأقل، فلا حماسهم تدفعهم إلى مساعدة الروم ، ولا رابطة دينيـــة أو جنســـية أو لغوية تربطهم بالرومان ، وإنما كانت العلاقات سيئة للغاية للظلم الواقـــع بهم بكل ألوانه ؛ مما جعل موقفهم سلبيا على الأقل .

ثانياً : لقد رأى عمرو بن العاص – ﷺ – أن هـــذا التوقيـــت بالـــذات ، هـــو فرصة يجب ألا تضيع ، فالروم قد أذهلتهم ضربات المســـلمين الســـريعة في الشام ، ولجأ بعضهم إلى مصر يعتصمون ، وقـــد يجمعـــون شـــملهم فيها لجولة أخيرة – ومصر أعز ما تملكه الدولة الرومانية ، فلابـــد مـــن تعزيز قوتها ، وعاصمتها الإسكندرية على البحر المتوسط ، تساعد على تقويتها عسكريا ، وإمدادها بالعتاد الحربي عن طريق البحر ، وقبـــل أن يتخذها الروم مركزا هجوميا على المسلمين في الشام ، فلا بد أن يفوتـــوا عليهم تدبيرهم وأملهم .

يؤيد هذا قول بعض المؤرخين : أن حاكم الرومان على بيت المقـدس قـد هرب إلى مصر ، وأخذ يجمع فيها جنود الروم فينبغي ألا يترك الوقت يضـيع سدا ، بل يجب أن يفوت عليه أهدافه ويؤخذ على يديه قبل أن يصـبح خطـر على المسلمين بهجومه من مصر على جنوب الشام .

هذا بالإضافة إلى مميزات مصر ، وأهميتها استراتيجيا واقتصاديا ، ومـا تقدمه للمسلمين بعد الفتح إن شاء الله تعالى ، ولعل مـن الواضـح أن مصـر بمركزها الممتاز سيكون له أكبر الأثر في سلامة الفتوحات واسـتقرارها بيـد المسلمين في الشام ، وما يستتبع ذلك فتوحات في الشمال الإفريقـي ؛ لتطهيـر البلاد من الروم ونشر الإسلام في ربوع تلك النواحي .

ثالثاً : شخصية عمرو بن العاص وإيمانه بنصر الله تعالى للمسلمين ، وصـدق رغبته في الجهاد في سبيل الله تعالى لنشـر الـدعوة الإسـلامية ، بعـد إنقاذها من طغيان الرومان الذي ظل جاثما على صدرها طيلـة القـرون السابقة على الإسلام ، خاصة ، وأنه اكتسب في حروبه مع الرومان فـي الشام تجارب نافعة زادته إيمانا بالنصر عليهم في مصر .

لهذا ولغيرها مما يحس به عمرو ويقدره انتهز فرصـة وجـود الخليفـة عمر بن الخطاب في الشام ؛ ليعقد المعاهدة التاريخيـة مـع بطريـرك بيـت المقدس وتحدث معه في فتح مصر ، وقد استمع له الخليفة فـي أدنـاه وحـذر وتفكير في هذا العرض ، خاصة في ذلك الوقت الذي لم تستقر فيه الفتوحـات الإسلامية في الشام استقرارا كاملا ، كما كان الخليفة يخشى علـى المجاهـدين

المسلمين من أن يتعرضوا لمخاطر أو متاعب ، كما كان يقدر المصاعب التي قد تتعرض لها حملة تقصد مصر وقد تجمعت فيها جيوش الروم كثيرة العدد لجولة أخرى ، كما كان يرى أن إرسال حملة إلى مصر قد يضعف العسكر القائمة في الشام .

إلا أن عمراً ما زال به يناقشه في الأمر ، ويهون عليه أمر الفتح ، وأنه يعرف مصر ، ومدى قدرتها ، وما يجري فيها من نزاع ، ومقدار كراهية القبط للرومان ، ولهفتهم على التخلص من حملهم البغيض ، وأن جيشا لا يزيد عن أربعة آلاف جندي كافيا لفتحها .

كما أخذ عمرو بن العاص في شرح بيان الضرورة الحربية والسياسية بل والاقتصادية اللازمة لفتحها ، وما يعود على المسلمين من الخير والنفع وتثبيت الفتوحات في الشام ، وحمايتها ، ونشر الإسلام في قطر جديد ، ولم ييأس عمرو فيما طلب ، بل أخذ يلح على الخليفة ، ويشرح المزايا والفوائد من الفتح ، حتى مال الخليفة إلى مشاركة عمرو في الرأي ، خاصة وأنه يتوسم فيه القدرة الحربية والسياسية .

وأخيرا أذن الخليفة لعمرو بالمسير إلى مصر لفتحها وقال له : سر وإني مستخير الله تعالى في الأمر ، وذلك لأنه كانت تتنازعه عوامل السلامة وعوامل الدفاع ، وتأمين ممتلكات الدولة الإسلامية في الشام ، بل وطرد الروم من كل أوكارها نهائيا ، وتطهير الأرض من متاعبهم ، وما يحدثون فيها من قلاقل ، خاصة بعد الذي جرى لهم بالشام .

وهل كان يخفى على الخليفة ما يترتب على فتح مصر وإنقاذها من براثن الظلم الذي كان جاثما على صدرها طوال القرون السابقة على الإسلام ثم ما يترتب على الفتح من خيرات اقتصادية وسياسية وعسكرية ، الجواب على ذلك بالنفي ، وإنما كان - ﷺ - يعرف عن عمرو بن العاص أكثر مما نعرف ، ولعله ظن أن عمرا كان يهون عليه من شأن الفتح ، ويقلل من الصعوبات التي تعترضه أثناء الفتح حتى ينتزع من الخليفة الموافقة ، وأن قول الخليفة عمر له : " سر وإني مستخير الله تعالى ، يفيد أن عمر بن الخطاب كانت تتنازعه عوامل من الموافقة وعدم الموافقة - كما كان - ﷺ - لا يبرم أمراً إلا بعد المشورة ، فكانت الشورى التي أكثرها عمر تجعله يستفتي ويشاور ويستمع للعامة والخاصة متوخيا تمحيص الرأي لإبراء الذمة حتى يصل إلى السلامة - ومما يجب التنويه به أن عمر كان يحسن الموازنة بين الآراء ، فكان كما يقول الأستاذ العقاد : " كان عمر عبقري هذا الفن الذي لا يجاري - إلى أن يقول : فكان كما يروي " يوسف الماجشون " إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم - إلى أن قال العقاد : وأن الشورى التي وضع دستورها هي شورى الرأي الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء - لهذا كان عمر يفكر في الأمر حتى وصل عائداً إلى المدينة .

ولما وصل عمر بن الخطاب - ﷺ - عقد مجلس الشورى بعد عرف رأى الأحداث ، وعرض عليهم الأمر ، فعارض عثمان بن عفان - ﷺ - ، فقد رأى أن تلك الغزاة عظيم الخطر ، وقال : يا أمير المؤمنين إن عمراً فيه

جرأة وحب للإمارة فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة ، فيعرض المسلمين للهلكة ، وجاءت فرصة لا يدري أيكون أم لا ، كما رأى غيره هذا الرأي .

وماذا عمر وقد خرج الجيش ، وأن عودته تعتبر خذلانا وخوفا ، بل وجبنا من لقاء الروم في مصر ، وأن مخالفة رأي عثمان ومن وافقه فيه مخالفة وخروج على مبدأ الشورى .

ولكن الله تبارك وتعالى وفق عمر كل التوفيق بالكتاب الذي أرسله إلى عمرو بن العاص ، وقد قال له فيه : " إن أدركك كتابي هذا قبل أن تدخل أرض مصر فارجع إلى موضعك "، وبذلك يخرج عن مخالفة الشورى – " وإن كنت قد دخلت فامض لوجهك وإن ممدك " وبذلك يكون قد حافظ على سمعة الجيش ، وهيبة المسلمين ؛ فعمر لم يرد أن يخرج على رأي مجلس الشورى إلا إذا ترتب على ذلك ما يسيء إلى سمعة الجيش .

أما ما يروى من أن عمراً لما وصله الخطاب قبل أن يدخل أرض مصر وأدرك بفطنته ما يحتوي عليه الكتاب من أمر العودة ، وهو لم يدخل مصر فلم يتسلمه حتى يدخلها ، فهي رواية تنقصها التحقيق العلمي لأنه غير معقول أن يعرف عمرو ما في الخطاب قبل أن يتسلمه من رسول عمر ، وخصوصا أن المرسل عمر .

مسير الحملة :

لم يكد عمرو يظفر برأي الخليفة سرا حتى سار في آخر السنة الثامنة عشرة للهجرة الموافق سنة ٦٣٩م على رأس جيش عدده أربعة آلاف تقريبا متجها نحو مصر ، ولما وصل العريش ضرب حولها الحصار حتى سلمت ، ثم يمم وجهه نحو الغرب في طريقه إلى الفرما [١] ، فحاصرها وشدد عليها الحصار قرابة شهرين حتى سقطت في يد المسلمين ، وتعد الفرما مفتاح مصر من ناحية الشرق ، بذلك أمن عمرو ظهره بالاستيلاء عليها سنة ١٩هـ وهدم عمرو أسوارها ، حتى يضيع على الروم فرصة عودتهم إليها واتخاذها معسكرا لهم . ثم وصل المسلمون السير نحو القنطرة ملتزمين الصحراء .

وقد فضل عمرو ذلك على الطريق الداخلي ، لكي تكون الصحراء بجانبه يلجأ إليها عند الخطر ومن ناحية أخرى فإنه يريد أن يتجنب الأرض الزراعية المزدوجة بالسكان مخافة أن يقطع سكانها عليه الطريق . ويضاف إلى ذلك أنه أراد أن يتجنب عبور القنوات المائية وفروع النيل التي تعوق المسير عن التقدم السريع الذي كان يبغيه ، لهذا أخذ يضرب في الصحراء مخترقا وادي الطميلات عند التل الكبير حتى وصل إلى بلبيس . ومن الغريب أن الروم لم يتحركوا عندما وصلتهم أنباء سقوط الفرما ، ولعل ذلك كان اعتمادا على قوة حاميتها ، وأنها تستطيع الدفاع عن نفسها ، بل وتصد المسلمين عن التقدم .

---

(١) الفرما : بلدة على حدود مصر من الشرق ، بينها وبين بحر الروم ميلين وهي بلدة قديمة العهد ، وتعتبر مفتاح مصر ، واسمها اللاتيني " بلوزيم " والقبطي " فريون "

فتح بلبيس :

ولما وصل المسلمون بلبيس ضرب حولها الحصار لمدة شهرين ، ثم دارت معركة حامية الوطيس ، انتهت بهزيمة أريطيون ، وانتصار عمرو انتصاراً باهرا . فقد روي أنه قتل من الروم ألف قتيل ، وأسر ثلاثة آلاف أسير ، وكان من بين الأسرى " أرمانوسه " بنت المقوقس [١] بطريق الإسكندرية ، فأرسلها عمرو إلى أبيها مكرمة في جميع مالها ، فسر أبوها من هذا العمل وقدره .

سقوط أم دنين [٢] وعين شمس[٣] :

بعد سقوط بلبيس لم يبق بين العرب ، وبين رأس الدلتا إلا مسيرة يوم واحد فقط ، فسار عمرو جنوبا ومر بمدينة " هليوبوليس " حتى وصل " أم دنين " فنشبت بينه وبين الروم معركة هائلة ، انتهت باحتلال أم دنين وعين شمس . وقد دبر عمرو خطة حربية موفقة ، فقسم الجيش إلى ثلاثة أقسام ، لاقي تيودور قائد الروم بجزء من الجيش ، ووضع كمينا للروم في

---

(١) كانت أرمانوسه في طريقها إلى قيصريه لتزف إلى قسطنطين بن هرقل ، فلم علمت أن قيصرية حاصرها العرب عادت إلى مصر بمن معها من الخدم والمال ، ولم تكد تصل إلى بلبيس حتى جاءت جيوش المسلمين وحاصرتها ، ثم أسرت بعد سقوط المدينة .

(٢) أم دنين : قرية صغيرة على النيل ، تقع على الشمال من حصن بابليون . مكانها الآن حديقة الأزبكية .

(٣) هليوبوليس : لفظة يونانية معناها مدينة الشمس ، تقع على مقربة من المطرية الحالية ، وسماها العرب عين شمس .

الجبل الأحمر شرقي العباسية ، وكمينا آخر قرب أم دنين ، ولما حمي وطيس المعركة خرج الكمين الذي وضع عند الجبل على الأعداء ، فتراجعوا إلى أم دنين فأخذهم الكمين الذي عندها ، فاختل نظامهم ، وتشتت شملهم ، وانهزموا إلى حصن بابليون (١) ، فتبعهم إليه .

حصار بابليون :

لما انهزم الروم إلى حصن بابليون قصده عمرو وحاصره ، وأمر بنصب الخيام فيما بين المقطم والحصن ، وبدأت المناوشات بين الجيشين وطال أمرها ، ولم تؤد إلى نتيجة لمناعة الحصن ، ورأى عمرو ذلك فكتب إلى الخليفة يطلب منه المدد ، فأمده بأربعة آلاف وعلى رأس كل قوة قواد مشهورين منهم : الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد ، وخارجه بن حذافة ، وأرسل إليه يقول : لقد أنفذت إليك أربعة آلاف على كل ألف منهم رجل بألف .

ولما أتى المدد شدد الحصار على الحصن ، واستمر الحصار سبعة أشهر تقريبا ، حتى أيقن الروم أن لا بد لهم من التسليم يوما للعرب ولهذا اتفقت كلمتهم على المفاوضات ، وكونوا وفداً لذلك .

وقد فتح الباب الحديد المؤدي إلى النهر ، واستقل الوفد السفن وعبروا إلى جزيرة الروضة ، فلما بلغها الوفد أرسل إلى عمرو جماعة على رأسهم

---

(١) بابليون : حصن منيع على النيل ، وموضعه الآن مصر القديمة وكانت تسمى بقصر الشمع .

أسقف بابليون ، فلقيهم عمرو وأكرم وفادتهم ، وأمر باحتجازهم أياما ، حتى يروا أحوال المسلمين ، وما هم عليه من حياة دالة على الجد من السلوك . ثم سلموا رسالتهم ، وقالوا : إنكم قوم ولجتم في بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم في أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة . وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدد والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم ، نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بينكم وبيننا على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال ، قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم تندمون إذا كان الأمر مخالفا لطنبتكم .

وقد صرح عمرو للوفد بالسير في معسكر المسلمين ليروا أحوالهم ومالهم من قوة ونظام ، وصبر على الجهاد ، والرغبة في الشهادة في سبيل الله تعالى، ثم بعث معهم رسالة للمقوقس قال فيها : " ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما دخلتم في إسلام ، فكنتم إخوانا لنا ولكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإما جاهدناكم ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

وبعد فترة عادت رسلهم ، فسألوهم عن حال قوم ، وكيف رأيتموهم فأجاب رئيس الوفد : رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، وليس لأحدهم في الدنيا رغبة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم ، لا يعرف كبيرهم صغيرهم ، ولا السيد من

العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد ، يغسلون أطـرافهم بالمـاء ، ويخشون في صلاتهم .

وقد اهتز " قيرس " لما سمع من صفات العرب ، التـي لا يصـلح معهـا المكر ، أو الخديعة ، ومناجزتهم لا تقوى أمامها قوة الروم وأنهم لـن يغلبـوا عن قلة ، ما داموا يحبون الموت على الحياة ابتغاء ما عنـد الله تعـالى مـن الجزاء ، ولذلك اشتدت رغبته في مصالحة العرب ، فأرسل إليه يطلـب منـه إرسال وفد للمفاوضة في الصلح ، فبعث إلية عشرة رجال من المشـهور لهـم برجاحة العقل ، وحسن الحوار ، فيهم عبادة بن الصامت .

وكان عبادة شديد السواد ضخما طويلا ، له من الشخصية ما تحمل علـى المهابة ، وجعله لسان القوم المتكلم مع المقوقس – وفي هـذا الاختيـار دليـل على الإسلام يسوي بين الناس جميعا ، لا فرق بين أبيض وأسود ، ولا عربـي وعجمي إلا بالتقوى .

ولما دخل الوفد على المقوقس ، وتقدمهم عبـادة بـن الصـامت ، هابـه المقوقس ، وارتعدت فرائصه ، ثم قال : " نحو عني هذا العبد الأسود وقـدموا غيره ليتكلم معي ، فقالوا جميعا : إنه أفضلنا رأيا وعلما وقولا وهـو خيرنـا ، والمقدم علينا ، وإننا جميعا نرجع إلى رأيه وقوله وقد أمـره الأميـر دوننـا ، وأمر ألا نخالف رأيه وقوله ، ثم قالوا : " إن الأبيض والأسود سـواء عنـدنا ، لا يفضل أحد على أحد إلا بالتقوى ، فقال المقوقس بدا عليه الكثير من الخـوف والرهبة : تكلم برفق ، ولا تزعجني ، فقال عبادة – ﷺ – : إن فيمن خلفـت

من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد مني سواداً ، وإني لا أهاب مائة رجل من رجل من عدوي استقبلوني ، وكذلك أصحابي ، لأن رغبتنا وهمتنا في الجهاد لله تعالى ، وإتباع رضوانه ، وليس غزونا لعدونا ممن حارب الله تعالى لرغبة في الدنيا ، ولا طلباً للاستكثار منها ، لأن غاية أحدنا أكلة يأكلها يسد بها جوعه ، ليله ونهاره ، وشمله يلتحفا ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، وإنما النعيم في الآخرة .

لقد كان لهذا الحديث أثر كبير في نفس المقوقس حول أفكاره ونظره نحو المسلمين ، وأن هؤلاء القوم لن يغلبوا عن قلة ، والتفت إلى أصحابه وقال لهم: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل ، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض ، ثم أقبل على عبادة فقال : " أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك ، وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما ظهرتم على ما ظهرتم عليه إلا لكراهيتكم وبعدكم عنها . وقد توجه إلينا لقتالكم من الروم ما لا يحصى عدده، قوم معرفون بالنجدة والشدة ، لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، ونحن تطيب أنفسنا لمصالحتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصروا إلى بلادكم .

إن موقف المقوقس بعد ما سمع ورأى لعجيب ، إن دل على شيء فإنما يدل على التغابي ، وسوء الفهم للموقف ، فماذا قال عباده في رده عليه ؟ : يا هذا لا تفرق نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم فلعمري ما كان هذا بالذي تخوفنا به ، وإن كان ما قلتم

حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالكم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه ، إن قتلنا على آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما من شيء أقر لأعيننا ، ولا أحب لنا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين : إما أن تعظم لنا الغنيمة في الدنيا إن ظفرنا بكم ، وغنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، فإن الله عز وجل يقول في كتابه الكريم : (**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**) . وما منا رجل إلا وهو يدعو الله تعالى صباحا ومساءً أن يرزقه الشهادة ، ولا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده وإنما همنا ما أمامنا ، فانظر الذي تريد فبينه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة تقبلها منك ، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيها شئت ، ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهي عهد من رسول الله - ﷺ - من قبل إليها .

ولما يئس المقوقس من تعديل المقترحات التي عرضها عبادة بن الصامت عليه ، ولم يكن من سبيل بعد محاولات ذهبت بدءاً إلا الإذعان بقبول الجزية ، وقد بينها وبين أغراضها عبادة بن الصامت للمقوقس وأنهم إذا دفعوها كانوا آمنين على أنفسهم وذرياتهم وأموالهم ، وعلى المسلمين حمايتهم من أي اعتداء ، كما ستحفظ لهم كنائسهم ، فلا يتعرضون لأحد منهم بسوء ، كما ستبقى جميع الوظائف بأيديهم .

عندئذ مالت نفس المقوقس إلى السلم ودفع الجزية ؛ حيث رأى أنه لم يكن سواها مخرجا .

أما قائد الجند وبعض كبار القوم فقد خالفوا المقوقس ومالوا إلى القتال . وخرج القائد من الحسن للقاء المسلمين ، الذين كانوا أعلى فلم تذهلهم المباغتة، بل أوقعوا بالروم هزيمة ساحقة مما عزز رأيه في الصلح فوافق الجند على كره منهم ، وأبرم الصلح مع عمرو بن العاص على دفع الجزية بشرط موافقة الإمبراطور ، لهذا سار المقوقس إلى الإسكندرية ، وأرسل المعاهدة إلى هرقل إمبراطور الروم في بيزنطة ، إلا أن الإمبراطور رفضها، وأرسل رسالة عاجلة إلى المقوقس يستدعيه فورا إلى القسطنطينية للأهمية .

فذهب المقوقس إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور ، فأخذ الإمبراطور يسأله عن أسباب قبوله الصلح مع العرب ، وهو يشرح الأسباب ، ويبرر موقفه في عقد المعاهدة ، لكن الإمبراطور غاب عن فكره وعقله ، ونسي موقفه الذي تلطخ بالعار حين ترك الشام إلى غير رجعة من أثر ما حاق بهم من هزائم . غاب عنه وغيره ، فرفض الصلح ، واتهم المقوقس بالخيانة والخور ، ثم حكم عليه بالنفي .

وصل نبأ رفض الإمبراطور للصلح إلى عمرو بن العاص فانتهت الهدنة، واستؤنف القتال . وكان النيل قد بدأ يهبط فتنخفض بانخفاضه المياه التي في الخندق ، وتضعف آمال الروم ، وتقوى آمال المسلمين ، ولما فرغ الخندق من مائه استعاض الروم عنه بأن رموا في قاعه حسك الحديد ، فطعم

العرب بعض أجزاء الخندق حتى ينفضوا منه ، ولكن كان الحصن لا يزال منيعا .

وفي مارس سنة ٦٤١م ، أتت بموت هرقل ، فيئست الحامية وقوي أمل المسلمين ، وقال الزبير بن العوام : إني أهب نفس لله ، ونصب سلماً ، وصعد عليه ، وكبر فكبر المسلمون لتكبيره ، وصعدوا خلفه فلما سمع الروم التكبير ظنوا أن المسلمين أقتحموا الحصن ، وخاف قائد الروم على نفسه وعلى من معه ، فطلب من عمر الصلح على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم ، فقبل عمرو الصلح على الرغم من معارضة الزبير الذي كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة .

وبسقوط حصن بابليون ، فقد الرومان نصف مصر وإن لم يكن أكثر من النصف . وكان سقوطه في يوم الاثنين ٩ من ابريل سنة ٦٤١ ، وكان حصاره ثمانية أشهر .

فتح الإسكندرية :

أرسل عمرو إلى الخليفة يبشره بفتح حصن بابليون ، ويطلب منه مدداً ، فإنه رأى أن يسير إلى الإسكندرية قبل أن يعود النيل إلى فيضانه ، فأقام على مصر مسلحة من المسلمين عليها خارجة بن حذافة السهمي ، ثم سار على رأس جنوده ، وسار معه جماعة من رؤساء القبط يصلحون له الطريق ، ويقيمون الجسور والأسواق .

وكانت الطريق التي اتخذها عمرو شاطئ النيل الغربي ، فسار حتى وصل " نيقيوس "[١] فعبر النيل إليها ، وكان يدافع عن المدينة " دومنتيانوس " ولكنه لم يكد يرى المسلمين يعبرون النهر حتى اعتراه الخور ، فترك جيشه وأمعن في الهرب إلى الإسكندرية ، وتبعه جنده ، فلم يتركهم عمرو بن العاص بل تبعهم ، وقتل منهم عدداً كبيرا ، وفتحت نيقيوس .

وبعد فتح نيقيوس أصبح الطريق مفتوحا إلى الإسكندرية ، وقد انتهز فرصة تقهقر الروم إلى عاصمتهم الإسكندرية . فلم يقم بنيقيوس بل عبر النيل إلى الغرب ، وسار في طريقه إلى الإسكندرية فاتحا المدن والحصون التي تقع في هذا الطريق ، فتح طرّانه ، ونيقوس ، وسلطيس ، وكوم شريك[٢] ودمنهور ، والكريون .

وكان حصن الكريون آخر حلقه في سلسلة الحصون التي تربط ما بين بابليون والإسكندرية ، ولم تكن في مناعة نيقيوس ، ولكن الروم عملوا على أن يقفوا في هذا المكان الوقفة الأخيرة في وجه العرب ليمنعوهم من دخول الإسكندرية . وكان كل من القائدين عمرو بن العاص وتيودور قائد الروم يعتقدان أن هذه المعركة فاصلة فاستماتا في القتال ، واستمرت المعركة عشرة أيام أصيب فيها كثير من المسلمين ، وعلى الرغم من حسن بلاء الروم فإنهم

---

(١) نيقيوس : مكانها الآن قرية شبشير الحديثة وتقع عند ملتقى ترعة الفرعونية بفرع رشيد . وكانت مدينة عظيمة ذات شأت عظيم .

(٢) الطرانة : قرب كفر الدوار مركز كوم حمادة ونقيوس : بمحافظة البحيرة وسلطيس على ست أميال جنوب دمنهور ، بين كوم شريك والكريون .

يئسوا ، وتقهقروا بانتظام إلى الإسكندرية ، وسقط الكريون في يـد العـرب ، وأصبحت الطريق مفتوحا أمامهم الإسكندرية فساروا إليها ، وما هـي إلا أيـام قلائل حتى أشرفوا على أسوار عروس البحر المتوسط ، وأجمل ثغوره .

حصار الإسكندرية :

كانت الإسكندرية قوية التحصين يحميها البحر مـن الشـمال ، وتحميهـا القنوات والترع من الجنوب والغرب ، وتمتد فـي أسـفلها بحيـرة مريـوط ، وتحيط بها أسوار عالية . أما الناحية الشرقية فكانت أسوارها قويـة ومجهـزة بكل الأسلحة العلمية المعروفة في ذلك العصـر . وكانـت المدينـة موفـورة الذخيرة والمؤن ، تروح السفن وتغدو إلى مينائها في البحر الأبيض ، ويشرف على حمايتها مسلحة عدتها خمسون ألف مقاتل بقيادة تيودور .

ولما رأى عمرو أن المدينة محصنة تحصينا قويا أراد أن يجـرب قوتـه فحمل على المدينة بمجرد وصوله إليها ، فلم يفز بشيء ، ففكـر فـي طريـق آخر غير طريق الهجوم ، وهي استدراج حامية إلى خارج الأسوار وهزيمتها، ولكن من يدري ، فقد تخرج الحامية ، وقد لا تخرج ؟ إذن فمـاذا يصـنع ؟ ، رأي أن يترك جيشا كافيا ليرابط أمام المدينة ، وأن يسير هو في سَـرِيّة مـن الجند فيضرب بهم في بلاد مصر السفلى قبل أن يجيء موسم الفيضان ، فسـار إلى الكريون ، ومنها إلى دمنهور ، ثم صار إلى إقليم الغربية ، فضـرب فيـه حتى وصل سخا ، ومنها تحرك إلى الجنوب حتى وصل طوخ ، ومـن طـوخ عبر فرع دمياط إلى دمسيس .

ويقال أنه لم يفتح هذه البلاد لمناعة أسوارها ، أو لإحاطة المياه بها ، وبعد هذه الرحلة الطويلة التي استغرقت نحو سنة كاملة في إقليم الدلتا رجع إلى الإسكندرية ، وكانت ظروف مواتية ، فقد أرجع الإمبراطور " هرقلوناس" بن هرقل حاكمه على مصر ، وفوض له مصالحة العرب . وكانت الانقسامات الدينية في الإسكندرية متحدة والانقسام السياسي على أشده . كل هذا أضعف همم الإسكندريين ووضع بأسهم بينهم ، فهاجر بعضهم بحراً ، ومن بقي كان يرى أن القتال لا فائدة ترجى منه فاتفق الزعماء والقواد على مصالحة العرب . وكانت معاهدة الإسكندرية .

معاهدة الإسكندرية :

يروى أن هذه المعاهدة عقدت في بابليون ، وقد عقدها على يد المقوقس الذي سار إلى عمرو فأكرم وفادته . وبعد مفاوضات طويلة اتفق الطرفان على ما يلي :

١- أن تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهراً تنتهي في شهر بابه القبطي ٢٨ سبتمبر ٦٤٢م .

٢- أن يبقى العرب في مواضعهم مدة الهدنة على ألا يقوموا بعمل حربي ضد الإسكندرية ، وأن يوقف الروم كل الأعمال العدائية .

٣- أن ترحل حامية الإسكندرية في البحر ، وأن يحمل الجنود معهم متاعهم وأموالهم ، على أن من يريد الرحيل براً له ذلك بشرط أن يدفع الجزية شهرية ما بقي في رحلته في أرض مصر .

٤- ألا يحاول الروم استرداد مصر ، ولا تعود إليها قوة حربية .

٥- أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين كل عام .

٦- ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء ، وألا يتدخلوا في شئون المسيحية .

٧- أن يباح لليهود البقاء في الإسكندرية .

٨- أن يبقى في أيدي المسلمين ١٥٠ جنديا ومدنيا لضمان تنفيذ هذه المعاهدة.

أمضيت المعاهدة في نوفمبر سنة ٦٤٢م وتلتها هدنة مدتها أحد عشر شهراً . وحمل المقوقس شروط الصلح إلى تيودور وهو القائد الأعلى للجيش، فوافق عليها ، وأرسلت إلى " هرقلوناس " فأقرها ، ولكن الروم بعد ذلك لم يحترموا هذه المعاهدة بل أرسل ملكهم " قسطنطين " الذي خلف " هرقلوناس " جيشا فاحتلها بقيادة ما نويل ، وقتل حاميتها ، فسار إليهم عمرو بن العاص وقاتلهم وأخرجهم منها صاغرين . وكان قد حلف إذا تم له فتحها أن يهدم سورها ، فهدمه وبر بيمينه . وكان الفتح الثاني عنوة .

وبعد فتح الإسكندرية تحرك العرب إلى الشرق لفتح بلاد الساحل وكان أول بلدة اتجهوا إليها هي مدينة إخنا التي تقع على مقربة من أبي قير البحرية، وكان حاكم هذه المدينة يسمى " الطلا " فأتاه كتاب من عمرو ، يطلب التسليم على الشاطئ التي صالح عليها أهل الإسكندرية ، فرفض بحجة أن الجزية ثقيلة ، فحاربه عمرو وأرغمه على التسليم ، وكان نصيب مدينة بلهيب الواقعة على النيل إلى الجنوب من رشيد ، مثل نصيب قرية إخنا ، ثم صالحه قزماس حاكم رشيد وحنا حاكم مدينة البرلس . ومن البرلس تحرك العرب شرقا ، حتى وصلوا إلى مدينة دمياط ، فلم يلقوا كيداً ، وسلم لهم حاكم المدينة المسمى حنا ، الذي يسميه مؤرخوا العرب " الهاموك " .

وبسقوط دمياط ورشيد سيطر العرب على مصبي النيل وامتد نفوذهم إلى كل بلاد مصر السفلى ؛ إذا استثنينا بعض البلاد الواقعة على الجزائر المبعثرة في بحيرة المنزلة ، وكانت أهم هذه البلاد " شطا وتنيس " وهي خلاف تانيس أو صا الحجر الواقعة إلى الجنوب الغربي منها على الفرع التانيسي .

ويقول المقريزي : إنا شطا هو ابن الهاموك " ، وكان أبوه خال المقوقس وإلى شطا تنسب الثياب الشاطوية . وبعد ذلك بني المسلمون بدمياط مسجداً – يسمى مسجد الفتح– وأما تنيس فقد خرج حاكمها لقتال العرب بعد استيلائهم على دمياط ، فأخذ أسيراً وسلمت المدينة لهم ، ومنها تحركوا إلى الشرق ناحية الفرما .

وبينما كان فتح مصر السفلى لم يكن سهلا كما رأينا كان فتح مصر العليا أمراً سهلا ، فقد أرسل عمرو بن العاص سرايا من جيشه في أثناء حصاره لمدينة الإسكندرية فسارت حتى وصلت مدينة طيبة . وبعد أن فتحت الإسكندرية ، أرسل خارجه بن حذافة فأتم فتح بلاد الصعيد .

والمهم أن فتح مصر لم يكن كله عنوه ولا كله صلحا بل ينبغي التفرقة بين الروم الحكام ، الذين قاتلوا العرب ، ونقضوا عهدهم معهم ، وبين الأهالي المسالمين ، فهؤلاء لهم عهد وذمة ، وأولئك لا عهد لهم ولا ذمة ، حتى أنه لما أراد عبد الله بن سعد بن أبي السرح – الذي تولى ولاية مصر خلفا لعمرو بن العاص في خلافة عثمان بن عفان أن يأخذ أرضا من مصر دفع ثمنها ؛ لأن البلاد كانت لها ذمة محترمة ؛ لأن أهلها لم يناصبوا المسلمين العداء ، أما الذين ناجزوا العرب ، وهم الروم فقد طردوا من البلاد ، ولم يبق لهم أثر بعد.

فتح برقة والاتجاه غربا :

بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر أدرك أن عليه أن يؤمن حدود مصر من الغرب بفتح برقة وطرابلس ، فزحف في سنة (٢١ أو ٢٢) على خلاف بين المؤرخين بجيشه إلى برقة ولما وصلها ، لم يجد مقاومة تذكر ، وقبل أهلها دفع جزية سنوية ، مقدارها ثلاثة عشرة ألف دينار يدفعونها بأنفسهم للمسلمين .

ثم أرسل جيشا بقيادة عقبة بن نافع إلى زويلة – من مدن فزان القديمـــة ، فوصلها وفتحها سنة ٢٢هـــ . وبعد فتح برقة وزويلة تقدم عمرو إلى طـــرابلس الغرب ، وحاصرها نحو شهر ، واستولى عليها بعد أن هرب سكانها إلى سفن الروم الراسية في البحر الأبيض .

ثم أراد عمرو بن العاص في مواصلة السير غربيا إلى إفريقية ، لـــولا أن الخليفة عمر بن الخطاب – ﷺ – رفض التقدم غربا ؛ لـــئلا تطـــول خطـــوط المواصلات العسكرية ، وتبعد المسافة بينهم وبين مركز الخلافة فـــي المدينـــة المنورة .

سياسة عمر الداخلية :

لا يجهل أحد مدى توسع الدولة الإسلامية في عهد عمر - ﷺ - ، فقد ازدادت رقعتها حتى وصلت إلى بلاد الأناضول شمالا ، وإلى برقة وطرابلس غربا وإلى بلاد اليمن جنوبا وبجوار التوسع في رقعة الأرض ، كان التنوع في الأجناس البشرية والأعراف والتقاليد ، فقد دخلت شعوب كثيرة في الإسلام، تختلف في لهجاتها ولغاتها وطبائعها النفسية ، وبيئاتها المناخية ، وظروفها الاقتصادية عما كانت عليه الجزيرة العربية .

وتنظيم مثل هذه المملكة الكبيرة – بلا شك – يحتاج إلى جهد كبير ، وإلى عقلية جبارة ، حتى تضع الأمور في نصابها الصحيح ، فتولي الولاة بحكمة ، وفق شروط ومواصفات محدودة ، وتجمع الأموال الكثيرة الآتية من الخراج والجزية ، فضلا عن الزكاة تجمعها بنظام دقيق وتوزعها في مصارفها وفق نظام دقيق وعدل وافر ، وتنظم الأمصار ، وترعى الآداب ، وتحمي التشريعات ، وتضع ضوابط القضاء وتحقق العدل ، وتحرس الإيمان في النفوس ، حتى لا تخون ولا تغدر ، وتهتم بالتعليم والفقه ، فتبث الدعاة وترسل الفقهاء إلى الأمصار المفتوحة لتعليمهم شئون الدين وتضع نظام المحاسبة والمراقبة لكل من ولي أمر المسلمين فضلا عن تنظيم الجيوش ، ومواصلة الفتوحات لنشر الإسلام في كل مكان .

إنه بلا شك جهد كبير وعمل مضيء لا يقدر عليه ولا يتحمل تبعاته إلا مثل عمر بن الخطاب - ﷺ - الذي عشر بضخامة التبعه وعظم الأمانة ،

والمسئولية الملقاة على عاتقه ، فسهر ليله وأيقظ نهاره في القيام بمهمة الخلافة للأمة الإسلامية خير قيام وقد أعلن عن إحساسه بهذه التبعية الضخمة من أول يوم ولي فيه أمور الأمة ، فقال : " إن الله ابتلاني بكم وابتلاكم بي " فسار في رعيته سيرة العدل والحزم ، حتى أصبحت سياسته مضرب الأمثال وأصبح عهده أخصب العهود ، وأضحت أوضاع الأمة الإسلامية في خلافته مطمع كل راغب في الإصلاح ، وكل ناشد للفضيلة والحياة الآمنة السعيدة ، فرحمه الله رحمة واسعة .

من أجل أعمال عمر :

يعتبر عمر بن الخطاب – ﷺ – مؤسسا للدولة الإسلامية يوم أن تولى الخلافة ، ودعم الأسس التي وضعها أبو بكر – ﷺ – . فقد افتتح لها تاريخا قائما على مبادئ وقوانين ، وأقام حكومة رتب لها القوانين ، ودون لها الدواوين ، ونظم القضاء والإدارة ، وأنشأ بيت للمال ، ووصل بين أجزاء الدولة بالبريد ، وقى الثغور بالمرابطين ، ووضع كل شيء في المكان الذي ينبغي أن يوضع فيه . وأصدق ما يقال عنه أنه وضع دستور لكل شيء ، وتركه لمن يشاء يبني عليه – كما خلد ذكرى هجره رسول الله – ﷺ – ، لأنها أهم أحداث التاريخ الإسلامي ، وأعظمها أثر في تاريخ الدعوة الإسلامية، وأمر باتخاذها مبدأ للتاريخ الإسلامي .

وجعل موسم الحج موسماً لمحاسبة العمال ، ومراجعتهم لاستطلاع أحوال الرعية في الدولة الإسلامية ، ويأتي الولاة لعرض ما لديهم من حساب ،

وأخبار عن كل ما تعلق بولايتهم ، كما يفد إليه أصحاب المظالم والشكوى للأخبار عما وقع عليهم من ظلم ليأخذ الحق لهم من الظالمين مهما كان سلطانهم ومهما كانت شخصيتهم .

أولاً : التأريخ الإسلامي :

من المعروف أن العرب لم يكن لهم تاريخ بالحساب والسنين وإنما كانوا يؤرخون بالوقائع والأيام المشهورة ، كحرب البسوس وداحس والغبراء ، وبيوم ذي قار ، وحرب الفجار ، وعام الفيل . وقدم النبي – ﷺ – المدينة ، وليس لهم تاريخ ، فكانوا يسمون كل سنة باسم الحادث التي وقعت فيها ، ويؤرخون بها ، فسميت السنة الأولى من سني مقام النبي بالمدينة " الإذن بالرحيل " أي من مكة إلى المدينة ، والثانية " سنة الأمر بالقتال " ، والثالثة " سنة التمحيص " أي بغزوة أحد ، وهكذا حتى توفي رسول الله – ﷺ – وانقطع التاريخ ، ومضيت أيام أبي بكر – رضي الله عنه – على هذا ، وأربع سنين من خلافة عمر بن الخطاب ، ثم وضع التاريخ .

أما الذي جعل عمر يضع التاريخ منها : أن يعلي بن أمية عامل عمر على اليمن – كتب إلى عمر كتابا من اليمن مؤرخا ، فاستحسنه عمر فشرع في التأريخ ، وقيل أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر : " أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ ، فجمع عمر الناس واستشارهم في وضع تاريخ للمسلمين " .

وقيل أن عمر جمع وجوه الصحابة ، وقال لهم : إن الأموال قد كثـرت ، وما قسمناه غير مؤقت ، فكيف التوصل إلى ما يضبط ذلك ، فقـال الهرمـزان – وهو ملك الأهواز " وكان قد أسر عند فتح فارس ، وحمل إلى عمر قـال : إن للعجم حسابا يسمونه " ماه روز " وشرح لهم طريقته ، فشـرع عمـر فـي وضع حساب للمسلمين وأيما ما كان أمر فقد رأى عمر أنه أصبح أمام مشـكلة لا بد لها من حل ، وهي كيف يضبط الأوقات والمعاملات ، وما يرسـله إلـى الولاة والقادة من كتب ورسائل ، فالأمر يحتاج إلى تحديـد وضـبط ، فجمـع وجوه الصحابة واستشارهم ، وانحصرت آراؤهم في أربع مناسبات يمكـن أن يبدأ بها التأريخ ، وهي مولده – ﷺ – ، ومبعثه وهجرته ، ووفاتـه . فرجـع عندهم جعلها من الهجرة ؛ لأن المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النـزاع في تعيين وقته ، وأما وقت الوفاة وإن كان معين فقد اعرضـوا عنـه لأنـه لا يحسن عقلا أن يجعل أصلاً لمبدأ التاريخ ، فوق أن يذكر بالأسف عليه في كـل يوم ، فانحصر أمره في الهجرة إذاً . ووافق الجميـع لأن وقتهـا هـو وقـت استقامة ملة الإسلام ، وتوافد الوفود ، واستعلاء المسلمين وإعزازهم ، فهو مـا يتبرك به ، ويعظم وقعه في النفوس ؛ إذ هي التي فرقت بين الحق والباطل .

وهكذا انتهت مشكلة التأريخ ، وأصبح للمسلمين تاريخ خاص بهـم يبتـدئ من شهر المحرم في السنة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة وتم ذلك الصـنيع بعد أربع سنين من خلافة عمر في ربيع الأول سنة سبع عشرة مـن الهجـرة النبوية الشريفة .

ثانياً : إنشاء الدواوين وتنظيم بيت المال :

لقد كان المال الذي يصل إلى النبي – ﷺ – في حياته ، وإلى أبـي بكـر في فترة خلافته من الفيء والغنائم ، لا يعد شيئاً يذكر إذا قيس بالأموال التـي كانت ترد على عمر في خلافته فقد كثرت الفتوحات ، ودخلت جـل مملكتـي الفرس والروم ضمن الدولة الإسلامية ، وجاء منها المال الكثيـر مـن الفـيء والغنائم والخراج – حتى بعد أن يأخذ المجاهدون نسبتهم من هذا المال .

وقد سببت كثرت هذه الأموال الفائضة مشكلة كبيرة فـي حيـاة عمـر ؛ كيف يتصرف في هذه الأموال ؟ وكيف يقسمها قسمة عادلـة ، وهـل ينفقهـا كلها، أم يبقى في بيت المال منها شيئاً لوقت الحاجة ، ويذكر ابـن سـعد فـي طبقاته : " أن أبا هريرة قدم على عمر من البحـرين ومعـه خمسـمائة ألـف درهم، فقال عمر للناس : إنه قدم علينا مال كثير ، فإن شـئتم أن نكيلـه لكـم كيلا، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إني قد رأيت هؤلاء الأعـاجم يـدونون ديوانا ، يعطون الناس عليه ، فاستشار عمر كبار الصحابة في ذلك ، فقال لـه علي بن أبي طالب – ﷺ – : تقسم كل سنة ما اجتمع إليـك مـن مـال ، ولا تمسك منه شيئاً ، وكان أبو بكر يسير على هذا النهج الذي أشار إليه علي بـن أبي طالب ، فكان يسوي بين الناس في العطاء ، ولا يمسك من المـال شـيئاً . وأشار عثمان بن عفان – ﷺ – بقريب من رأي علي .

فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : يا أمير المؤمنين قـد جئـت الشـام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا ، وجندوا جنـوداً ، أي نظمـوا جنـود للجهـاد

وأفرغوهم لهذه المهمة فأخذ عمر بقول الوليد ، وبدأ في إنشاء الديوان ، وكـان ذلك في المحرم سنة عشرين من الهجرة ، فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمـة بن نوفيل ، وجبير بن مطعم – وكانوا من نساب قريش – فقال لهـم : اكتبـوا الناس على منازلهم ، فكتبوا ، فبدؤوا ببني هاشم ثم أتبعوهم أبا بكر وقومـه ، ثم عمر وقومه على ترتيب الخلافة ، فلما نظر إليه عمر قال : وددت والله لـو أنه هكذا ، ولكن أبدؤوا بقرابة النبي – ﷺ – الأقرب فالأقرب حتـى تضعـوا عمر حيث وضعه الله ، ولما عتب عليه قومه (بني عدي) وقالوا لـه : لـو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم ؟ قال : بخ بخ بني عدي أردتـم الأكـل على ظهري لا والله حتى يطبق عليكم الدفتر – يعني ولو تكتبوا آخر الناس .

وعلى هذا الأساس بدؤوا الديوان ببني هاشم ، فهم طبقـة الأولـى فـي المنزلة فهم قرابة النبي والعرب شرفت برسول الله ، وقومه أشرف العـرب ، وكان يدون الأقرب فالأقرب من رسول الله وكان القوم إذا استو في القربة منـه قدم أهل السابقة في الإسلام ، حيث انتهى إلى الأنصار ، فقالوا : بمـن نبـدأ ؟ فقال عمر : أبدؤوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي ، ثم الأقرب فـالأقرب بسـعد بن معاذ .

أما بالنسبة لمقادير الناس في العطاء ، فقد مايز بينهم فـي العطـاء ولمـا نوقش في ذلك ، وقيل له : لما لم تسو بينهم في القسم ، كما فعل أبـو بكـر – ﷺ – ؟ قال : لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معـه ، فبـدأ – ﷺ – بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار ففرض لكل رجل مـنهم خمسـة آلاف

درهم في السنة حليفهم ومولاهم معهم بالسواء ، وفرض لمن كان لــه إســلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ، ومن شهد أحداً أربع آلاف درهــم لكــل رجل منهم . وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين درهم ، إلا حسنا وحسينا أبنــاء علي فقد ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول الله وكذا فــرض للعبــاس بن عبد المطلب خمسة آلاف درهم ، أيضا لقرابته مــن رســول الله ، وقيــل فرض له سبعة آلاف درهم .

وفرض لأزواج النبي لكل واحدة اثنى عشر ألف درهم ، فلم يفضل أحــدا على أهل بدر سوى أزواج النبي –رضي الله عنهن – .

وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل ثلاثة آلاف درهم ، أمــا مســلمي الفتح فقد فرض عليهم ألفين ، وفرض لغلمان أحداث مــن أبنــاء المهــاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح . وميز في العطاء عمر بن أبي سلمة فأعطــاه أربعة آلاف ؛ لمنزلة أمه أم سلمة – رضي الله عنهما .

وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم لمنزلته وأبيه من رســول الله – ﷺ – ، فقد كان الحب بن الحب ، ولما اعترض ولده عبــد الله بــن عمــر ، فقال: فرضت ثلاثة وفرضت لأسامة أربعة ، وقد شهدت ما لم يشهد أســامه ، فقال عمر : زدته لأنه أحب إلى رسول الله منك وكان أبوه أحب إلى رســول الله من أبيك .

ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن ، وجهادهم . ثم جعل من بقي من الناس بابا واحداً ، فألحق من جاءهم من المسلمين بالمدينة خمسة وعشرين دينارا لكل رجل .

وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلثمائة ، لم ينقص أحدا من ثلثمائة درهم . وقال : لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم : ألف لسفره ، وألف لسلاحه ، وألف لفرسه وبغله ، وألف يخلفها لأهلها وقد روي أنه فرض للنساء المهاجرات ثلاثة آلاف درهم لكل واحد .

وكان يفرض على النفوس مائة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم فإذا بلغ زاده . وكان في أول الأمر لا يفرض للمولود إلا بعد الفطام فلما وجد الأمهات يتعجلن فطام الأطفال بكى وقال : يا بؤسا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين ؟ ثم أمر مناديا فناده : ألا لا تعجلوا صبيانكم من الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام . وكتب بذلك إلى الآفاق .

عمر وبيت المال :

كذلك نظم عمر بيت المال ، فكان يجعل إلى جانب كل وال رجلاً آخر يتولى أمر بيت المال في كل مصر يتلقى ما يجبى إليه من كل كور . ويعطي الوالي ما يؤدي منه إلى الناس أعطياتهم وما يحتاج إليه فيما ينوبه أو يقوم به من مشارع وأعمال ، ثم يؤدي إلى عمر ما بقي من المال . فكانت بيوت

المال في كل مصر من أمصار معلومة مواردها ومعلومة مصارفها ، ولا يغيب شيء من أمرها شيء البتة عن عمر - ﷺ - ، مما يمكنه من محاسبة الولاة على ما أنفقوا وما إذا كان المال المحصل يكفي المصر ويفيض عن حاجته ، أولا يكفيه ويحتاج إلى مدد من بيت المال العام .

وكان يجعل بيت المال في وسط المدينة حتى يكون مأمونا من السرقة ويضع له حارسا يصونه من أيدي العابثين . وذلك حرصاً على مال المسلمين.

عمر وديوان الجند :

لم يكن اهتمام عمر بإنشاء الديوان قاصرا على تقسيم العطاء على سائر الأمة ، وإنما كان لتنظيم أمر الجند شأن عظيم عند عمر ، وكان لهم مزيد اهتمام في سياسته فهم حماة الدين ، وهم فاتحوا البلدان أمام نور الإسلام وهم عدة الأمة وحماتها .

ولكل هذا اهتم عمر بتنظيم ديوان الجند اهتماما بالغا خاصة بعد تمصير الأمصار ، وتقسيم الدولة إلى أمصار تغطي أنحاء الدولة الإسلامية آنذاك ، فكانت الكوفة والبصرة والشام والجزيرة والموصل ومصر واليمن والبحرين وغيرها وجعل في كل مصر من هذه الأمصار معسكراً دائما لجند المسلمين ، تخرج منه بعوث الحرب ، ونظمت أمورهم تنظيماً دقيقا .

وكان عمر يوصي الولاة بأن لا يحجـروهم فـي المواقـع – يعنـي لا يحبسونهم بعيداً عن أهليهم أكصر من ستة شهور – وكانت تسجل أسـماؤهم ، ويأخذون فوق أسهمهم من الفيء والغنيمة أعطياتهم من بيت المال على حسـب منازلهم في الديوان العام . هذا فوق رعاية أسرهم رعاية شـاملة مـن آبـائهم وأبنائهم وزوجاتهم ؛ مما جعل الجند يطمئنـون علـى أرزاقهـم وأسـرهم ، ويذهبون للقاء العدو وهم آمنون مطمئنون .

كما أنشأ عمر في عهده دواويـن أخـرى : كـديوان القضـاء وديـوان للإحصاء وغيرها ؛ مما يدل على فهم عمر بمعرفة كل ما يجب للدولـة مـن إصلاح لحياتها ، ومعرفة كل رأي أصيل كما أنشأ البريد ومـرابط للثغـور ، ومصنعا لضرب النقود ومكانا لحبس الخارجين على قوانين الدولـة المسـتمدة من الشريعة الإسلامية .

وأسند أعمال وإدارة هذه الدواوين إلى أبناء البلاد للإشـراف عليهـا مـا دامت بلغاتهم ؛ لأنهم أقدر على القيام بها على الوجه الحسن ، كما أنها ليسـت من أسرار الدولة ؛ وأيضا لأنه لم يكن للعرب خبرة بها في ذلك الوقت .

إنشاء المدن :

مكثت المدائن قاعدة أعمال العراق منذ فتحت إلى السنة السابعة عشـرة ، ثم رأى عمر في وجوه العرب الذين نزلوا بها تغيراً في ألوانهم وضـعفا فـي أبدانهم ، فكتب عمر إلى سعد : أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحـومهم،

فكتب عمر إلى سعد : إن الذي غيرهم وخومه البلاد فإن العرب لا يوافقهـا إلا ما وافق ابلها من البلدان ، فكتب إليه عمر : أن أبعث سلمان الفارسي وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا بريا وبحريا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر فأرسلهما سعد ، حتى أتيا موضع الكوفة ، وهو حصبا ورمل ، فأعجبها الموقع . وخطط الخليفة المدينة بأربعين زراعاً ، وما يليها ثلاثين زراعاً ، وما بين ذلك عشرين وألا تنقص الأزق عن سبعة أذرع ليس دونها شيء وألا يرتفع بناء الدور .

وبنيت الكوفة على هذا التخطيط ، وانتقل إليها سعد بجنده وزاد عمرانها حتى أصبحت مدينة كبيرة ، وحلت محل الحيرة ، وأصبحت قاعدة لمنطقة العراق الشمالي .

وأسس عمر كذلك مدينة البصرة في نفس السنة التي أسست فيها مدينة الكوفة ، أسسها عتبة بن غزوان بأمر عمر بعد أن وقع عليها الاختيار وفق المواصفات التي حددها عمر في اختيار الكوفة والبصرة تقع على مجتمع دجلة والفرات ، وهي قريبة من خليج فارس وصارت القاعدة الثانية للعراق ؛ لأن عمر قسمه قسمين :

أعلا : وقاعدته الكوفة ، وواليها سعد ، ويتبعها من ولايات الفرس بعد افتتاحها : الباب وأذربيجان ، وهمذان ، والرس وأصبهان ، وماه ، والموصل، وقرفيساء وكلهم من الجهة الشمالية .

وأسفل : وقاعدتها البصرة ، وواليها عتبة ، ويتبعهـا خراسـان وسجسـتان ، ومكران ، وفارس ، والأهواز .

وأمر عمر أيضا ببناء الفسطاط في مصر ، وهي تقابـل مدينـة منـف القديمة ، وفضلوا هذا الموضع ليسهل الاتصال مباشرة ببلاد العـرب لضـمان سرعة الاتصال بمركز الخلافة ، وبني فيها مسجداً سمي بمسجد أهل الرايـة ، ومقبرة للمسلمين .

ومن كل ما تقدم من أعمال عمر بن الخطاب - ﷺ - نـرى أنـه كـان على رأس الحكام الأفذاذ ، وأعماله تعتبر نموذجا للحكم الصـالح ، ودسـتورا يقتدي به الساسة والمصلحون ، يؤمن إيمانا عميقا بأن كل راع مسـئول عـن رعيته عن المريض والجائع والمظلوم والمسكين وابن السبيل ، حتـى صـان المجتمع من الفقر والعوز ، وحق الحيوان الأعجم لم يحرم من رحمة عمـر ، فقد كان يتفقد إبل الصدقة في قيظ الشمس المحرقة شمس بلاد العـرب ، فـإذا وجد منها مريضا بالحكة " الجرب " عالجه بيده ، وهو خليفة للمسلمين .

وبعد كل ذلك كان يقول فيما روي عنه : " يا ليت أمي لم تلـدني وكنـت نسيا منسيا " . رحمه الله رحمة واسعة .

فجيعة المسلمين في عمر :

ليست هناك مصيبة أهتز لها المسلمون في العصر الأول بعد وفاة رسول الله - ﷺ - مثل مقتل عمر بن الخطاب . فقد روع حادث مقتله المسلمين أشد الترويع ، وكان مثار دهشة الجميع ، فكيف بمن حقق العدل ، ونشر الأمان في ربوع الأرض لأهل الإسلام والذمة على السواء ، وآثر رعيته على نفسه في كل شيء ، وقضى فترة خلافته لم يحد عن الطريق السوي قيد شعرة ، كيف بمن هذا صنيعه أن يكون مصيره على هذا النحو يقتل غدرا أثناء الصلاة ، وهو بين أصحابه ؛ إنه بلا شك أمر الله ، وكان أمر الله قدرا مقدوراً.

فعمر - ﷺ - ، وإن كان قد أرضى العرب بعدله وسلوكه وسياسته المالية ، وأرضى الشعوب غير العربية الخاضعة للدولة الإسلامية بتطبيق منهج الإسلام في الحكم ، ومتابعته لأعمال الولاة بعد اجتهاده في اختيارهم ، إلا أن قلوبا من غير المسلمين كانت مطوية على الحقد مفعما بالسخط عليه من فرس وروم ومجوس ويهود ونصارى . وهؤلاء جميعا كانوا يحقدون على الإسلام ؛ لأنه حطم أديانهم وهدم عقائدهم ، وفتح بلادهم .

أما كيف وقعت الجريمة ، فيروى لنا التاريخ أن عمر بن الخطاب كان لا يسمح لمشرك بلغ الحلم بدخول المدينة . وما زال على رأيه هذا حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يطلب منه الإذن بدخول غلام اسمه

فيروز أبو لؤلؤة ؛ لأن في يده صناعات كثيرة ينتفع بها المسلمون فهو : حداد – نجار – نقاش – ، فأذن له عمر بدخوله .

وبينما عمر يطوف يوما بالسوق ، لقيه ذلك الغلام ، وشكا إليه المغيرة بن شعبة ؛ لأنه جعل عليه خراجا كثيرا – ضريبة دخل – فقال عمر : فكم خراجك ؟ ، فقال : مائة درهم في الشهر وقيل كانت ضريبته درهمين في اليوم ، فسأل عن صناعته فأخبره بها ، فقال : ما أرى خراجك كثيرا على ما تصنع من الأعمال ، ثم قال له : قد بلغني أنك تقول : لو أردت أن تعمل رحا تطحن بالريح لفعلت . قال الغلام : نعم ، قال فاعمل لي رحا ، قال : لو عشت لأعملن لك رحاً يتحدث بها من في المشرق والمغرب . ثم انصرف ، فقال عمر : لقد توعدني العبد آنفا . ثم انصرف إلى منزله .

وفي صباح اليوم التالي لهذه المقابلة جاء كعب الأحبار – اليهودي المسلم – إلى عمر في منزله ، وقال له : يا أمير المؤمنين أعهد أنك ميت في ثلاث ليال . قال عمر : أتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال : اللهم لا ولكني أجد صفتك ، وأنه قد فني أجلك ، وعمر لا يحس وجعاً ، ثم جاءه في اليوم التالي ، وقال : ذهب يوم وبقى يومان ثم جاءه في اليوم الثالث ، فقال : مضى يومان وبقى يوم وليلة وهي لك إلى صبيحتها . ويشار الله أنه في صبيحة الليلة التي حددها كعب ، كان عمر يصلي الفجر بالمسلمين إذ أقبل فيروز فطعنه بخنجر ذي حدين نصابه في وسطه ثلاث طعنات أو ست طعنات إحداهن تحت سرته ، فلما وجد عمر حر السلاح سقط وهو يقول : وكان أمر

الله قدراً مقدروا ثم أخذ هذا العلج – الرجل من كفار العجم – يطعن الناس بخنجره ذات اليمين وذات الشمال حتى طعن ثلاث عشر رجلا ممن في المسجد مات منهم سبعة فأقبل عليه رجل من بني تميم تقال له حطان ، فألقى كساءه عليه ثم احضنه ، فلما أحس فيروز أنه مأخوذ طعن نفسه .

ولما سقط قال عمر : أفي الناس عبد الرحمن بن عوف ، قالوا : نعم . قال : تقدم فصل بالناس . ثم حمل عمر إلى منزله ، وأمر عبد الله بن عباس أن ينظر من قتله . فجال ساعة ، ثم جاء فقال له : غلام المغيرة بن شعبة . فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة يحاجه بها عند الله .

ثم أذن عمر للناس بالدخول عليه ، فدخلوا فقال لهم : أعن ملأ منكم كان هذا ؟ فقالوا : معاذ الله . وكانوا محزونين لفقده كحزنهم يوم وفاة الرسول – ﷺ – ، ويوم وفاة صاحبه أبو بكر . ثم دعى له الطبيب ، فلم يجد للقضاء حيلة ، وتوفي يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٣هـ نوفمبر ٦٤٤م ، ودفن في حجرة عائشة مع صاحبيه ، حسبما أوصى بعد استئذان صاحبتها . وكانت مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام ، وكانت سنه حين قتل ٦٣ سنة كصاحبيه .

حول مقتل عمر :

احتار الناس في مقتل ما إذا كان عملا فرديا لأبي لؤلؤة أو كــان عمــلا جماعيا سابق التدبير . فإن مجرد سخط أبي لؤلؤة على عمر ؛ لأنه لم ينصــفه في شكواه من سيده المغيرة بن شعبة ، إذ لا يمكن أن يبعثه هذا على ارتكــاب جرم فظيع كهذا ، ويخلصه إذا علمنا أن فيروز غريب عن بلده ، لا جــاه لــه في المدينة ، ولكن يؤخذ مما رواه الثقاة والمحدثون أن مقتــل عمــر - ﷺ - كان نتيجة مؤامرة سياسية ، ووليد اتفاق جنائي فإنه عقب الحادث ، تقدم عبــد الرحمن بن أبي بكر ، فشهد أنه رأى الهرمزان وفيروز وجفينة ليلــة الحــادث يتشاورون ، فلما نظروه اضطربوا وسقط من بينهم خنجر ذو حدين نصابه في وسطه ، فعرضوا عليه الخنجر الذي قتل به عمر ، فقرر أنــه هــو الــذي راه ومن المقطوع به أن فيروز كان خادماً للهرمزان ، وقد كثرت الشــائعات بــأن الهرمزان هو الذي أعطى السلاح لفيروز ، وأمره بقتل عمــر ؛ لاعتقــاده أن الدولة الإسلامية ستضعف بعد مصرعه بالاختلاف والانقسام ؛ ولهذا أخذ عبيــد الله بن عمر سيفه ، وقتل المتآمرين على أبيه ، وفي نوبة الألم الشــديدة قتــل ابنة أبي لؤلؤة ، ولولا اعتقال سعد بن أبي وقاص له وحبســه فــي داره لقتــل كعب الأحبار وغيره ؛ فإنه كان يقول : والله لأقتلن رجالا ممن شارك فــي دم أبي .

أما كعب الأحبار فإنه لو صحت الرواية عنه لكانت دلــيلا قاطعــا علــى اشتراكه في المؤامرة ، أو على الأقل كان عالما بها .

ولو تتبعنا نفسية هؤلاء الأربعة لتأكد لدينا أن عمر مات مقتولا بتدبيرهم.

فالهرمزان : كان ملك الأهواز – من بلاد فـارس – أسـره المسـلمون ، وعفا عنه عمر بعد نكثه للعهود مراراً ، ولم يزده هذا العفو إلا لؤماً وتحـرداً ؛ لأنه كان يرى أنه أصبح في المدينة كأحد السوقة لا قيمة لـه ، بعـد أن كـان ملكاً كبيراً ، وكان يحز في نفسه ما يراه كل يوم من امتداد سـلطان الإسـلام على بلاد فارس ، وما يحمل إلى المدينة من غنائم بلاده .

أما فيروز فكان فارسيا ، يغلي داخله حقداً وحسداً على الإسـلام وكـان يقول عندما يرى السبايا ويمسح على رؤوسها : أكل عمـري كبـدي ، وكـان يختلف إلى هرمزان من وقت لآخر .

أما جفينة الأنباري فكان من نصارى الأنبار ، أرسل سعد بن أبي وقـاص إلى المدينة ؛ ليعلم أبناءها القراءة والكتابة ، والأنبار تابعة للفـرس ، ولجفينـة بهم صلة ، وكان يختلف الفينة بعد الفينة إلى الهرمـزان وأبـي لؤلـؤة ؛ لأن العداوة للعرب ألفت بين قلوبهم جميعا .

أما كعب الأحبار فهو من يهود اليمن ، ولما رأى اليهودية في بلاد الـيمن قد اضمحلت ، والنصرانية في بلاد الشام كاد يقضي عليها ، ورأى مـع ذلـك أن الإسلام يعلو ونجمه يتألق ؛ فأظهر إسـلامه ليسـتفيد مـن وراء اعتناقـه الإسلام عزا وجاها بين المسلمين إذا ما أظهر بينهم علمـه بـالتوراة ، وأيـام العرب في الجاهلية ، وقد كان له ما أراد فقد قال للمسلمين : إن التـوراة فيهـا

علم كل شيء مما كان ومما سيكون وبمكر اليهود ودهائهم أمكنـه أن يكتسب ثقة العامة وبعض الخاصة .

ولما طعن عمر ، وأحس بالموت طلب إليه أن يعهد إلى خليفة من بعـده ، فتردد ، وقال : إن أترك فقد ترك من هو خير مني – يريد الرسـول – ﷺ – وإن استخلف ، فقد استخلف من خير مني – يريد أبا بكر – وقال : لـو كـان أبو عبيده بن الجراح حيا لاستخلفته ، فإن سألني ربي قلت : سـمعت نبيـك – ﷺ – يقول : " إنه أمين هذه الأمة " ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيـا مـا داخلتني فيه الظنون ، فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك يقـول : " إن سـالما شديد الحب لله لو لم يخفه ما عصاه " فقال له رجل : اعهد إلى عبـد الله بـن عمر فقال له : " والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف استخلف رجلا عجز عـن طلاق امرأته ، لأرب لنا في أموركم ، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد مـن أهـل بيتي بحسب منهم رجل واحد يسأل عن أمة محمد – ﷺ – أمـا لقـد جهـدت وحرمت وإن أنج كفافا لا وزر ولا أجر ، إني لسعيد .

ويروى أن عمر – ﷺ – فكر في أن يعد بالأمر من بعده لعلي ابن أبـي طالب ، ولكنه خشي أن تستحيل الخلافة من بعده هاشمية يدلي فيهـا بالقرابـة والنسب أكثر مما يدلي بالكفاية والعمل .

وخشـي أصـحاب رسـول الله – ﷺ – أن يقضـي عمـر نحبـه دون استخلاف، فذهبوا إليه مرة أخرى ، وقالوا : يا أميـر المـؤمنين لـو عهـدت عهداً، فقال : إني قد رأيت من أصحابي حرصاً على أن اسـتخلف ، ولكـن لا

أريد أن تحملها حيا وميتا ، ولكن عليكم بهؤلاء الرهط الذين قال الرسول - ﷺ - عنهم : إنهم من أهل الجنة ، وهم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله فليختاروا رجلا منهم ، فإذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته ، وأعينوه إن ائتمن أحد منكم فليرد إليه أمانته .

ثم وجه الحديث إلى هؤلاء الرهط فقال : " إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله - ﷺ - وهو عنكم راضٍ وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكني أخاف عليكم فيما بينكم ، فيختلف الناس ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثا ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير ، وطلحة بن عبيد الله شريككم في هذا الأمر - كان طلحة في ذلك الوقت خارج المدينة .

هؤلاء الستة الذين رشحهم عمر ليكون واحد منهم خليفة للمسلمين من بعده ، لم يكن من بينهم ذا قرابة له ، أو ما يشم منه رائحة عصبه له ، وإنما كان الترشيح لاعتبارات سامية من أجل صالح الدولة حتى يكون - ﷺ - خاليا من أي مسئولية أمام الله تعالى أولا والناس ثانيا . حتى أن ابنه عبد الله وهو غني عن الحديث عنه لم يكن من بينهم وإنما كان مستشارا ومرجحا فقط.

وعين لهم عمر عندئذ الأجل الذي يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال للمقداد بن عمرو : إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء

الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم ، وأمر صهيب أن يصلي بالناس في هذه المدة ، وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف – وكان طلحة غائبا كما قلنا ن وأحضر عبد الله بن عمر ، ولا شيء له من الأمر ، وقم على رءوسهم ، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشرخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربع فرضوا رجلا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رءوسهما ، فإن رضي ثلاثة وامتنع ثلاثة فحكموا عبد الله ابن عمر ، فأي الفريقين حكم له فيختاروا رجلا منهم فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجمع عليه الناس .

على هذا الوجه المحكم أبرأ عمر ذمته من قضية الاستخلاف ، فاختار الرجال ، وقلب الأمر على جميع وجوهه ، ووضع الخطط على كل احتمال من إحسان أو إساءة ومن وفاق أو شقاق . فعل كل ذلك وهو يعالج سكرات الموت بين جراحاته القاتلة ، حرصا منه رضي الله تعالى عنه وحدة الأمة وسد باب الفتن من بعده .

انتقل عمر إلى جوار ربه بعد أن أدى ما عليه تجاه ربه وتجاه الرعية ، وقام بواجبه خير قيام ، فترك الأمة على الجادة ، أرسى فيها قواعد العدل ، وأطر الناس على الحق أطراً ، وحقق لهم الأمن والرخاء ، وكما أعزه الله بالإسلام اعز الله به أيضا الإسلام ، فكان – ﷺ – نسيجا وحده ، سار بالأمة مسيرة ، أصبحت مضرب الأمثال ، وأمنية كل مصلح ومشتاق إلى البناء والإصلاح .

الفصل الثالث

خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه -

عثمان بن عفان - رضي الله عنه -

٢٣- ٣٥هـ / ٦٤٤ – ٦٥٦م

ترجمة عثمان :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة ، وأمها البيضاء – أم حكيم – بنت عبد المطلب عمة النبي - ﷺ - ، وكانت توأما لعبد الله والد النبي - ﷺ - فعثمان بهذا أموي وفي عرقه لأمه دم هاشمي ، ويجتمع مع رسول الله - ﷺ - في عبد مناف ويكنى أبا عبد الله وأبا عمر .

ولد في السنة السادسة بعد عام الفيل ، وقيل في الخامسة بعد ميلاد الرسول - ﷺ - ، في مدينة الطائف ثالثة مدن الحجاز بعد مكة والمدينة المنورة . والطائف كانت ولا تزال روضة الحجاز ، يقصد إليها سراة قريش للرفه من حارة الصيف ، فهواؤها جميل ، وفاكهتها موفورة ، ولا تزال إلى الآن المصيف لسراة القوم من سكان الجزيرة العربية ، وكانت لأسرة عثمان إمارة قوافل التجارة ، وكان له فيما ورثه عن أبيه ما جعله كثير المال ، واسع الثراء . وقد شب على كريم السجايا وحسن السيرة ، فحسنا إلى أهله ، يفرق عليهم النعم الكثيرة ، فأحبوه حبا جما حتى صار مضرب الأمثال لنساء قريش، فكن وهو يرقصن أولادهن يقلن :

أحبك والرحمن ** حب قريش لعثمان

كما كان ميالا إلى مكارم الأخلاق ؛ يدل على ذلك قول أمه لما قال لها زوجها " عقبة بن أبي معيط الذي تزوجها بعد موت أبيه : إن ابنك قد صار ينصر محمداً ، فلم تنكر ذلك من أبيها وإنما قالت : ومن أولى به منا أموالنا وأنفسنا دون محمد .

إسلام عثمان :

كان عثمان في قريش محببا ، يرجعون إليه ويعظمونه ، ومن المعلوم أن أبا بكر الصديق - ﷺ - لم تكن له كبوة لما دعاه الرسول - ﷺ - إلى الإسلام - كما أخبر بذلك - ﷺ - في الحديث الصحيح ، وكذلك عثمان لما دعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام ، فقد أجابه من غير تردد حين أقبل عليه يحدثه عن رسول الله - ﷺ - وعن تعاليم الإسلام ، فلما ذهبا ودخلا على الرسول - ﷺ - أسر أبو بكر إليه في أذنه ، فقال الرسول - ﷺ - لعثمان : يا عثمان أجب الله إلى جنته فإني رسول الله إليك وإلى خلقه .

وما أعجب هذه العبارة " أجب الله إلى جنته " وكلمة " إليك " فإن الرسول - ﷺ - لم يقلها لغيره ممن دعاه إلى الإسلام . فأسلم عثمان - ﷺ - قبل دخول النبي - ﷺ - " دار الأرقم " وكان إسلامه مع الزبير بين العوام وطلحة بن عبيد الله ، فهو من السابقين الأولين الذين أحرزوا فضل السبق وفخر القيام بنصرة الدين ، وكان سنه قد تجاوز الثلاثين ، ومن تقويم أبي بكر لعثمان وتقديره له أنه قال له حين دعاه إلى الإسلام : ويحك يا عثمان ، إنك

لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل ، ما هذه الأصنام يعبدها قومنا ، أليست حجارة ؟ لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً ، قال : بل والله لكذلك .

كان عثمان – رضي الله عنه – محبباً من رسول الله – ﷺ – ، كريماً عليه ، ارتبط بالمصاهره مع الرسول – ﷺ – في ابنتيه : رقية وأم كلثوم ولما ماتت أم كلثوم كان شديد الحزن عليها ، ولا يرى إلا محزونا فلما رأه الرسول – ﷺ – قال له : ما لي أراك محزونا ، فقال له : انقطع ظهري منك ، فقال له الرسول – ﷺ – إن صهرك مني لا ينقطع وقال له أيضا : لو أن لنا ثالثة لزوجناك . وهذا يدل على سمو مكانته وشدة حب رسول الله – ﷺ – .

وكان – رضي الله عنه – أحد العشرة المبشرين بالجنة وقال – ﷺ – : لكل نبي رفيق ورفيقي في الجنة عثمان .

ولما اشتد الأذى بالمسلمين في مكة ، ورأى رسول الله – ﷺ – ما يصيب أصحابه من الإيذاء نصحهم بالهجرة إلى الحبشة ، فكان من أول المهاجرين إليها هو وزوجته رقية ، فقال النبي – ﷺ – : (صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط) . ثم رجع من الحبشة إلى مكة، لما أشيع إسلام أهل مكة ، فلما اكتشف المهاجرين كذب هذه الإشاعة واستمرار إيذاء القرشيين للمسلمين هاجر عثمان مع زوجته رقية مرة أخرى إلى الحبشة ، ثم عادا إلى مكة عند بدء هجرة المسلمين إلى المدينة . ثم هاجر إلى المدينة .

وحضر مع الرسول - ﷺ - المشاهد كلها خلا بدر ، حيث خلفه النبي - ﷺ - لتمريض زوجته رُقية التي توفيت عقب غزوة بدر ، واسهم له الرسول - ﷺ - في غنائم بدر ، ثم زوجه ابنته الثانية أم كلثوم .

وكان عثمان في صلح الحديبية سفيرا بين رسول الله - ﷺ - وبين قريش، وقد قام بسفارته خير قيام ، إلا أنه حبس ، فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي - ﷺ - أصحابه بيعة الرضوان ، وقال بيده اليمنى : هذه عثمان فضرب بها على يده اليسرى ، فسارع المسلمون لبيعته - ﷺ - وحين أزمع الرسول - ﷺ - على الخروج لغزوة تبوك وجهز جيش عسرة ، شارك عثمان في هذا بقدر ثلث حاجة الجيش حتى جعل رسول الله - ﷺ - : ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم ، وكررها مرتين .

فقد كان عثمان كريم النفس ، جواداً بماله ، سخي اليد في طاعة الله تعالى ، فقد احتاج المسلمون إلى استسقاء من بئر رومة ، وكانت ليهودي يبيع للمسلمين ماءها فقال رسول الله - ﷺ - من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين ، يضرب بدلوه في دلائهم وله مشرب في الجنة ، فأتى عثمان اليهودي فساومه، فأبى أن يبيعها كلها له فاشترى نصفها بإثنى عشر ألف درهم ، وجعله للمسلمين ولما رأى اليهودي أن المسلمين قاطعوا الأيام التي كانت لليهودي فقال : أفسد على بئري ، فباعه النصف الآخر .

كذلك لما رأى الرسول - ﷺ - أن يوسع مسجد المدينة قال : مـن يزيـد في مسجدنا ، فاشترى عثمان - ﷺ - موضـع خمسـة دور ، فزادهـا فـي المسجد .

كما كان يكتب ما ينزل به الوحي على الرسول - ﷺ - . وكان لأبي بكـر ثم لعمر - ﷺ - مستشاراً في مهام الأمور أمينا بكل مـا تتطلبـه الأمانـة . وكان أحد الستة الذين قال فيهم عمر أن رسول الله - ﷺ - مات وهـو عـنهم راضٍ .

اختيار عثمان للخلافة :

لما دفن عمر - ﷺ - ، جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسـور بـن مخرمه ، وقيل في حجرة عائشة ، وأمروا أبا طلحة الأنصاري أن يحجـبهم ، فتنافس القوم وكثر بينهم الكلام ، فقال أبو طلحـة : أنـا كنـت لإن تـدفعوها أخوف مني لأن تتنافسوها : لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم علـى الأيـام الثلاثة التي أمر بها ثم أجلس في بيتي فانظر ما تصنعون .

ولكن عبد الرحمن بن عوف أخرج الناس من هذا المأذق ، واقترح علـيهم اقتراحا يمنع هذا التنافس ، فقال : أيكم يخرج نفسه منهـا ويتقلـدها علـى أن يولي أفضلكم ، فلم يجبه أحد فقال : أنا أخلع نفسي ، فرضي القوم بذلك وعلـيٌّ ساكت ، فقال : ما تقول يا أبا حسن ، فقال : اعطني موثقا لتؤثرن الحـق ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم لرحمه ولا تألوا الأمة . فقال عبـد الـرحمن

حينئذ : أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله ، عليّ ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين . فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله .

وفي البداية اختلى عبد الرحمن بعلي ، وقال له : لو لم تكن في فمن تختار ؟ فقال عليّ : عثمان ، واختلى بعثمان وسأله نفس السؤال فقال : عليّ. وهكذا كلم سعداً والزبير ، فقالا : عثمان .

وبذلك صار الأمر في عنق عبد الرحمن ، فدار لياليه يلقي أصحاب رسول الله . ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد ، وأشراف الناس يشاورهم ، ولا يخلو برجل إلا قال له : عثمان وعليّ .

ولم يدخر ابن عوف جهدا طول الثلاثة أيام بلياليها في سؤال الناس عمن يرونه كفؤاً لهذا الأمر وقد كان بحق أمينا في أرض أمينا في السماء ، فقد بذل ما في وسعه حتى أدى الأمانة كاملة ، لم يخن فيها الله ولا رسوله ولا المؤمنين . فلما حان انتهاء الوقت الذي حدده عمر قبل أن يموت ، كان ابن عوف قد حزم أمره ، فلما صلوا الصبح جمع الرهط ، وبعث إلى من حضر من المهاجرين ، وأهل السابقة والفضل من الأنصار ، وإلى أمراء الأجناد ، فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله ، فقال : أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد : إنا نراك لها أهلا ، فقال أشيروا علي بغير هذا ، فقال عمار : إن أردت ألا يختلف الناس فبايع عليا ، وقال عبد الله بن أبي السرح : إن أردت ألا تختلف

قريش فبايع عثمان . وتشاتم عمار وابن أبي السرح ، وتلكم بنوا هاشم وبنو أمية ، وكثر الكلام ، فقال سعد : يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس . فقال عبد الرحمن : إني قد نظرت وشاروت ، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ، ودعا علياً وقال له : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله ، وسنة الخليفتين من بعد ، فقال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي فقال ، نعم ووافقه على ما أراد .

فبايعه عبد الرحمن بالخلافة . وبذلك أصبح عثمان الخليفة الثالث لرسول الله – ﷺ – . ثم قدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه عثمان فقيل له : إن الناس قد بايعوا عثمان ، فقال : أكل قريش راضٍ به ؟ قالوا : نعم ، فأتى عثمان ، فقال له عثمان : أنت على رأس أمرك ، وإن أبيت رددتها ، قال طلحة : رضيت لا أرغب عما أجمعوا عليه وبايعه .

وفرغوا من مبايعته يوم ٢٩ من ذي الحجة سنة ٢٣هـ / ٧نوفمبر سنة ٦٤٤م. فاستقبل بخلافته هلال المحرم سنة ٢٤هـ .

ويروى أن عليا قال لعبد الرحمن : ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون فقال عبد الرحمن : يا علي لا تجعل على نفسك حجة وسبيلا . فخرج وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله ثم عاد عليّ يشق الناس حتى بايع عثمان .

أول خطبة لعثمان بعد انتخابه :

كان أول خطبة لعثمان بعد بيعته أن صعد المنبر فحمد الله ، واثنى عليـــه ثم قال : إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا أجالكم بخير مــا تقــدرون عليه ، ألا إن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الــدنيا ولا يغــرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفــل عــنكم ، أين أبناء الدنيا وأخواتها الذين آثروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً ألم تلفظهــم، أرموا بالدنيا حيث رمى بها الله ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب بها مــثلا ، فقال عز وجل : (**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِــنَ السَّــمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّــهُ عَلَــى كُــلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّــالِحَاتُ خَيْــرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**) .

لهذه الخطبة لسيدنا عثمان – ﷺ – بين فيها ما يتفق مع ســريرته وقلبــه لرجل جاوز السبعين من عمره ، فما كان يقول إلا أن يعــظ النــاس بالعمــل للآخرة ، والبعد عن الدنيا ويخوفهم من الله تعالى وألا يغتروا بالدنيا ويعتبــر بمن مضى من أسلافهم الذين متعوا بها – وضرب بهم المثل بالآية الكريمــة ، وهي بذلك مطابقة لما يتطلبه للموقف في هذا الوقت .

لقد أعطى عثمان العهد والميثاق على أن يسير بالأمة على ســنة رســول الله ، ونهج صاحبيه أبي بكر وعمر ، وبدأ على الفور يباشر تبعات البيعة فــي

الداخل والخارج ، وبادئ ذي بدء فقد أعلن عن سياسته ، حتى يعلم القاصي والداني الخط الذي يسير عليه عثمان في خلافته .

وبدأ عثمان على الفور بالكتابة إلى ولاة الأقاليم وأمراء الحرب والأئمة على الصلوات والأمانة على بيوت المال ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحثهم على طاعة الله ورسوله ، ويحضهم على إتباع السنة ، وترك الإحداث في الدين والابتداع .

وكان عمر قد أوصى الأمير بعده أن يترك ولاة الأمصار الذين رشحهم عمر في حياته ، يتركهم سنة بدون تغيير ، ثم يفعل بعد ذلك ما شاء بهم . وقد التزم عثمان بما أوصى به عمر في شأنهم فأبقاهم حين ولايته ، وكاتبهم ينصحهم ويحثهم على الطاعة .

أول قضية نظر فيها عثمان :

بدأ عثمان في سياسته الداخلية في قضية مقتل عمر فأول ما بدأ بـــه هـــو القصاص من قتلة عمر ، وأن أول أبو لؤلؤة المجوســـي غـــلام المغيـــرة بـــن شعبة، فقد طعن عمر ، وجرح ثلاثة عشر رجلا من المسلمين ، كانوا يصـــلون معه ، وقد مات منهم سبعة ، ثم طعن نفسه أخيرا فمات .

ولكن ذلك لم يكن لأن عبيد الله بن عمر اعتقد أن أباه قتل بممـــالأة ثلاثـــة هو شركاء فيه دمه ، فأمسك حتى مات عمر ، ثم حمل سيفه فـــأتى الهرمـــزان فقتله ، ثم مضى حتى أتى جفينة فقتله ، ثم قتل ابنة أبي لؤلـــؤة ، فلمـــا علـــم صهيب الرومي القائم مقام الخليفة في ذلك الوقت ، بعـــث إليـــه عمـــرو بـــن العاص يخبره فلم يزل به صهيب حتى أخذ منه السيف ، وجذبه سعد بن أبـــي وقاص من شعره حتى جاء به إلى صهيب فحبسه في دار سعد بن أبي وقـــاص انتظارا لأمر الخليفة الجديد . حتى إذا انتهى أمر الخلافة لعثمان بـــن عفـــان - ﷺ - دعا عبيد الله بن عمر ، وجمع الناس ، ثـــم قـــال لجماعـــة الأنصـــار والمهاجرين ، وهو جالس من ناحية من نواحي المسجد : أشيروا علـــيّ أيهـــا الناس في هذا الذي فتق في الإسلام فتقاً . واختلف الرأي ، فقد أشـــار علـــي - ﷺ - بقتل عبيد الله بن عمر قصاصاً لمن قتلهم ، فعجـــب المهـــاجرون مـــن الحاضرين من رأي علي ، إذ كيف يقتل عمر بالأمس ثم يقتـــل ابنـــه اليـــوم ، وهنا قال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين إن الله قد عفاك أن يكـــون هـــذا الحدث ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان ولا سلطان لك ، قال عثمـــان -

ﷺ - : أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي إذ لم يكن القتلى أولياء غير ولي أمر المسلمين ، وهو عثمان ،عبيد الله بن عمر مثقل بالدين الذي جعل عمر سداده عليه بعد وفاته ، فرحم الله تعالى عثمان بما قضى في هذا الأمر ، وقيل أيضا في رواية أخرى للطبري أن عثمان سلم عبيد الله بن عمر إلى القماذبان بن الهرمزان ليقتله إلا القماذبان هو الذي تركه لله . وقد أنهى القماذبان بفعله هذه المشكلة وقام عثمان عندها بدفع الدية من ماله الخاص .

وقد كان أول امتحان يتعرض لها عثمان بعد استخلافه – وما أكثر ما امتحن به عثمان ، بل والمسلمون بعد الشيخين أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – .

الفتوح الإسلامية في عهد عثمان

في الحقيقة كان عهد عثمان مليئا بالإنجازات الرائعة في الداخل والخـارج – خاصة – الفتوحات في البر والبحر فأتم عثمان ما كان على عهد عمر مـن الفتوحات ، واستمرت الفتوحات طيلة عشرة سنين مـن خلافتـه ، إلا أن مـا حدث في العامين التاليين لها من فتن حجبت الإنجازات حتى حسب النـاس أن عهد عثمان لم يكون سوى فتن وخلافات ، نشأت منذ بيعته ، واستمرت حتـى استشهاده ، ولكن الأمر غير ذلك ، فقد حدث من الإنجازات والفتوحـات فـي عهد عثمان ما يبهر العقول ، بل تفرد عهد عثمان بنزول المسـلمين البحـر ، وبناء الأسطول الإسلامي البحري ، ومنازلة الرومان في البحر مرات عديدة ، مما أكسب الدولة الإسلامية السيطرة على البر والبحر في آن واحـد ، وكتـب لها السيادة شرقاً وغرباً .

وكان ما حدث من الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفتين أبي بكر وعمـر لبلاد الفرس حدثا هائلاً ، فإنهم ما كان يـدور بخلـدهم أن عـرب الصـحراء سيفتحون بلادهم ، ولكن ذلك قد كان وفتحت رداً للكثير من عدوانهم وعـدائهم السافر على الإسلام ، بل وقدموا الطاعة للمسلمين ، ولم تكن هذه الطاعة فـي نظرهم إلا ريثما تواتيهم الفرصة لإرجاع بلادهم ، وإعادة مجدهم . وقد ظنـوا أن الفرصة مواتية في عهد عثمان ، فانتقض كثير من الـبلاد ، ومنعـوا مـا

صالحوا المسلمين عليه ، فعمل عثمان على إخماد حركاتهم ، وردهم إلى الطاعة ، ولم يقف عند هذا الحد بل فتح بلاداً جديدة . وسارت الفتوحات الإسلامية بنشاط عظيم . واستمرت في سيرها إلى أن كانت الفتنة في أواخر عهد عثمان .

وسنقسم هذه الفتوح بحسب الأمصار وولاتها التي آلت إليها هذه الفتوحات :

فتوح البصرة :

وأول هذه الفتوح ما قام به عبد الله بن عامر والي البصرة بعد أبي موسى الأشعري ، فقد سار بجيوشه إلى مقاطعة فارس المجاورة لولايته فأخضعها ، وبدأ بعدها سلسلة حملات أخرى شرقا وشمالا ، كللت كلها بالنجاح ، فأخضع نيسابور وسرخت ومرو من بلاد خراسان ثم اشتبك في معركة كبرة عند خوارزم – على نهر جيحون ، حطم فيها القوات الفارسية ، وانتصر انتصارا عظيما دفعه إلى التوغل في بلاد التركستان حتى مدينة بلخ ، وأدخلها في حوزة الإسلام .

وظل ابن عامر عاماً كاملا في جهاده حتى تم إخضاع القسم الشرقي من بلاد فارس للإسلام من جديد ، ثم رجع يسوق أمامه أربعين ألف أسير من الفرس فيما يقال . وكان ذلك سنة ٣١هـ الموافقة سنة ٦٥٢م . وفي هذه السنة ترك ابن عامر البلاد بغية الحج ، وأقام الأحنف بن قيس ومجاشع بن مسعود ، والربيع بن زياد الحارثي نوبا عنه في القيام بالقيادة ، وهؤلاء أرجعوا سلطة إسلام في البلاد التي انفجرت فيها الثورة ، أمثال كرمان وسجستان وطخارستان فأعادوها إلى سيرتها الأولى ، ورجع سلطان الإسلام حتى هرات وكابول وغزنة . وبذلك تم القضاء على قوات الفرس . وتسمى الفتوحات السابقة التي تمت في بلاد فارس وخراسان بـ " فتوحات أهل البصرة " .

وفي سنة ٣٢هـ ، وهي السنة الثامنة من خلافة عثمان وصل إلى علم المسلمين أن بعض أتباع يزدجرد ملك الفرس الهارب قد اختلفوا معه وطاردوه ، واستمروا في مطاردته حتى استقر به النوى في بيت طحان بمرو ، فدخلوا عليه وقتلوه ، وبقتله زالت دولة الساسانيين ، وبموته انتهى عهد الأكاسرة إلى الأبد .

فتوح الكوفة :

وبينما كانت جيوش البصرة قائمة بإخضاع الثورة فـــي ناحيتهـــا ثـــارت قبائل الترط والخزر وأرمينيا في شمال العراق ، فخرجـــت أذربيجـــان عـــن الطاعة ، ومنعت ما كان قد رضيت به من الجزية ، فغزاها الوليد بـــن عقبـــة والي الكوفة ، حتى رضيت أن تؤدي ما كان عليها في عهـــد عمـــر . وســـير الوليد حبيب بن مسلمة الفهري إلى أرمينية في جيش شتت به شمل المجتمعـــين بها ممن أراد نقض الطاعة . ويروى أن الذي سار إليها إنما هو ســـلمان ابـــن ربيعة الباهلي وأن حبيب بن مسلمة كان مدداً له ، وأيا ما كـــان فقـــد انتصـــر المسلمون ، وتم إخضاع البلدين .

وفي عهد إمارة سعيد بن العاص على الكوفة – بعـــد الوليـــد – زحـــف الترك والخزر يريدون إيقاف المسلمين عن التقدم ، فسار ســـعيد بـــن العـــاص بجيش كبير فيه الحسن والحسين والعبادلـــه الأربعـــة أبنـــاء العبـــاس وعمـــر وعمروب بن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم من الأعلام ؛ لتأديـــب الخارجين ولكنه انهزم أمام هذه الجموع في بلاد لم يألفها المسلمون . وطلـــب من الخليفة إمداده بالجيوش ، فأرسل عثمان نجدات مـــن الشـــام بقيـــادة عبـــد الرحمن بن ربيعة ، ونظم المسلمون صفوفهم ، ثم التقوا بالعـــدو فـــي شـــمال أذربيجان ، ولكن المسلمين انهزموا أيضا ، وأصيب القائد عبد الـــرحمن بـــن

ربيعة ، غير أن أمثال تلك الهزيمة لم تؤثر في معنوية المسلمين ولم تدفع العدو إلى مواصلة التقدم لطرد المسلمين من بلادهم ، لأن أنباء النصر في الميادين الأخرى كانت ذات أثر كبير في نفوس المسلمين وأعدائهم – تسمى الفتوح في أرمينية وأذربيجان وطبرستان (فتوح أهل الكوفة) .

فتوح الشام :

كانت الإمارة على بلاد الشام قد آلت إلى معاوية بن أبي سفيان ، وبينما كان مشغولا بتنظيم الأمور الداخلية إذ فاجأه الرومان بجيش تقدموا به من آسيا الصغرى ، وكان ذلك في السنة السادسة والعشرون من الهجرة الموافقة سنة ٦٤٧م باغت الروم معاوية ، ولم يكن لديه من الجيوش ما يستطيع به الوقوف لدرء هذا الخطر الفجائي بسبب استمرار السلام في الشام طويلاً ولذلك طلب من الخليفة النجدة ، فأنجده بثمانية آلاف ، فألحق بالعدو هزيمة منكرة ، ثم طارده حتى تم له فتح الجزء الشرقي من آسيا الصغرى . ثم أراد أن يصل فتوح الشام بفتوح فارس فاتجه إلى أرمينية ، ثم إلى طبرستان في جنوب بحر الخزر ثم عرج شمالا حتى وصل تفليس وشواطئ البحر الأسود وأطراف آسيا الصغرى الشمالية ، ووقعت بينه وبين الروم وقائع كثيرة كان ينبشها في صيف كل سنة حتى دوخ العدو ، وأجلاه عن كثير من الأراضي ، وأصبح معظم آسيا الصغرى تحت سلطانه ، وأطل على بحر مرمرة وعلى

القسطنطينية فهاجمها ، ولكنها استعصت عليه ، وكان ذلك في أواخر خلافة عثمان . فقفل راجيا إلى الشام وفي عودته ضرب كثيرا من المعاقل والحصون مثل عمورية .

فتوح مصر :

لما استولى المسلمون على الإسكندرية ، بقي كثير من الروم بها فانتهزوا فرصة انشغال المسلمين بالفتوح في المغرب ، وكاتبوا هرقل – قيصر الروم – وأخبروه بقلة من عندهم من المسلمين ، وطلبوا منه نجده ، فأرسل إليهم أحد قواده في أسطول عظيم ، وكان ذلك سنة ٢٥هـ .

ويظهر أن خطة الروم كانت تنطوي على الهجوم من الإسكندرية حيث تنضم إليها قوات الروم الموجودة في أفريقية ثم يتجهون شرقاً لمقابلة جيشهم الثاني الذي ينقض على المسلمين من آسيا الصغرى بعد أن يتم لهم الاستيلاء على مصر . ولكن عمر ابن العاص أفسد عليهم خطتهم ؛ فإنه سار إليهم من الفسطاط ، وعمل على أن يتقدم الروم داخل البلاد ، ونجح في خطته ، ثم التقى بهم في جملة معارك أقنعتهم بتفوق المسلمين البري ، فولوا راجعين إلى الإسكندرية فدخلوها ، وتحصنوا بها ، فألح عليهم عمرو حتى دخلها بالسيف عنوة ، ثم قتل قائد الروم وكثيرا منهم ، واستولى على كثير من سفن

الأسطول ، ثم هدم سور الإسكندرية ، وكان قد نذر إن فتحها ليفعلن ذلك – ثـم رجع إلى مصر . وكان ذلك أخر عمل جليل أداه عمرو للدولـة الإسـلامية ، وكانت مكافأته عليه عزله نهائيا عن إمرة مصر . وكان ذلـك مـن عناصـر الفتنة ضد عثمان .

الفتوح الإفريقية :

كان من بين قادة الجيوش الإسلامية في مصر وأفريقية عبد الله بن سـعد بن أبي سرح – أخو عثمان لأمه من الرضاع – ولاه عمر بن الخطاب الوجـه القبلي على أن يكون تحت رئاسة عمرو بن العاص ، ففتح النوبه ، ولما عـزل عثمان عمراً عن مصر ، صارت الولاية والقيادة لعبد الله بـن أبـي سـرح ، فأراد أن يثبت وجوده ، فاتجه إلى الناحية الحربية ، وقد تم علـى يـده فـتح طرابلس والاستيلاء على قرطاجنة حاضرة ممتلكات الدولـة الرومانيـة فـي إفريقية ، وتابع انتصاراته حتى وصل إلى المحيط الأطلسي .

وقد بلغ من سرور عثمان بهذا الفتح أنه أعطى خمس مـا يخـص بيـت المال من الغنيمة لعبد الله بن سعد مكافأة له . ويقال أن عثمان كـان قـد نـذر ذلك كما يروى أنه باع الأربعة أخماس الباقية لمروان بـن الحكـم بخمسـمائة

ألف دينار ، وهو ثمن نخس إن صح ذلك والروايات كثيرة في هذا الموضوع. وأيا ما كان فقد كانت هذه الشائعات عنصرا من عناصر الفتنة .

الحملات البحرية :

كانت فكرة القيام بحملة بحرية موجودة منذ خلافة عمر وكان معاوية يطلب منه السماح له بحملة بحرية لفتح الجزر القريبة من ساحل الشام كقبرص ورودس ، وكتب له مرة في شأن قبرص : " إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح الكلاب قبرص وصياح دجاجهم ، ولكن عمر بن الخطاب كان يخاف على المسلمين من أخطار البحار ، فلم يأذن له . فلما ولي عثمان جدد معاوية الطلب فأذن له عثمان بشرط ألا يكره أحداً على ركوبه ، وأن يقصر الانخراط في بحريته على المتطوعين .

فأسرع معاوية بتجهيز حملة بحرية أقلعت سنة ٢٨هـ قاصدة قبرص ، وكان أمير البحر فيها " أبو قيس الحارثي " وجاء إليه ابن أبي سرح – أمير مصر ببضع سفن ، وسار الأسطول الإسلامي يخترق العباب ، واشتبك مع الروم سادة البحار في عدة معارك ، قتل في إحداها أمير البحر المسلم واستولى المسلمون على قبرص ، فصالح أهلها على سبع آلاف دينار يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك . وليس على المسلمين منعهم

ممن أرادهم من سواهم ، وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الـــروم إليهم ، ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم . وبعد أن أمضـــيت المعاهـــدة رحل المسلمون من قبرص إلى رودس ففتحوها .

موقعة ذات الصواري :

أحس الروم بمدى خطورة ركوب المسلمين البحر الذي كان يطلق عليـــه بحر الروم لأنهم كانوا سادة هذا البحر ، ولم يكن لهم منـــافس إلـــى أن ظهـــر المسلمون في البحر المتوسط وأجادوا حرب البحر كما أجادوا حـــرب البـــر ، منذ إذن بدأ الروم يعملون على سيادة المسلمين البحريـــة الناشـــئة . فجهـــزوا أسطولا قويا يتراوح عدد سفنه بـــين ٥٠٠ إلـــى ٦٠٠ ســـفينة تحـــت قيـــادة قسطنطين بن هرقل .

فلما شعر معاوية والي الشام وعبد الله بن سعد والي مصر بمقدم أســـاطيل الروم أعد كل منهما أسطولا مجهزاً ، واجتمع الأسطولان وكان عـــدد ســـفنهما لا يزيد عن مائتي سفينة ، وجعلت الإمارة البحرية لابن أبي سرح ، واشـــتبك الأسطولان (الرومي والإسلامي) قرب الإسكندرية ، وتبادل الفريقان الرمـــي بالسهام حتى نفذت وحلت محلها قذائف الحجارة ، ثم احتلا المســـلمون حتـــى ربطوا سفنهم بسفن الروم ، وتواثبوا علـــى الـــروم فـــي الســـفن ، يضـــربون

بالسيوف ويوجئون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمـــواج وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً ، وكان المسلمون يقاتلون كـــأنهم علـــى الأرض ، وكان النصر حليف العرب . واضطر الروم إلـــى الفـــرار وجـــرح أميرهم ، وفر إلى صقلية ، واستولى المسلمون على كثير من سفنهم وســـميت هذه الموقعة بذات الصواري ؛ لكثرة السفن واجتماعها .

ومنذ هذه المعركة البحرية العظيمة صارت الخلافـــة الإســـلامية دولـــة بحرية بما صار إليها من مراكب الروم وبما استحدثه معاويـــة وعبـــد الله بـــن سعد من السفن ، كما أنه لم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الإسلامية التي كـــان يشن الروم الإغارة عليها من آن لآخر . وتحقق الروم بذلك أن نجم مجدهم قـــد أفل وأن الجيوش الإسلامية التي غلبتهم براً أصبحت قادرة بإذن الله أن تغلـــبهم بحراً .

وبانتهاء هذه المعركة وما سبقها مـــن حـــروب صـــارت ملـــك الدولـــة الإسلامية يمتد من نهر جيحون شرق فارس إلى المحيط الأطلسي في الســـاحل الغربي لبلاد المغرب ، ومن المحيط الهندي جنوبا إلى بلاد القوقاز وشـــواطئ بحر قزوين والبحر الأسود شمالا . وأصبح ملكهم ملكا عريضا لم يكن لغيرهم من قبل ولا للروم في عنفوان شبابهم ومجد قوتهم .

أعمال عثمان الداخلية :

١ـ المصحف العثماني :

كان من أجل أعمال عثمان – ﷺ – الداخلية كتابة المصحف على حرف واحد ، والتي امتاز بها تاريخ عثمان بن عفان .

وكان ذلك نتيجة لاتساع الفتوحات الإسلامية وبلوغها آفاقا أرحب في عهد عثمان ، ودخلت في الإسلام أمم وشعوب كثيرة ، اختلفت في عاداتها ، وتباينت في لهجاتها وفي بعض الغزوات التي اشترك فيها الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان راعه هذا الخلاف المفزع بين أهل الشام وأهل العراق حول قراءة القرآن الكريم . فقد كان أهل العراق يقرءون على قراءة عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري ، وكان أهل الشام يقرءون على قراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء . وليس في اختلاف القراءات ما يفزع أو يخيف إذ المعروف أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، ولكن الذي أفزع حذيفة هو تعصب كل من الطائفتين لقراءته واختلافهم فيما بينهم حتى كاد أن يكون هذا الخلاف صداماً وعلى الفور ذهب حذيفة إلى أمير المؤمنين عثمان ، بعد أن فزع من تلك الغزوة ، ووضع المشكلة ملخصة في تلك الكلمات : " يا أمير

المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كما اختلف الذين من قبلهم في كتبهم .

ولم يتون الخليفة لحظة ، فأرسل من فوره وجمع صحابة رسول الله – ﷺ – وشاورهم في الأمر ، ثم استقر الأمر على كتابه المصحف على حرف واحد ، وأن يجمع المسلمين في عصره على مصحف واحد . واستدعى إليه زيد ثابت الذي قال بجمع القرآن في عهد أبي بكر وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، وشرح لهم مهمتهم ، وأوصاهم إذ اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش ، وأحضر لهم المصحف الأول من عند حفصة – رضي الله عنها – ليكون دليلا ، وأساس عملهم ، ففعلوا ، فلما نسخوا ما في المصحف ، ردها عثمان إلى حفصة ، وأرسل إلى كل جهة مصحفاً . ففرح الناس ، وعرفوا فضل هذا العمل الجليل ، إلا أن أتباع ابن مسعود بالكوفة عابوا ذلك على عثمان ، وقالوا : كان القرآن كتبا فحرقها إلا واحداً فصاح فيهم ابن مسعود وقال : ولا كل ذلك فإنكم والله قد سبقتم سبقا بينا فأربعوا على ظلعكم (أشفقوا على أنفسكم) ، فعن ملأ منا كان ذلك فلو وليت منه ما ولى عثمان لسلكت سبيله وقد تم هذا العمل الجليل سنة ٣٠هـ .

بذلك جمع عثمان الشعوب الإسلامية في وحدة قوية لا انفصام لها ، يجمعهم على مصحف واحد ، ولولا ذلك لوقع ما كان يخشاه حذيفة ، وتعدد القرآن كما تعددت التوراة والإنجيل ، ولكن الله سلم لسابق وعده " **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** " .

٢ـ توسيع المسجد النبوي :

في سنة ٢٦هـ زاد عثمان – ﷺ – في المسجد الحرام ، ووسعه وفي سنة ٢٩هـ وسع المسجد النبوي . وقد بناه بالحجارة وجعل عمده من حجارة فيها رصاص ، وجعل سقفه من الساج ، وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه خمسين ومائة ذراع ، وجعل أبوابه ستة كما كانت في عهد عمر .

٣ـ اتخاذ دار للقضاء :

ومن مآثر عثمان اتخاذه دارا للقضاء ، فإننا نعرف أن عمر عين قضاة في مختلف الجهات ، ورتب لهم الأرزاق ، ولكنا لا نعرف أنه اتخذ دارا للقضاء ، بل كان القضاء في المساجد ، أو حيث يوجد القاضي . أما في عهد عثمان ، فكان هو أول من اتخذ داراً للقضاء في الإسلام ، وأوجد المحاكم في الدولة ، فقد كان – ﷺ ميالاً إلى العمارة والتوسعة والتنظيم .

٤- ومن أعمال عثمان الأخرى أنه رزق المماليك من بيت المال:

وهذا لم يكن من قبل ، وذلك دون أن ينقص شيئاً من أرزاق أسيادهم وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مقدار نمو بيت المال ، واتساع موارده. هذا بخلاف حب عثمان للتوسعة على المسلمين .

كذلك من أعماله أيضا إحياء الموات ، وإصلاح الأراضي فقد رأى عثمان كثرة العرب في الأقطار التي فتحت ، ورأي في تلك الأقطار مواتا واسعا من الأرض التي جلا عنها أهلها ، وتركوها بلا مالك أيام الفتح . وكان عمر بن الخطاب لا يبيح للعرب الاشتغال بالزراعة في البلاد المفتوحة ، وكان يهدف بذلك دائما جنود جرب مستعدين للقتال إذ كان يرى أن العمل في الأرض مفسدة لروح الجندية ؛ لأن الجندي يركن في هذه الحالة إلى الراحة ، وهذا لا يتفق وعصر الفتوح .

ومن مآثر عثمان أيضا أنه رتب الطعام في شهر رمضان لأهل المدينة، وأقام دوراً للضيافات في الكوفة وغيرها .

الفتنة في عهد عثمان

١- لما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان كان في السبعين من عمره ، وفوق كبر سنه كان عثمان سهلا لينا ، ولم يكن له حزم أبي بكر وعمر، ولقد اغتبط المسلمون بخلافته ، لما كانوا يجدون فيه من لين وتيسير بل وأحبوه أكثر من عمر ، وبالأخص بعد شدة عمر ، وتضييقه عليهم ، فقد سمح عثمان لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم ، وامتلاك الضياع فيها ، بعد أن منعهم عمر من الانسياح في الأمصار . وفق ذلك ترك عثمان للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون .

٢- وقد أدت الفتوحات الإسلامية المترامية إلى تدافق الثروات على المدينة ومكة ، وأخذت هذه الأموال الضخمة تفعل فعلها في نفوس العرب ، فتقربهم على الاستمتاع ، وتدفعهم إلى حياة البذخ والترف ، حتى انتشرت أنواع من اللهو في المدينة ، فاضطر عثمان إلى أخذهم بشدة وكبح جماحهم ، وكان أن نفي بعضهم عن المدينة ، فتذمروا ، فتذمر ذووهم من الصحابة كعبد الله ابن مسعود ، وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر . ولقد غضب لهم بنو هذيل وبنو زهرة أصحاب عبد الله بن مسعود وبنو غفار وأحلافهم أصحاب أبي ذر الغفاري ، وبنو مخزوم حنقوا على عثمان لما

فعل بعمار بن ياسر ، حيث أدبه بالضرب لقذف وقع بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب .

٣- **كذلك أخذ صحابة رسول الله - ﷺ - على عثمان استحداثه أشياء في الدين لم يسبق بها في عهد الرسول ولا في عهد كل من أبي بكر وعمر:** فهو أول من أقطع القطائع وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من أمر بالآذان الأول يوم الجمعة ، وهو أول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة ، وأول من فوض الناس إخراج زكاتهم ، وأول من حمي الحمى لإبل الصدقة وقد اتهمه الناس أنه ما حمي إبل الصدقة إلا حماية لإبله وخيله وإبل بني أمية وخيلها ، وهو أيضا أول من أتم الصلاة .

٤- **ومن ضمن مآخذ المسلمين على عثمان أنه أعاد عمه الحكم بن العاص** وأهله إلى المدينة ، وكان الرسول - ﷺ - قد أخرجهم ، بسبب إيذاء الحكم للرسول الكريم قبل الهجرة ، وقد شفع عثمان عند الرسول - ﷺ - فوعده بإعادته إلا أنه - ﷺ - قد لحق بالرفيق الأعلى قبل إعادته ، فاستئذن عثمان أبا بكر في إعادته فأبى ، واستئذن عمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة فرفض أيضا ، وطلب من شاهدا ثاني في وعد الرسول - ﷺ - في إعادة عمه ، فلما تولى عثمان الخلافة أعاد عمه وأهله . وفوق ذلك لما مات الحكم ضرب عثمان على قبره فسطاطا ، وولى ابنه الحارث

بن الحكم سوق المدينة ، فأساء السيرة ، وطمع في جمع المال ، ثـم أثـر ابنه الآخر مروان بن الحكم فاتخذه وزيرا ومشيرا ، دون صحابة رسـول الله الكبار ، فانكر المسلمون ذلك وسعى إليه أعلام الصحابة فلامـوه فيـه وقد رد عليهم عثمان : أنه كلم النبي - ﷺ - في رد الحكم فوعـده بـذلك إلا أنه توفي قبل أن يرده .

٥- **اتخذ البغاة من تولية عثمان أقرباءه ولايات هامة في الدولة الإسـلامية** وسيلة لذرع الفتنة ، وإشعال نارها والواضح أن عثمان لم يولهم لقرابـة . ولكن وجد فيهم صلاحية تامة للولاية ، وكفاءة على القيام بهـا ، كمـا أن الكثير منهم ولاه الرسول- ﷺ- ، وأبو بكر وعمر- رضي الله عنهما - .

٦- **كان لإعطاء عثمان أخاه في الرضاعة عبد الله بن سعد خمـس خمـس** غنائم أفريقية تقديرا لجهوده المشكورة في ذلك . وكان قد وعـده بـذلك ، ولم يبتكر عثمان ذلك الفعل ، فقد سبقه إليه الرسـول - ﷺ - وصـاحباه أبو بكر وعمر . ولكن شكا وفد ممن أتى بباقي الغنائم إلى الخليفة ما أخـذه ابن سعد ، فقال لهم عثمان : أنا أمرت له بذلك ، فإن سـخطتم فهـو رد ، قالوا : إنا سخطه ، فأمر عثمان ابن سعد برده فرده .

٧- عبد الله بن سبأ والفتنة :

بينما كانت الأحداث تدور على هذا النحو في المدينة حاضرة الدولة الإسلامية وفي الأمصار بين غليان أهلها وغضبهم قدم إلى الحجاز رجل من صنعاء وهو عبد الله بن سبأ – المكني بأبن السوداء – وكان في الأصل يهوديا أظهر إسلامه ليضل الناس ، ويحملهم عن جادة الطريق . وقد استغل ابن سبأ الظروف المواتية أحسن استغلال في سبيل تحقيق أهدافه الخبيثة .

فأخذ ابن سبأ منذ وصوله إلى الحجاز يلقي إلى الناس في السر تعاليم خبيثة هدامة . فصار يقول لهم : عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد ، فيقبل منه الناس ذلك ، ويقول لهم : عجبا لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بينت نبيكم ، ثم يقصون عن أمركم . وهكذا أخذ ينفث بكلام يسهل قبوله – لمن هم ضعاف الإيمان – ؛ لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ، ورفعة مقامه على سائر الأنبياء ، ثم يظهر استهجانه بتركهم آل النبي وإقصائهم عن أمر الخلافة .

ورحل ابن سبأ إلى البصرة ، ووجد بها مرعى خصيبا بيد أن عبد الله بن عامر ، والي عثمان طرده من البصرة ، فرحل إلى الكوفة ينفث سمومه بها ، وكان قد تفاقم استياء الناس من عثمان وواليه ومن قريش الذين استولى

على أرض السواد ، واتخذوه بستانا لهم ، وواصل الثائرون اجتماعـــاتهم فـــي المنازل ، ولعن عثمان جهارا ، وخاض الناس فيما ارتكب من عظائم الأمور.

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضا ، فقدم بلاد الشام فلم يلـــق مـــن أهلهـــا اهتماما لسمومه الخبيثة ، بسبب حبهم لمعاوية والي الشام من قبـــل عثمـــان ، والتفافهم حوله ، فرحل ابن سبأ إلى مصر ، وأخذ ينشر سمومه بها ، واتصـــل بالثائرين في البصرة والكوفة ، وتبادل معهم الكتب والرسل وبعث الدعاة إلـــى هذه البلاد يدعون لعلي . واستطاع بأفكاره الحبيثة أن يؤثر في الناس ، فوضع مذهب الرجعية – أي رجعة محمد – ثم نشر مذهب الوصايا – بمعنى أن عليـــا وصي محمد – وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم الأنبياء . وعرج إلى أبـــي بكر وعمر وعثمان ، وأتهمهم زاعما بالتعدي على حق علـــي فـــي الخلافـــة . كذلك روج ابن سبأ بين المسلمين نظرية الحق الإلهي التي اقتبسها من الفـــرس، الذين احتلوا بلاد اليمن قبل الإسلام ، وذلك بمعنى أن عليا هـــو الخليفـــة بعـــد النبي ، وأنه يستمد الحكم من الله .

وبهذه الأفكار الهدامة هيأ ابن سبأ العقول إلـــى الاعتقـــاد بـــأن عثمـــان اغتصب الخلافة من علي وصي الرسول ، واشد في تأليب الناس على عثمـــان وعلى ولاته . وقد سهل على ابن سبأ تنفيذ سياسته في مصر اشتد سخط أهلهـــا على عثمان ، وعلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، عامله على مصر ، ومن

ذوي قرباه ، وأخيه في الرضاعة كما ساعد على إذكاء نيران السخط انضمام محمد بن أبي بكر ، ومحمد ابن أبي حذيفة إلى ابن سبأ .

ويرجع سبب انضمام محمد بن أبي بكر إلى أصحاب الفتنة إلى صلة النسب بينه وبين علي بن أبي طالب وابنة الحسين ، فقد تزوج علي أسماء بنت عميس أم محمد بعد وفاة أبي بكر ، فكان بذلك ربيباً في بيت علي ، ثم هو والحسين بن علي كانا زوجين لابنتي يزدجرد الثالث آخر الملوك الساسانيين .

أما انضمام محمد بن أبي حذيفة إلى الفتنة فيرجع إلى أن عثمان بن عفان رفض أن يولي ابن أبي حذيفة ، وكان يعيش في كنف عثمان شيئاً من أمور المسلمين إذ نمى إلى عثمان أنه يشرب الخمر ففارق ابن أبي حذيفة وحضر إلى مصر ، ثم اشتبك قبيل معركة ذات الصواري مع والي مصر عبد الله بن أبي سرح في خلاف ديني حاد بسبب تكبير ابن أبي حذيفة بصوت عالي أثناء الصلاة ، فلما اشتد الخلاف منعه ابن أبي سرح من الخروج معهم إلى المعركة فتحداه وخرج مع بعض القبط في سفينة . ولما انتهت المعركة وعاد جيش المسلمين انضم محمد إلى ابن سبأ " .

ولما رأى عثمان بن عفان كثرة الكلام ، وأصبحت الحالة في البصرة ، والكوفة ، مصر خطيرة ، اضطر عثمان إلى إيفاد أربعة من رجاله ليبحثوا أسباب هذه القلاقل ، ويقفوا على حقيقة الحال في الولايات الإسلامية . فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر .

وبعد أن أدى هؤلاء النفر واجبهم الذي كلفوا به عادوا إلى المدينة عدا عمار بن ياسر ؛ فقد استماله أصحاب الفتنة في مصر . وقد ساعد على ذلك ما كان بين عمار وعثمان ؛ إذ أن عثمان قام بتأديبه بالضرب هو وعباس بن عتبه بن أبي لهب لقذف حصل بينهما .

الفتنة وأبو ذر الغفاري :

على الرغم أن بلاد الشام قد سلمت من شر عبد الله بن سبأ وأهدافه الخبيثة لهدم أركان الإسلام ؛ وذلك بسبب سياسة معاوية بن أبي سفيان والي الشام ، وحزمه ، ولكن عبد الله بن سبأ استطاع أن يستميل إليه صحابيا جليلا، وهو أبو ذر الغفاري . وذلك أن عبد الله بن سبأ أتى الشام تقابل مع أبي ذر ، فقال له : يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية يقول المال مال الله إلا أن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، ويمحموا اسم المسلمين ، فأتى أبو

ذر معاوية وقال له : ما يدعوك إلى أن تسمي المال مال الله ، قال : يرحمك الله يا أبا ذر . ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه ، والأمر أمره . فقال له أبو ذر : فلا تقله ، قال : فإني أقول : أنه ليس لله ، ولكن سأقول : مال المسلمين .

ومنذ إذ بدأ أبو ذر يعلن استياءه من سياسة معاوية وأخذ في نفس الوقت يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء ، وعلى الإقلاع عن الادخار ، ويبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

وما زال أبو ذر في بث أفكاره حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، وأساءوا إليهم حتى شكا الأغنياء ما يلقونه من الناس . فرفع معاوية الأمر إلى عثمان ، فأمره عثمان أن يجهز أبا ذر ، فأرسله إليه ، ولما دخل أبو ذر المدينة ، ووجد المجتمعات تعقد للتآمر على عثمان ، نادى في المجتمعين : بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ، وكأنه تنبأ بالثورة التي راح ضحيتها عثمان .

ولما مثل أبو ذر بين يدي عثمان ، ووجد في أفكاره خطورة كبيرة على المسلمين ، ومبادئ شرع الله الحنيف ، إذ أذن عثمان لأبي ذر بالإقامة في

الربذة ، كما طلب – وقيل أنه نفاه إليها – والربذة : قرية صغيرة على مقربة من المدينة . ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات سنة ٣١هـ / ٦٦١م .

ولا يمكن أن يشك أحد حسن نية أبي ذر الغفار في كل ما نادى به من أفكار ، وخصوصا وأنه بدأ يشعر بمدى الفوارق بين الأغنياء والفقراء ، على غير ما كان عليه في عهد كل من أبي بكر وعمر ، وبخلاق ذلك كان استياء أبي ذر من عثمان مصدره ما كان يعتقده في عثمان من هوادة في الدين وتهاون في أحكامه . وهذا يخالف تماماً ما هدف إليه عبد الله بن سبأ من فتنة التي عمت فإذا كان أبو ذر أراد بما ذهب إليه إصلاحاً فأخطأ طريقه ، فإن ابن سبأ أراد بسمومه هدماً لا إصلاحاً ، وتفتيتا للمسلمين لا رأبا لفتق ، فسار أبو ذر في طريقه فأخطأ ، وسار ابن سبأ في طريق لم يخطئه ولم يجهله ، بل سار في طريق رسمه لنفسه ، وحقق كثيرا من أهدافه القاتلة الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين .

مقتل عثمان :

حقق ابن سبأ ما كان يرمي إليه من تأليب الولايات الإسلامية على عثمان وولاته ، وأكبر دليل على نجاحه انضمام الكثيرين من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه ، ومنهم صحابه أجلاء ، أو أبناء صحابة ، كعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي حذيفة ، ومحمد بن أبي بكر .

ولم يبق بعد نجاح عبد الله بن سبأ فيما هدف إليه إلا مرحلة التنفيذ ، وبدأ محمد بن أبي حذيفة بتنفيذ ما رسمه ابن سبأ فكاتب أشياعه من أهل البصرة والكوفة ، واتفقوا جميعا على التوجه إلى المدينة ، وخرج كل منهم في ستمائة رجل ، واجتمعوا خارج المدينة ، وأرادوا الاتفاق على من يولونه الخلافة بعد عثمان فوقع الخلف بينهم جميعا ، فأهل البصرة مالوا إلى الزبير بن العوام وأما أهل الكوفة فقد أرادوا طلحة بن عبيد الله ، بينما مال أهل مصر وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ إلى علي بن أبي طالب . وعمل كل فريق على أن يتم الأمر له ولمن وقع اختياره عليه .

ثم اتصل كل فريق منهم بمن يميل إليه من الصحابة فردوهم بشدة ، وامتنعوا عن اجابتهم ، فاتصل وفد مصر ، وطلبوا من عثمان عزل واليه ،

وتعيين محمد بن أبي بكر واليا عليهم ، فأجابهم عثمان عن طيب خاطر إلى مطالبهم ، فقفل وفد مصر راجعا .

وبينما كان وفد مصر راجعا في طريقهم إلى مصر ، شاهدوا راكبا يتعرض لهم تارة ، ويفارقهم أخرى ، فقبضوا عليه ، وفتشوه فوجدوا معه كتابا على لسان عثمان ، وعليه خاتمه إلى عامله عبد الله بن أبي سرح ، يأمره فيه أن يستأصل شأفة هذا النفر قتلا وتصليبا فعادوا إلى المدينة ، وباغتوا عثمان بها ، ومعهم الوفود الأخرى مما يدل على سبق اتفاقهم للهجوم على المدينة ، وحصار عثمان وذلك بعد أن يتفرق أهل المدينة . وبالفعل حاصروا عثمان ، فأتى علي بن أبي طالب وفد مصر ، وقال لهم : ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعهم عن رأيكم ، فقال المصريون : وجدنا مع البريد كتابا بقتلنا وقال الكوفيون والبصريون : جئنا ننصر إخواننا ، ولما دخلوا على عثمان أغلظ الأيمان على أنه ما كتب ، ولا أمر بكتابة هذا الكتاب ولا ختم له به ، فطلبوا إليه عندئذ أن يسلم إليهم مروان بن الحكم بعد أن أدركوا أنه كاتب هذا الكتاب ، فأبي عثمان فحاصروه حتى يجيب إلى طلبهم .

واستمر الحصار على عثمان وأشتدوا عليه حتى منعوه الماء فكان لا يصل إليه إلا سراً ، وكان عثمان يطل عليهم من آن لآن ويعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة .

ولما يئس عثمان من الفلات من هذا الحصار ، وأدرك ضعف أهل المدينة على مناصرته ، حتى أن عليا بن أبي طالب خرج من المدينة بعد أن تفاقم الأمر ، وغلب السفهاء على الأمر ، أرسل عثمان مع عبد الله بن عباس أمير الحج ، وقرأ الكتاب على المسلمين .

ولما وجد الثوار أن موسم الحج قد انتهى ، وأن المدد الذي طلبه عثمان من الولايات الإسلامية أوشك أن يباغتهم تعجلوا بالأمر ، فأحرقوا أبواب الدار ، ومنهم من تسور من دار ابن حزم – وكان جاراً له – ولما شاهد ذلك عثمان استسلم للقضاء ، وأمر من يريد الدفاع أن ينصرف ، وأصر البعض للدفاع عنه ، منهم الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير – وقيل محمد بن أبي بكر أيضا – إلا أنهم لم يتمكنوا من صدهم ، فاقتحموا على عثمان . فضربوا الغافق بحديده فقتله ، وجاء سودان بن حمران ليضربه بسيفه ، فأكبت على عثمان زوجته البارة نائلة ، واتقت السيف بيدها ، فقطع أصبعها ، ثم انتهبوا بيته ، وبيت المال ، وكان ذلك في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥هـ/٦٥٦م .

وهكذا استشهد عثمان بن عفان – ﷺ – في هذه الفتنة العارمة التي قادها عبد الله بن سبأ . ومن غريب ما فعله الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن جثمان عثمان ، ولم يدفن إلا بصعوبة وخفية ، إذ خرجوا به بعد المغرب فدفنوه ، ولم يشيع جنازته إلا نفر قليل ، وصلى عليه جبير بن مطعم .

الفصل الرابع

خلافة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -

علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -

٣٥ – ٤٠هـ / ٦٥٦ – ٦٦١م

ترجمة علي :

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم الرسول - ﷺ - ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف . وقد أسلمت وهاجرت مع المهاجرين إلى المدينة وكانت من السابقات في الإسلام .

وقد ولد علي كرم الله وجهه قبل البعثة النبوية بعشر سنين ولما بعث محمد - ﷺ - كان علي مقيما مع رسول الله في بيته ، تخفيفا على أبيه الذي كان يمر هو وأهل مكة في ذلك الحين في ظروف مالية قاسية ، ومن هنا كان إسلامه بعد تردد قليل في إخبار أبيه أو عدم إخباره في دخول دين محمد - ﷺ - . ثم كان لعلي كرم الله وجهه الشرف العظيم ببياته في فراش رسول الله - ﷺ - في ليلة الهجرة معرضا نفسه لأخطار جمة ربما كانت تقضي على حياته ، ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التي كانت عند الرسول الكريم أمانة لأصحابها .

وقد زوجه الرسول - ﷺ - من ابنته فاطمة في السنة الثانية من الهجرة، كما حضر علي كل المشاهد ما عدا غزوة تبوك ؛ فإن الرسول خلفه فيها على أهله .

ولما توفي رسول الله - ﷺ - ، انشغل علي بتجهيزه ودفنه عن كل الأمور التي دارت في مسألة الخلافة في سقيفة بني ساعده ، دون علمه وعلم العباس بن عبد المطلب وبعض ولده وأسامة بن زيد ، وقد اشتركوا مع علي في تجهيز رسول الله - ﷺ - .

وكان علي يرى أنه أحق المسلمين بالخلافة لسببين رئيسيين هما :

١- سابقته في الإسلام ؛ حيث كان هو وأبو بكر وزيد بن حارثة أوائل من دخلوا في الإسلام .

٢- قرابته لرسول الله - ﷺ - نسباً وصهراً ، فلما آلت الخلافة لأبي بكر ، وأخذت الناس تبايعه في المسجد ، سارع علي إلى المسجد فبايع أبي بكر، وذلك على خلاف ما قيل توقف عن بيعة أبي بكر مدة ستة شهور . وأصبح بعد بيعته لأبي بكر مستشارا له في مهام الأمور . كما أن عمر بن الخطاب لم يكن يعمل عملا إلا بمشورته ، لما كان يعهد فيه من الفقه والدين والذكاء ، ثم اختاره - كما رأينا - على رأس أهل الشورى الست عندما طعن على يد أبي لؤلؤة ، وذلك لاختيار واحد منهم لخلافة عمر .

بيعة علي :

قتل الثوار الخليفة الثالث لرسول الله - ﷺ - وأصبحت المدينة في قبضتهم . وكانت الفرقة المصرية في المدينة أقوى الفرق ، وتولى زعيمها الغافقي الإمامة في الصلاة بالمسجد النبوي .

وفي اليوم الخامس لمقتل عثمان ، أعلن الثوار أنهم لن يتركوا المدينة قبل اختيار خليفة جديد ؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه لابد للناس من إمام ، ولا بد أن يبايع هذا الإمام في أسرع وقت قبل أن يستبد العمال بما في أيديهم ، ويرسل أقواهم معاوية جنداً إلى المدينة ليخضعها لسلطانه ، ويعاقب الثوار على ما كان منهم .

وكان الثوار مع اتفاقهم على اختيار خليفة كانت أهواؤهم مختلفة : فهوى أهل مصر مع علي ، وهو أهل الكوفة مع طلحة ، وهوى أهل البصرة مع الزبير بن العوام . فذهب كل جماعة إلى من يرغبون حكمه ، وعرضوا عليه الخلافة فرفضها الثلاثة ، وكان كل واحد منهم يتبرأ من الثوار فلما لم يجد الثوار ممالئاً ولا مجيباً ، قالوا : لا نولي أحد من هؤلاء الثلاثة ، فبعثوا إلى سعد بن أبي وقاص ، وقالوا له : إنك من أهل الشورى ، فرأينا فيك مجتمع فأقدم نبايعك ، فبعث إليهم : إني خرجت منها فلا حاجة لي بها على أي حال . ثم عبد الله بن عمر ، فقالوا له : أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر ،

فقال : إن لهذا الأمر انتقاما لا أتعرض له ، فالتمسوا غيري . فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون ، والأمر أمرهم بطبيعة الحال ، وقالوا : إن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم . وكأن الثائرين استيقنوا آخر الأمر أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس إماما وأنه لابد أن يعينهم المهاجرون والأنصار على ذلك فجمعوا أهل المدينة ، وقالوا لهم : يا أهل المدينة أنتم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة ، وحكمكم جائز على الأمة ، فانظروا رجلا تنصبونه ، ونحن لكم تبع ، وقد أجلناكم يومكم فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن إذا عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيرين ، فذهب أهل المدينة إلى علي يعرضون عليه الإمامة ، ويلحون عليه في قبولها. وحاول أن يمتنع فخوفوه بالفتنة .

وكان ابن أبي طالب يقول لهم : دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، فقالوا له : ننشد الله ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى الفتنة ؟ فقال لهم : قد أجبتكم واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا أحدكم إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه . ثم افترقوا على ذلك واتغدوا الغد . وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا : إن دخل طلحة والزبير استقامت الأمور .

وفي اليوم التالي يوم ٢٣ من ذي الحجة سنة ٣٥هـ اجتمع المسلمون في المسجد ، فقال علي لهم : إن كنتم لا تزالون على من أبرمنا أمس ، فأنا معكم على ذلك وإلا فلا سبيل لي على أحد ، فقالوا له : نحن على ذلك ، وتداعي الناس للبيعة ، وبايعه جمهور من كان حاضرا بالمدينة ، وامتنع نفر عن البيعة ، فلم يلح عليهم علي في البيعة ، ولم يأذن للثائرين في إكراههم عليها . ومن هؤلاء النفر سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأبو سعيد الخدري وأسامة بن زيد وغيرهم ممن اعتزلوا الفتنة . وكان من الممتنعين عن البيعة طلحة والزبير فأكرهما الثائرون على البيعة ولم يتركهما علي وشأنهما كما ترك غيرهما ، لأنه كان يعلم من أمرهما ما يعلم الثوار ، فكان يعلم أن طلحة كان من أشد الناس على الخليفة المقتول ، وأنه كان يطمح إلى ولاية الأمر ، وكان يعلم أن الزبير لم يكن أقل طموحا من طلحة للولاية ، وكل واحد منهما له أنصار فأراد أن يستوثق منهما ومن أتباعهما حتى تستقيم الأمور .

وبجانب هذه الرواية توجد رواية أخرى مؤداها ، أنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله - ﷺ - من المهاجرين والأنصار ، وفيهم طلحة والزبير ، وأتوا عليا ، وعرضوا عليه الإمامة ، وذكروا فضائله ومزاياه ، فأبي إباءً شديداً ولكنهم صمموا على انتخابه فبايعوه .

وقد تمت البيعة لعلي بعد مقتل عثمان بخمسة أيام ، وظهر أن الأمور قد استقامت لعلي في الحجاز ، وفي الكوفة وفي البصرة وفي مصر . وكان الذي يشغل عليا الشام ؛ لأنه لم يشترك في البيعة من جهة ، ولأن الذي يحكمه معاوية أقوى العمال ، ثم هو ابن عم عثمان من جهة أخرى . ولكن عليا كان يرى أن بيعته انعقدت ولزمت من تأخر عنها .

ولما تم الأمر لعلي في مسجد الرسول - ﷺ - خطب أول خطبة له ، حث فيها الناس على أداء الفرائض ، وحثهم على التقوى ، وبين حرمة المسلم وقال لهم : إذا رأيتم الخير فخذوه وإذا رأيتم الشر فدعوه . الخ ..

منهج علي في الحكم :

نهج علي منهج عمر بن الخطاب ، وسار بسيرته في الزهد وإقامة العدل، والشدة على ذوي الأهواء . فعاش عيشة هي إلى الخشونة والشظف أقرب منها إلى الرقة واللين ، فكان أثناء خلافته القصيرة يلبس خشن الثياب والمرقع منها ، وكان يحمل عماله على التبليغ بميسور العيش والرفق بالرعية، ويطلب منهم الاستعانة في أعمالهم بالأخيار بقطع النظر عن القرابة أو الصداقة ، وأن يكونوا من أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام ، وكان شديد الحرص على مصالح الأمة شدة كرهت فيه أصحاب المطامع الشخصية ، وكان بخيلا بمال المسلمين على أقرب الناس

إليه مما دفع ابن أبيه وأمه عقيل بن أبي طالب أن يتركه ويذهب إلـــى معاويـــة بالشام ، وكان يحمل الدرة ، ويمشي في الأسواق ، يعظ الناس ويؤدبهم .

ومن هذا يتبين أن عليا سار سيرة ابن الخطاب ولكـــن مـــع رعيـــة أشـــد وأعسر من رعية عمر وأرغب في الدنيا من رعية عمر وأخذ نفسه بأشد ممـــا أخذ عمر نفسه مع افتراق الشمل واختلاف الرأي ، فهو منهج جاء فـــي غيـــر أوانه .

علي وصعوبات الطريق :

بعد أن استقرت البيعة لعلي كرم الله وجهه أتى المغيرة ابن شـــعبة عليـــا فقال له : إن حق الطاعة النصيحة وإن الرأي اليوم تحوز به ما في غـــد ، وإن التصارع اليوم تضيع به ما في غد .. أقرر معاوية على عمله ، وأقـــرر ابـــن عامر على عمله وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتـــك طـــالتهم وطاعـــة الجنود استبدلت أو تركت ، قال : حتى أنظر ، فخرج من عنده ، وعـــاد إليـــه من الغد فقال : إني أشرت عليك بالأمس برأي وتعقبتـــه ، وإنمـــا الـــرأي أن تعاجلهم بالنزع ، فتعرف السامع من غيره ، ويستقل أمرك ، ثم خـــرج فتلقـــاه ابن عباس خارجاً وهو داخل ، فلما انتهى إلى علـــي قـــال : رأيـــت المغيـــرة خارجا من عندك ففيم جاءك قال : جاءني أمس بكيت وكيت ، وجاءني اليـــوم بزيت وزيت ، فقال : أما أمس فقد نصحك ، أما اليوم فقد غشك ، قـــال : فمـــا

الرأي ، قال : كان الرأي أن تخرج حين قتل عثمان أو قبل ذلك فتأتي ينبع فتدخل دارك فتغلق بابك ، فإن العرب كانت لجائلة مضطربة في أمرك لا تجد غيرك ، فأما اليوم فإن بني أمية يستحسنون الطلب بأن يلزموك شعبة من هذا الأمر .

ومن الواضح أن المغيرة كان ناصحاً في أول الأمر ولكن عليا لم يكن مستعدا لقبول هذه النصيحة للظروف القائمة والمحيطة بعلي ، فإن الشكوى من الذين قتلوا عثمان إنما كانت في ظاهرها على الأقل من هؤلاء العمال فكان لابد لحسم الشكوى من عزلهم جميعاً حتى يمكن استئناف حياة جديدة مع أشخاص يطمئن إليهم ؛ ولذلك نرى عليا لا يعير نصيحة المغيرة أي اهتمام ، وخصوصا أن المغيرة لم يبايع عليا .

ومن هنا أصدر علي قراره بعزل جميع عمال عثمان واستبدالهم بآخرين. فكان أن بعث عماله إلى الولايات عازلاً عمال عثمان ، فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام .

سار عمال علي إلى أقاليمهم ، فأما عثمان بن حنيف فدخل البصرة وقد رحل عنها عامل عثمان عبد الله بن عامر وحمل ما استطاع حمله من المال حتى أتى مكة ، فأقام بها وأما قيس بن سعد فدخل مصر وافترق أهلها :

جماعة انضموا إليه وجماعة تحصنوا بخربتا (في محافظة البحيرة) وقـالوا : إذا اقتص علي من قتلة عثمان بايعناه ، وجماعة قالوا : نحن مع علـي إذا لـم يقتص من إخواننا .

وأما عبيد الله بن عباس فقد دخل اليمن وفر واليها يعلي بن أمية أو ابـن منية إلى مكة ، وحمل ما كان عنده من مال ، وأما عمارة بن شـعاب وسـهل بن حنيف فقد قوبل كل منهما عند الحدود بما ألجأه إلى الفرار .

وعندئذ استدعى علي طلحة والزبير وطلب رأيهما فقالا : ائـذن لنـا أن نخرج من المدينة فإما أن تكاثروا ، وإما أن تدعنا ، وكأنهمـا يشـيران عليـه بحرب الذين لم يبايعوه ، فقال علي : سأمسك الأمر ما استمسك ، فإذا لم أجـد بداً فآخر الدواء الكي .. ثم أذن لهما فخرجا إلى مكة بحجة العمـرة . ويقـال أنهما لم يخرجا إلى مكة إلا بعد ذلك حينما كان علـي يتجهـز للشـام بحجـة اعتزالهما حرب الشام .

وسواء أكان قد خرجا فـي الظـرف الأول أو الثـاني بحجـة العمـرة ، أو بحجة اعتزال الناس فإنهما كانا على علي لا له كما نشير إلى ذلك آنفا .

وأمام ما حدث لوالي علي على الكوفة عمارة بن شهاب وسهل بن حنيـف واليه على الشام رأى الخليفة أن يوجه كتابا إلى كل من أبي موسى الأشـعري

بالكوفة ، ومعاوية بن أبي سفيان بالشام يطلب منهما تقديم براهين الطاعة إليه فأرسل إلى أبي موسى كتابا مع معبد الأسلمي فرد عليه بالطاعة ، وأرسل إلى معاوية سبرة الجهني يدعوه إلى الدخول في طاعته . فحجز معاوية الرسول عنده مدة طويلة ، وكلما استنجزه سبرة الجواب لم يلتف إليه .

وفي صفر سنة ٣٦هـ رد معاوية رسول علي ومعه رسول من عنده يدعى قبيصة العبسي بكتاب كل ما فيه من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب ، وقال لرسوله : إذا خلت المدينة فاقبض على أسفل الكتاب ، ثم أوصاه بما يقول لعلي . وأقبل العبسي حتى دخل المدينة في غرة ربيع فرفع الكتاب ، حتى عرف الناس أنه يحمل رد معاوية ، فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ، ومضى العبسي حتى دخل على علي ، فدفع إليه الكتاب ، ففي على خاتمه فلم يجد فيه كتابه ، فقال علي للرسول : ما وراءك؟ قال آمن أنا ، قال علي : نعم ، فقال : ورائي أني تركت قوما لا يرضون إلا بالقود ، قال علي : ممن ؟ قال : من خيط عنقك ، وتركت ستين ألف يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق ، فقال : مني يطلبون دم عثمان ، ألست موتورا كثرتهم ؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، نجى والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله .

وعلم الناس بأن معاوية قد خالف علياً ، وانه انتقض عليه فبعثوا إليه زياد بن حنظلة التميمي ليعرفهم ما اعتزم الخليفة فدخل عليه ، فقال له علي : تجهز لغزو الشام ، فخرج زياد وأعلم القوم بالتجهز لغزو الشام .

ولم يلبث الخليفة أن جمع المسلمين ، وبين لهم ضرورة إخماد تلك الحركة الإنفصالية قبل تفاقمها ، وحثهم على الاندماج في الحملة قبل فوات الأوان ، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر وإلى أبي موسى الأشعري بالكوفة ، وإلى عثمان بن حنيف بالبصرة أن يندبوا الناس للقتال .

وبينما الخليفة علي يأخذ أهبته للشام إذ جاءه الخبر عن أهل مكة بأنهم قد أجمعوا أمرهم على الخلاف فوجد علي أن هذا الخلاف أخطر من خلاف الشام فرأى أن يتجه إليهم أولاً . وخصوصاً أن به عائشة أم المؤمنين والزبير وطلحة .

موقعة الجمل :

كانت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قد تركت المدينة وارتحلت إلى مكة أيام اشتداد الحصار على عثمان ، ولما أرادت العودة إلى المدينة ثانية لقيها رجل من أقاربها ، فقالت له : ما وراءك فقال : قتل عثمان واجتمع الناس على علي والأمر أمر غوغاء فقال : ما أظن ذلك تاما ردوني فانصرفت راجعة إلى مكة حتى إذا دخلتها أتاها عبد الله بن عامر الحضرمي أمير مكة أيام عثمان ، فقال : ما ردك يا أم المؤمنين ؟ فقالت : ردني أن عثمان قتل مظلوما ، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام ، فكان أول من أجابها عبد الله بن عامر الحضرمي وكذلك بنو أمية ورفعوا رؤوسهم ، وكان على رأسهم الوليد بن عقبة ومروان بن الحكم ، ثم سائر بني أمية وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة ويعلي بن أمية من اليمن كما انحاز إليهم طلحة والزبير من المدينة .

ثم بدأوا يتشاورن في الطريقة التي ينفذون بها ما أرادوا ، والبلد التي تساعدهم في الحركة ، وانتهوا إلى أن البصرة تكون مقصدهم لكثرة المضرية فيها .

وبدأوا الاستعداد للرحيل على قدم وساق ، وأمدهم ابن عامر ويعلي بن أمية بكثير من المال والظهر ، وبلغ عددهم ثلاثة آلاف مقاتل .

ولما عزموا على قصد البصرة ، ورأوا مدى أهمية وجود أم المؤمنين بينهم وأصرها البالغ فيهم فأرادوا أن تذهب معهم إلى البصرة ، فقالوا لها : يا أم المؤمنين ، دعي المدينة وما فيها من أمر الغوغاء واشخصي معنا إلى البصرة فإن أهلها يحتجون علينا ببيعة علي ، فتنهضينهم معنا كما أنهضت أهل مكة ، وتقعدين هناك فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدين . وكذلك تحدث معها كل من طلحة والزبير في الصحبة إلى البصرة ، فقالت أتأمران بالقتال ؟ قالا : ولكن تعظن الناس وتحرضينهم على الطلب بدم عثمان ، وعندئذ قبلت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – الذهاب إلى البصرة .

جاءت الأخبار لعلي بن أبي طالب ، فرأى أهمية خطر هؤلاء فتحول عن قتال أهل الشام ؛ ليرد هؤلاء الثائرين عما قصدوا إليه ، وحاول أن يدركهم في طريق قبل أن يصلوا إلى البصرة ، وكان يظن أنه سيلقى هؤلاء القوم فيناظرهم ، ويردهم إلى الجماعة ، ويعود معهم آخر الأمر إلى المدينة . ولكنه لم يكد يمضي في طريقه ليلقى القوم حتى عرف أنهم فاتوه وتمكنوا من البصرة بعد قتال عنيف مع أهلها انجلت عن قتل جميع من ساهم في التحريض على عثمان بالقول أو الفعل من أهل البصرة سوى حرقوص بن زهير السعدي ؛ فإن عشيرته من بني سعد منعوه لما التجأ إليهم بعد هزيمة أصحابه ، وطردوا والي البصرة بعد تشويه وجهه ثم عسكرت السيدة عائشة أم المؤمنين ومن معها بالفرضة من البصرة .

وترك عليُ بمن معه بذي قار ، ثم بعث يستنفر أهـل الكوفـة ، فنفـروا إليه، وفي نفس الوقت أرسل عليُ الرسل إلى عائشة والزبير وطلحة من أجـل حقن دماء المسلمين والوصول إلى حل سلمي لكلا الطـرفين وعلـى رأسـهم القعقاع ابن عمرو الذي استطاع بما لديه والحكمة والحنكة أن يصل معهم إلـى اتفاق سلام بين الأطراف ، وبات الناس مغتبطين ما عدا فريق السـبئية الـذين باتوا أشر ليلة خوفا عما عساه يحل بهم مـن العقوبـة إذا مـا هـدت الفتنـة واستقامت الأمور . فباتو يتشاورون ليلتهم واستقر رأيهم على نشـوب القتـال في السر .

فخروا مع العسق ، ووضعوا السلاح في حـزب عائشـة فقـال طلحـة والزبير : ما هذا ؟ قالوا : طرقنا أهل الكوفة ليلا ، فقالا : قد علمنـا أن عليـا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرام وأنه لن يطاوعنا وسأل علي عمـا حدث فقالوا له : يا أمير المؤمنين ما فجئنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم مـن حيث جاءوا ووجدنا القوم على قلب رجل واحد فغلبونا فقال عليُ : قد علمـت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لـن يطاوعانا .

وهكذا استطاع السبئية خوفا على أنفسهم من إشعال القتال بين الطـرفين ، ولم يكن أمام ذلك سوى التقاء الجيشين في مكان يقال له الخريبة ؛ وذلـك فـي

منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ / ٦٥٧م ، والتحم الجيشان ، وعائشة - رضي الله عنها - راكبة في هودجها على جمل يسمى عسكراً ، وقتل الناس حوله ، ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل ، وأن الناس لا تسلمه أبداً حتى ولو أبيدوا عن آخرهم ، نادى : اعقروا الجمل فأتا رجل من خلفه وضرب عرقوب الجمل فسقط وسقط الهودج .

فتمت عندئذ الهزيمة على أصحاب عائشة وطلحة والزبير . وأسرت عائشة ومروان بن الحكم ، وقتل طلحة رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله ؛ لما كان يتهمه بتحريض الناس على عثمان ، وفر الزبير في اتجاه المدينة إلا أنه قتل في الطريق [1] وبقيت عائشة في هودجها إلى الليل ، ثم جاءها أخوها محمد بن أبي بكر فأدخلها داراً من دور البصرة فقامت بها أياماً ، ثم أرادت الارتحال . فجهز علي بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة ، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر ، ولما حانت ساعة الرحيل ودعها بنفسه وسار بجانب الهودج حتى خارج المدينة وسير أولاده معها مسيرة يوم وشيعها الناس ، وكان ذلك في غرة رجب سنة ٣٦هـ .

---

(١) قتله عمرو بن جرزومة ، وكان قد خرج خلفه يتتبعه حتى قتله وغضب علي لذلك أشد الغضب ، ودعا علي من قتله ، وكان يقول : قاتل الزبير في النار .

ولم تتدخل أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – بعد هذه الحادثة في الشئون السياسية واستقرت في المدينة مرجع المحدثين حتى ماتت سنة ٥٨هـ.

وهكذا انتهت هذه المعركة التي لم يتمناها الطرفان بمقتل عشرة آلاف ، وقتل فيها الكثير من خيار المسلمين ، وحزن على ذلك أشد الحزن ، ويترحم عليهم جميعاً .

الخلاف بين علي ومعاوية وموقعة صفين :

ذكرنا سابقا أن عليا عرف عنه من شدة في الحق قد بادر بعد توليه الخلافة بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان بن عفان ، والذين كانوا مثار الفتنة ، وخروج الثوار عليه ، ثم قتله . وقد أذعن جميع الولاة لأمر علي حتى من تردد منهم في البداية – وانصرفوا عما كانوا يلونه من الولايات . وكان الوحيد الذي خرج عن هذه القاعدة وامتنع عن العزل معاوية بن أبي سفيان .

وكانت ثورة بلاد الشام وحب أهلها لمعاوية لطول مكوثه واليا عليهم قد مكنته من تكوين حزب قوي ، ومن خلال هذا السند القوي الذي استند عليه معاوية رفض بيعة علي ، بل واتهمه بالاشتراك في دم عثمان ، أو على الأقل حماية قاتليه حتى أواهم إلى جيشه ، ولم يعمل عملا للقصاص منهم .

ولما علم علي بما عليه معاوية والتفاف أهل الشام حولـه ، وباستعداده لقتاله . لم يجد بدا من المسير إلى بلاد الشام وقتال معاويـة ، فخـرج عليـه وعسكر بالنخيلة ، ثم تحرك بجنوده عن طريق الجزيرة فعبـر الفـرات مـن الزقة حتى استقر بصفين . وكان خبر تحرك علي قد بلغ معاوية فخرج بجيشه وعسكر قريبا من جيش علي في موضع سهل على الفرات .

وكان الموقع الذي اختاره معاوية ، موقعا حيويا بحيث يمنع مرور جيش علي إلى الماء حتى باتوا عطاشا . فقد حال معاوية بينهم وبين المـاء ، ولكـن عليا أجلى رجال معاوية عن الماء وسيطر عليها ، فأرسل إليه معاوية عندئـذ يستأذنه في وروده فأذن له . ثم بعث علي بعد يومين مـن نزولـه فـي هـذا الموضع إلى معاوية يدعوه إلى توحيد الكلمة ، والدخول في جماعة المسـلمين. وطالت المراسلات بينهما . فاتفقا على الموادعـة إلـى آخـر المحـرم سـنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م .

ولما انقضى شهر المحرم ، ولم يستطع علي الوصول إلـى صـلح مـع معاوية على الرغم من محاولاته الدائبة إلى ذلك . أرسل إليهم يـدعوهم إلـى قتال فاصل لحسم الأمر بين الطـرفين . ففـزع أهـل الشـام إلـى أمـرائهم ورؤسائهم ، وكتبوا كتائبهم ، وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش .

والحق ، فإنه على الرغم من ميول علي إلى حقن دماء المسلمين وخـوف معاوية عما تسفر عنه هذه المعارك ، وحب كلا الطرفين إلى الوصـول لحـل مرض لهما معا ، إلا أن رسل الجانبين كانوا السبب في غلـق جميـع أبـواب الصلح ، وهدم كل السدود التي تحيل نير الفتنة واشتعالها بين المسلمين . ذلـك أن رسل علي لم يكونوا ليصلحوا رسل صلح ، فقد كانت فيهم شـدة وعنـف ، وكان رسل معاوية بالتالي يسيئون الرد عليهم مما وسع مسافة الخـلاف بـين الفريقين وأوصلهم إلى حرب ضروس .

وفي ذاك اليوم الذي أعلن فيه علي حسم هذا الخلاف بالقتال ، وهو يـوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧هـ ابتدأت الحرب ، ولكن من غير أن يقف كـلا الجمعين وجها لوجه لقتال جماعي عام ، فقد كان يخرج قائد من هنـا ، وقائـد من هناك للمبارزة حتى انقضت سبعة أيام على هذا الحال ، وكـلا الفـريقين يتخوف من القتال الشامل . وعندئذ قال علي لجنده : حتى متى نناهض هـؤلاء القوم بجمعنا ؟ فيأتوا يصلحون أمرهم .

واشتعلت في غد هذا اليوم نار الحرب بين الطرفين أياما متوالية ، فلمـا قتل عمار بن ياسر استاء أصحاب علي لقتله ، فزحفوا على جند معاوية حتـى أشرفوا على الفتح ، وكان الأشتر النخعي قائد جيش علي أن يقضي على بقايـا جند معاوية الصامدين . وبينما الحال يسير على هذا النحو من انتصار وشـيك

لفريق علي على فريق معاوية ، إذا بعمرو بن العاص ومن معه من جند الشام يرفعون المصاحف على رؤوس الرماح ، ويقول أحدهم هـذا كتـاب الله عـز وجل بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ، ومن لثغور العـراق بعـد أهل العراق .

فلما رأي أهل العراق المصاحف المرفوعة أرادوا إجـابتهم فـي ذلـك . فقال لهم علي : يا عباد الله .. أمضوا على حقكـم وصـدقكم . فـإن معاويـة وعمرو بن العاص ، وابن أبي معيط ، وحبيب بن مسلمة ، وابن أبي سـرح ، والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ، ولا قرآن . أنا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم أطفالا ، وصحبتهم رجالا ، فكانوا شر أطفال ، وشر رجـال ويلكـم إنهم ما رفعوها لكم إلا خديعة ، ودهاء ومكيدة .

لكن أصحاب علي أصروا على الاحتكام بكتاب الله ، بـل وهـددوا عليـا باعتزالهم عنه إن لم يأمر الأشتر بوقف القتال . فأوقف علي القتال رغما عنـه بعد أن كاد أن يكون النصر حليفه وحليف أهل العـراق – ثـم أرسـل علـي الأشعث بن قيس إلى معاوية يستطلع رأيه ، فقال له معاوية : " نرجـع نحـن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضـونه ، ونبعـث منـا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدمانه ، ثم نتبع مـا اتفقـا عليه فقال له الأشعث : هذا الحق .

التحكيم:

لما عاد الأشعث وأخبر عليا بما كان . وقع اختيار أهل العراق على أبي موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) حكما من جانبهم وذلك على كره من علي ، بينما اختار أهل الشام عمرو بن العاص حكما عنهم ، وتواعد الفريقان على موعد لبداية اجتماع الحكمين .

وعندما حان أجل اجتماع الحكمين في شهر رمضان سنة ٣٧هـ بعث علي أربعمائة رجل عليهم شريح ابن هانئ الحارثي ومعهم ابن عباس يصلي بهم ، ويلي أمورهم ، وأبو موسى الأسعدي معهم . وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام فتوافوا جميعا بدومة الجندل بأذرع واجتمع الحكمان ، وبحثا فيما جاء لأجله ، وهو إصلاح ما بين الناس ، وشهد هذه الجماعة كل من عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن الحارث بن هشام المخزومي ، والمغيرة بن شعبة وغيرهم ، وهم الذين تخلفوا عن بيعة علي .

وبعد مناقشات طويلة بين أبي موسى وعمرو بن العاص ، وبعد استعراض أسماء عدد من الصحابة لاختيار أحدهم في الخلافة بدلا من علي ومعاوية ، اتفق الطرفان على خلع المتنازعين علي ومعاوية ، وأن المسلمين يولون عليهم من أحبوا ، وكتابا بما اتفقا عليه في كتاب .

وقد قيل في هذا الشأن أن عمرو بن العاص بدهائه ومكره قد استدرج أبا موسى حتى خلع عليا على حين ثبت عمرو ومعاوية صاحبه . ويقول مؤرخنا الكبير حسن إبراهيم في هذا : إن المؤرخين قد ظلموا أبا موسى حين رموه بالغفلة وقصور الرأي . ونرى أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم ، وصادف أن خالف رأيه رأي علي وبين هاشم ، فكان هذا مصدر سخط بعض المسلمين عليه . ولا شك أن رأي أبي موسى كان رأي طائفة عظيمة من معاصرية ، ولم يكن ما قام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافيا وحده لتثبيت ملك صاحبه .

ولم يقبل علي هذا الحكم الذي تأكد له أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد إلى الحكمين أن يحكما بهما ، ورضي به معاوية بطبيعة الحال ، لأن أقل ما في الحكم أن ليس أمر الخلافة لعلي ، وصار الأمر للناس يولون من شاءوا، وعنده جند عظيم يختارونه ويفضلونه على كل من عداه ، ولم يكن هو أساسا خليفة حتى يعزل ، ويحزن لعزله ، ومن هنا زادت أمال معاوية في أن يكون خليفة للمسلمين . ولم يكن حيال ما حدث لعلي إلا معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابه ، ويحكم السيف بينهما وبدأ استعداداته في هذا الشأن ، إلا أن الخوارج قد عطلوا مسيرته .

الخوارج واستشهاد علي :

كان جماعة كبيرة من شيعة علي بن أبي طالب قد انكـروا عليـه قبـول التحكيم وذلك بعد أن كانوا ضمن من أصروا على وقف القتـال فـي معركـة صفين لما رفع جبهة معاوية المصاحف على أسنة الرماح نزولا بالحكم بكتـاب الله .

فلما كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق ، أما جنـد علـي فعندما قرئ عليهم شروط الصلح خرج هؤلاء المنكرون لقبول علـي،التحكـيم لأنهم كانوا يرون أن عليا ومعاوية إنما حكما في أمر الله الرجـال ، وهـم لا يقبلون الحكم إلا لله ، وانسحبوا بجموعهم من معسكر علـي إلـى حـروراء ، فسموا بالخوارج (أو الحرورية) واتهموا عليا وكل مـن رضـي بـالتحكيم بالكفر ، وبايعوا رجلا منهم يدعى عبد الله بن وهب الراسبي ، وجعلوه أميـرا عليهم ، وأخذوا يقتلون ويعتدون على كل من لا ينضم إليهم ، ويقول بقولهم .

وأخذ علي في مفاوضة هؤلاء الخوارج عسى أن يرجعـوا عـن رأيهـم فأرسل إليهم عبد الله بن عباس ، فناقشهم واقتنع كثير منه بحجتـه ، فرجعـوا عن رأيهم ، وامتنع آخرون ، فخرج إليهم علي بنفسه وناقشهم فيمـا يـرون ، فلما يئس علي من هدايتهم عزم على حربهم قبل أن يتوجه إلى الشـام لحـرب معاوية ، وجرت بينه وبينهم معركة في النهروان ، وانتصر عليهم فلما فـرغ

علي من هزيمة الخوارج ، رجع إلى الكوفة ، وندب الناس إلـى قتـال أهـل الشام فتثاقلوا . ولما وعظهم وحثهم على الجهاد ، قالوا : يا أميـر المـؤمنين ! كلت سيوفنا ، وفنيت نبالنا ، ومللنا من الحـرب ، فأمهلنـا نصـلح أمرونـا ، ونتوجه .

وكان علي قد عسكر بظاهر الكوفـة ، فـأمهلهم ، وأمـرهم أن يوطنـوا نفوسهم على الحرب ، ونهاهم عن الرجوع إلى أهليهم حتى يعودوا من الشـام فصاروا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى خلا المعسكر منهم . فلـم يجـد علـي منهم أذنا صاغية ولا قلوبا واعية .

وبينما كان هذا حال أهل العراق مع إمامهم كان حال أهـل الشـام مـع معاوية على العكس من ذلك تماما ، فهم جند مطيع ، وقلـوب متحـدة ، ولـذا كان شأنه دائما في علو ، ولم يكتف معاوية عند هذا الحـد ، بـل بـادر فـي الاستيلاء على بعض الولايات والمواقع التابعة لعلي . وكان اسـتيلاؤه علـى مصر بقيادة عمرو بن العاص من عامل علي محمد بن أبي بكر مـن أعظـم الثمار التي وقعت في قبضة معاوية في هذه المرحلة .

استشهاد علي :

بينما كان علي يلقي الشدائد على يد أصحابه الذين تثاقلوا عنه ، وتسللوا من معسكره خارج الكوفة . ويحاول هو بدوره جمع جموعه دون ملل لقتال معاوية في الشام بعد أن أدرك خطره وخصوصا بعد استيلاء معاوية على مصر ، وبينما استطاع أخيرا بعد شق النفي أن يجمع جيشا قوامه أربعون ألفا، ويتحرك بهم ، كان الخوارج قد أجمعوا أمرهم على قتل علي ، ومعاوية وعمرو بن العاص في يوم واحد ، حتى ترتاح الأمة الإسلامية من تلك الحروب التي نشبت من أجل الخلافة .

فقد اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج ، وهم : عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله ، وعمرو بن بكر التميمي ، فتذاكروا أمر الناس ، وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهروان فترحموا عليهم ، ثم اتفقوا جميعا على قتل أئمة الضلال على حد قولهم ، واختار كل واحد من الثلاثة من يقتله فاختار ابن ملجم عليا ، والبرك بن عبد الله معاوية ، أما عمرو بن بكر التميمي فقد اختار عمرو بن العاص ، وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه ، فاخذوا أسيافهم فسموها ، واتفقوا أن يكون يوم ١٧ من شهر رمضان من سنة ٤٠هـ / ٦٦١م .

وفي الموعد المضروب كمن ابن ملجم لعلي بن أبي طالب حتى خرج علي يريد صلاة الصبح ، فضربه ابن ملجم في رأسه بالسيف ، وهو ينادي الحكم لله لا لك ، ولا لأصحابك ، ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة ،

فسارعوا بالقبض علي ابن ملجم ، وتوفي علي إثر هذه الحادثة بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياما وقضاها في هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت حاضرة خلافته .

أما البرك بن عبد الله فإنه كمن أيضا لمعاوية في اليوم المتفق ، فلما خرج معاوية للصلاة ضربه البرك بالسيف ، فوقع السيف في البته ، ودووى من الضربة ، وأمر معاوية منذ هذا التاريخ بعمل المقصورة وأنشأ حراسة ليلية ، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد .

أما عمرو بن بكر الذي عزم على قتل عمرو بن العاص ، فإنه جلس له في الليلة المتفق عليها ، فلم يخرج عمرو بن العاص لصلاة الصبح لمرض طرأ عليه فانتدب خارجة بن حذافة قاضي مصر أن يصلي بالناس وبينما هو في الصلاة ضربه ابن بكر الخارجي بالسيف فقتله . وكان في حسبانه أنه عمرو فلما علم أن المقتول غير عمرو فقال : أردت عمرا ، وأراد الله خارجه فصارت مثلا .

تم الكتاب بحمد الله وبعونه

والحمد لله رب العالمين

١/٨/٢٠٠٧ م

دكتور

عبد الرحمن أبو راس

فهرس الكتاب



مركز
للكمبيوتر